

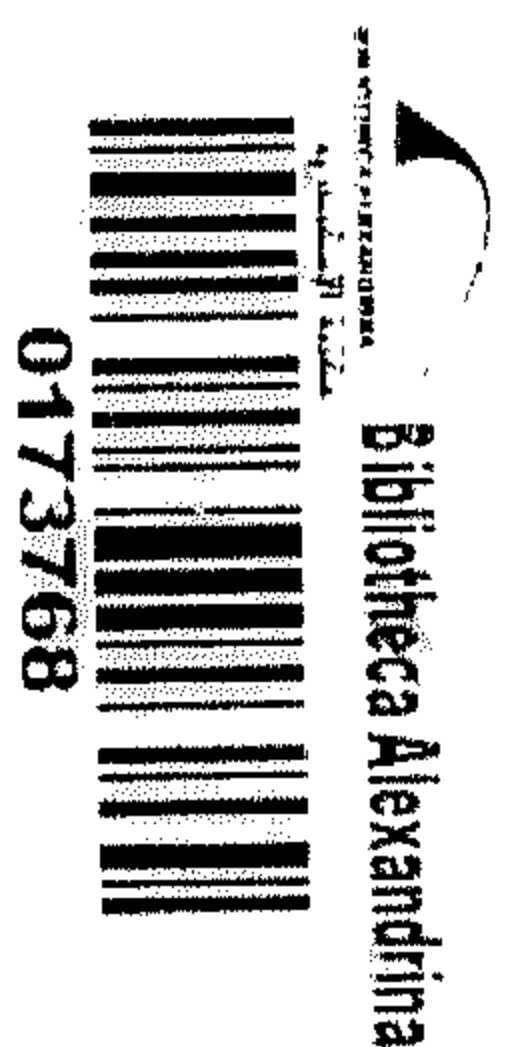
صامويل اليوت موريسون

ترجمة: فوزي قبلاوي

مراجعة: أحمد زكي القراري



سلسلة نوحا



کرسٹوفر کولمبوس

المكتشف العظيم

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكاين المساهمة للطباعة والنشر

بيروت - نيويورك

١٩٥٩

اهداءات ٢٠٠١

١. صلاح راتب

القاهرة

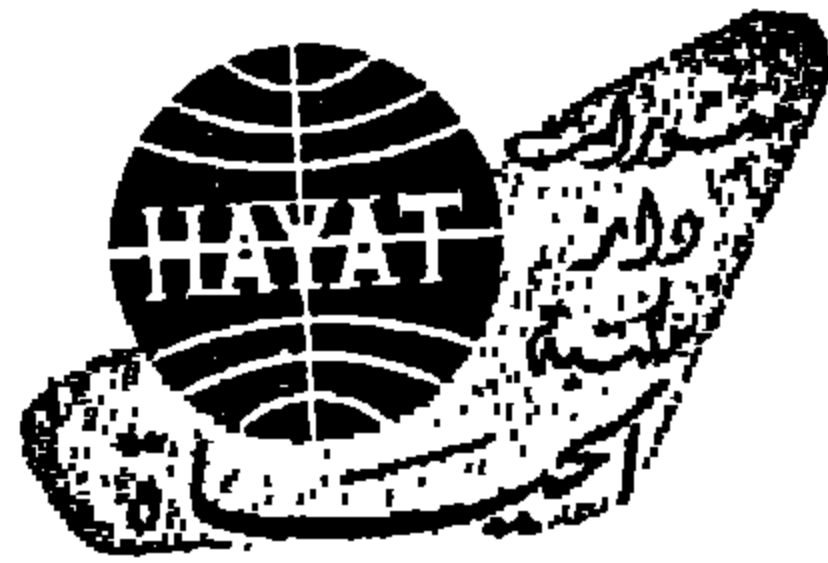
کرسٹوفر کولمبوس

المُكتَشَفُ العَظِيمُ

تأليف : صاموئیل الیوت مورلیسون

ترجمة : فوزی قبلادی

مراجعة : أحمد زکی العربی



هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فونكاين المساهمة للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من اصحاب هذا الحق

This is an authorized translation of
CHRISTOPHER COLUMBUS, MARINER by
Samuel Eliot Morison . Copyright 1942 , 1955 by
Samuel Eliot Morison . Published by Little ,
Brown and Company, Boston, Massachusetts

المساهمون في هذا الكتاب

المؤلف – صاموئيل اليوت موريسون :

ضابط بحري متقاعد في الجيش الأميركي ، وهو مؤرخ مشهور لشؤون الملاحة ، وثقة فيما يختص بكولمبوس ورحلاته .

درس في جامعة هارفرد ، وحصل على شهادة الدكتوراه منها سنة ١٩١٢ . وعنده شهادات أخرى من جامعة أكسفورد وكلية امهرست وجامعة ييل ، ومن جامعات أخرى في أميركة ، وقد درّس التاريخ في هارفرد منذ سنة ١٩١٥ .

وفي الحرب العالمية الثانية عين مؤرخاً للأسطول الأميركي ، ونشر مجلدات عدة من تاريخه هذا بعد الحرب .

وفي سنتي ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ ، قاد رحلة بحرية بالمراكب الشراعية لتتبع الطريق التي سار فيها كولمبوس من اسبانية الى اميركة . كان من نتيجتها هذا الكتاب الذي نال أعظم جائزة في كتابة السيرة .

المترجم – فوزي قبلاوي :

تخرج من الجامعة الاميركية في القاهرة سنة ١٩٤٩ . وشغل عدة مناصب تدريسية

وإدارية في سورية ولبنان . وقد أنشأ المؤسسة الشرقية للترجمة في
بيروت سنة ١٩٥٨ .

المراجع - أحمد زكي العرابي :

مدير الكلية العربية في بيروت ترجم عدداً من الكتب من أهمها قصة
« ذهب مع الريح » .

الفصل الأول

كريستوفر يذهب الى البحر

كان كريستوفر كولمبوس ، مكتشف العالم الجديد ، اولاً و آخراً بحاراً . ولد وترعرع في مدينة جنوى ، التي تعد من أعرق المجتمعات الملاحية في اوروبا . وقد قام في شبابه ، بعدة رحلات في البحر الأبيض المتوسط حيث نشأ أعظم بحارة التاريخ القديم . وفي الرابعة والعشرين من عمره ألقى به حظه السعيد في مدينة لشبونه ، مركز المشاريع البحرية الاوروبية آنذاك . وهناك ، وبينما كان يعمل في جمعية لرسم الخرائط حيناً ، والقيام برحلات طويلة في ظل العلم البرتغالي حيناً آخر ، تصور المشروع العظيم الذي ما كان ليستطيع تخطيطه الا ملاح والذي لم يكن ليقدر على تنفيذه سوى بحار ماهر . وكان هذا المشروع يهدف بكل بساطة ، للوصول الى « جزر الهند » - شرقي آسيا - بالبحار غرباً . ومع انه قضى عشر سنوات في السعي للحصول على من يدعم فكرته هذه ... الا انه لم ينفذها ابداً . فقد كانت تقف في طريقه قارة شاسعة .

وقد اكتشف كولمبوس اميركا بمحض الصدفة ولذلك سميت باسم شخص آخر لم تكن له بها أدنى صلة . وها نحن نكرم كولمبوس لقيامه بعمل لم يقصد القيام به أبداً ، بل انه مات ولم يدر بما عمل . ومع هذا فنحن على حق في

تكريه ، اذ لم يك ثمة بحار غيره ، يملك الصبر والمعرفة والشجاعة للبحار آلاف الاميال في خضم المحيط المجهول إلى أن يجد اليابسة .

وكان هذا العمل أعظم وأهم اكتشاف جغرافي بعيد الأثر سجله تاريخ الإنسانية . هذا فضلاً عن ان كولمبوس ، بالإضافة الى ضخامة العمل الذي حققه ، كان شخصية مثيرة تبعث على الإعجاب .

ولد كولمبوس على مفترق طريق عصرين - عصر القرون الوسطى وعصر النهضة - فكان يعكس صفات كلا العصرين . كان يملك الايمان الديني الراسخ ، وقوة الاستنتاج والاتصال الوثيق بالمجهول ، تلك الصفة التي امتازت بها القرون الاولى للمسيحية... وكذلك كان يتصف بحب الاستطلاع العلمي والحماسة للحياة وتحسس الجمال... والاندفاع وراء ما هو جديد ، ذلك الاندفاع الذي نقرنه بتقدم العلم والمعرفة .. كما كان من أعظم رجال البحر في كل الأزمان .

وتبدأ القصة في مدينة جنوى بوالدي المكتشف العظيم ، دومنيكو كولومبو ، الذي كان يعمل في حياكة الصوف كما كان أبوه من قبل ، وزوجته سوزانا التي كانت ابنة حائك أيضاً .

كان دومنيكو ينتمي الى الطبقة الوسطى في جنوى ، وكان عضواً في جمعية حائكي الصوف التي تشبه النقابة الآن .. وكان يملك أنواله ويستخدم عمالاً مياومين ليساعدوه في انتاج الثياب الصوفية . وبما أنه كان محبوباً في مجتمعه أنتخب مسؤولاً عن بعض المهام الصغيرة في الجمعية . ومع هذا فقد كانت زوجته وأفراد عائلته يرونه معيلاً مقلداً الى حد ما . لقد كانت من ذلك النوع من الآباء الذين يحبهم الاطفال ، والذي كان يمكن أن يغلّق حانوته في أحد الايام الجميلة ويصطحبهم الى صيد السمك ... وهكذا كانت حسناته تمحو سيئاته ؛ وهكذا سمى كريستوفر أقدم مدينة في العالم الجديد بسانتودومنيكو ، على اسم القديس المفضل لدى والده .

وفي يوم لا يحدده التاريخ بالضبط ، ما بين شهر آب وشهر تشرين الأول من

عام ١٤٥١ وضعت سوزانا كولومبو طفلاً ذكراً سمي كريستوفر . ولا نعرف لماذا اختار له والداه هذا الاسم . ولكنها بهذا العمل شحذا ميول الطفل الطبيعية ، فقد كان القديس كريستوفر رجلاً وثنياً طويل القامة ، قوي البنية ، يتحرق شوقاً لمعرفة المسيح ، ولكنه على ما يظهر لم يستطع أن يفعل شيئاً لتحقيق تلك الرغبة . كان يعيش على ضفة نهر في آسيا الصغرى على مقربة من مخاضة خطيرة ، وهناك كان يساعد بحكم قوته وضخامة جسمه الكثير من المسافرين على عبور هذه المخاضة .

وذات يوم ، وبينما كان مستغرقاً في النوم في كوخه ، سمع صوت طفل يناديه : « كريستوفر تعال واحملني عبر النهر » فخرج وبيده عصاه وأخذ الطفل على كتفه ، وبينما كان يخوض به النهر الى الضفة المقابلة ، ازداد وزن الطفل بشكل جعله يتجه بكل اهتمامه ليمنع نفسه من التعثر والسقوط ... وأخيراً وصل الضفة الأخرى بسلام ... وقال :

« حسناً ! والآن يا بني ، لقد عرضتني لخطر عظيم فقد ازداد وزنك كثيراً بحيث انني لو حملت العالم كله على ظهري لما وجدته أثقل منك » .

فأجاب الطفل قائلاً : « لا تعجب فقد حملت فعلاً على ظهرك العالم كله والذي خلقه ، فأنا هو الطفل يسوع ، الذي خدمته بفعلك الخير لبني البشر ... اذهب واغرس هذه العصا قرب كوخك وغداً ستعطيك زهراً وثماراً برهاناً على انني حقاً الآهك ومخلصك » . وفعل كريستوفر ما أمر به ... وفعلًا تحولت عصاه في الصباح التالي الى شجرة نخيل وارفة . ومن ذلك الحين أصبح القديس كريستوفر حامياً كافة المسافرين في البحر والبر والجو .

وهكذا رأى كريستوفر كولومبوس في اسمه إشارة الى ان من المقدر له ان يحمل المسيح عبر البحار الى الذين لم يعرفوه . وفي الحقيقة ان أقدم خارطة معروفة للعالم الجديد ، والموضوعة عام ١٥٠٠ بعيد الميلاد ، والمهداة الى كولمبوس من جون دي لا كوزا وكيل سفينته مزينة بصورة نصفيّة للقديس كريستوفر حاملاً الطفل يسوع على كتفيه .

كانت عائلة كولبوس عائلة محترمة ولكنها مرحة وبسيطة الى حد ما ، وكان دومنيكو دائم الترحال ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من سافونا ، الواقعة على بعد أميال قليلة من جنوى . ودائماً ما كان يتعاطى أعمالاً جديدة بالإضافة الى الحياة ويخسر نقوده بسببها .

رزق دومنيكو ، بعد كريستوفر ، ولده الأكبر – بين أولئك الذين عاشوا عهد الطفولة على الأقل – صبيّاً آخر توفي صغيراً ، وابنة تزوجت من جار لهم كان يتاجر بالجن ، وهو « بارثوليميو » الذي أصبح فيما بعد شريكاً للمكتشف العظيم وزميلًا بحرياً وادارياً على السفينة . ثم جايكومو الذي كان يصغر كريستوفر بسبعة عشر عاماً والذي رافقه ايضاً الى العالم الجديد والذي يعرف دائماً باسم « ديجو » ، الاسم الاسباني المقابل لأسمه الأول ، وكان لانطونيو شقيق دومنيكو ، عائلة كبيرة ايضاً . وقد قاد أحد أبنائه ويدعى جيانفو (جوني) إحدى سفن الرحلة الثالثة . وقد كان شعور التضامن العائلي قوياً بين أهل جنوى كما كان الحال لدى الكورسيكيين (الذين كانوا آنذاك يتبعون الجمهورية ذاتها) . وتتماً كما اوجد نابليون بونابرت العروش والألقاب لأفراد عائلته كذلك شعر كولبوس ان عليه الاعتماد على اخوته وأنسابه لكونه غريباً في اسبانيا .

ويمكننا سرد القليل الذي نعرفه عن حياة المكتشف في طفولته وشبابه الباكر بأقصر وقت ، نظراً لضآلته : تلقى مقداراً قليلاً جداً من الدراسة الرسمية وكان يتكلم بلهجة اهالي جنوى التي كادت تكون غير مفهومة لدى باقي الايطاليين . ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا عندما ذهب الى البرتغال . وبما ان جميع الذين وصفوه في آخر حياته قالوا بأنه كان ذا وجه طويل وأنف معقوف ، مورد الوجه أحمر الشعر ، فبوسعنا اذن ان نتصوره وهو فتى ، بوجهه الكلف وشعره الاحمر وعينه الزرقاوين .

كما يستطيع المرء ان يتصوره طفلاً صغيراً حالماً كثير التدين بالنسبة الى سنه . ولا بد انه كان يكره العمل على المتول في مخزن أبيه نظراً لأنه كان ينتهز كل فرصة للذهاب الى البحر .

كان ذلك المجتمع البحري يزخر بفرص العمل .. فقد كان معظم النقل على طول الساحل الليغوري^(١) يتم بواسطة البحر .. وكان الناس الذين لا عمل لهم يمارسون مهنة الصيد كما كان يمارسها الكثيرون ممن يتعاطون أعمالاً أخرى .. وكانت السفن الكبيرة والصنادل الضخمة تبني في الميناء .. وكانت أحواض الزوارق تشهد منتشرة في الخلجان على طول الساحل ، بينما كانت سفن الجمهورية تتاجر مع كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط وتصل الى أوروبا الشمالية .

وقد قال كولبوس في آخر حياته ان أول مرة نزل فيها الى البحر كانت عام ١٤٦١ عندما كان في العاشرة من عمره . والمرجح ان رحلاته البحرية في ذلك السن لم تكن ذات أهمية . وربما كان أبوه يسمح له بالإبحار مع أحد جيرانه الى بورتوفينو لتحميل السمك المجفف ، أو حتى الى كورسيكا . هذه السفرات التي كان يمكن أن تبدو كرحلات خارجية بالنسبة لولد صغير .

أي بحار يستطيع ان ينسى طوافه الأول ؟ فان كل حادثة ، وكل تقلب ريح وكل سفينة وكل شخص تلتقي به تبقى صورته مطبوعة في مخيلتك لسنين طويلة . وهل هناك أدعى للاعزاز والسرور من تسلم الدفة ريثما ينزل القبطان الى العنبر أو عندما يغفو المساعد في الجانب المشمس من ظهر السفينة . ؟

وهل هناك أروع من ان تشاهد خمسة جبال^(٢) ترتفع فوق الأفق ثم تراقبها وهي تشمخ بقممها وتنتشر متداخلة بعضها مع البعض الآخر لتصبح جبلاً واحداً هائلاً كلما اقتربت منها ! ومن ثم تنزل الى الشاطئ لتقايض مديتك باول شيء غريب تقع عليه عيناك .. ولتشاهد الجزيرة وهي تختفي رويداً رويداً تحت الأفق وانت تباعد عنها في طريق العودة للوطن .. حيث تسير مختللاً على الشاطئ وكأنك بحار حقيقي قديم ! حقاً انها لأمر لن ينساها بحار أبداً .

والواقع اننا لا نعرف بالضبط متى قرر كريستوفر ان يترك صناعة النسيج

(١) نسبة الى ليغوريا ، وهي الجزء من الساحل الايطالي حيث تقع مدينة جنوى .

(٢) جبال جزيرة كورسيكا .

ليجعل البحر مهنته ، فالحقائق عن حياته المبكرة قليلة . وعلى المرء أن يجمع الحوادث التي كان يذكرها هو أو بعض رفاقه بعد ان أصبح كولبوس مشهوراً ، أو تلك المسجلة في مكاتب العدل بسبب بعض القضايا .

ومن المرجح ان كولبوس قام بعدة رحلات طويلة في البحر الأبيض المتوسط في غضون السنوات الثماني من عمره ، بين الخامسة عشرة والثالثة والعشرين ، ولكنه كان يقضي معظم اوقاته على البرّ يساعد والده . وعندما كان في التاسعة عشرة من عمره التحق بخدمة سفينة جنوية كان قد استأجرها « رينه الثاني ملك انجو » وجعلها جزءاً من اسطوله الحربي ليستخدمها في اشتباك قصير مع اسطول أراغون . كما قام كريستوفر برحلة واحدة على الأقل الى تشاوس ، إحدى جزر الاغريق ، وذلك في سفينة كان يملكها تجار من جنوى احتكروا التجارة مع تلك الجزيرة .

وفي أيار من عام ١٤٧٦ أي عندما أصبح في الخامسة والعشرين من عمره ، أتت المغامرة التي غيرت مجرى حياة كريستوفر ، فقد جهزت جنوى قافلة بحرية مسلحة لنقل شحنة ثمينة الى شمال أوروبا . وفي هذه القافلة سافر كريستوفر بحاراً في سفينة فلمنكية تدعى « بتشالا » .

وفي ١٣ آب وبعد أن عبر الاسطول مضيق جبل طارق وأصبح بعيداً عن الشاطئ البرتغالي الجنوبي هاجمته قوة فرنسية كانت تقوم بأعمال الحراسة . وظلت المعركة محتدمة طوال النهار ، وعندما حل الليل كان حصاد المعركة ان غرقت ثلاث سفن جنوية وأربع من سفن الاعداء . وكانت « بتشالا » من بين السفن التي أصيبت في المعركة . ومع ان كريستوفر جرح فانه استطاع ان يتمسك بمجذاف عائم ظل يوالي دفعه الى الامام ويستريح عليه الى أن بلغ الشاطئ الذي كان يبعد ستة أميال عن مكان المعركة . وهناك قابله سكان مدينة لاغوس القريبة بلطف وحنان . وعندما علموا ان أخاه الاصغر « بارثوليو » يسكن في لشبونه أرسلوه الى هناك حالما أصبح قادراً على السفر . وكان هذا أحد الأحداث العظيمة التي كان يمكن ان تقع لكريستوفر كولبوس .

الفصل الثاني

الاجار الى البرتغال

كانت البرتغال آنئذ أعظم البلدان نشاطاً في أوروبا وأكثرها ازدهاراً ، كما كانت لشبونه مركزاً للارتياح والاكتشاف . وقبل نصف قرن تقريباً كان الشاب « دوم هنري » الامير البرتغالي المشهور بهنري الملاح قد اقام مكتب استعلامات يضم قسمي الهيدر وجرافي - وصف سطح المياه - والتنبؤات البحرية في رأس سانت فنسنت ، الذي جذب البحارة الطموحين من جميع أنحاء البحر المتوسط . وقدم المساعدات المالية للقيام برحلات في مجاهل الاطلسي وعلى طول شاطئ افريقيا الغربي . واكتشف ربابنته جزر الأزور السبع الواقعة في ثلث الطريق المؤدية الى اميركا ، ولم يستعمر البرتغاليون جزر الأزور فحسب بل جزر الماديرا التي اكتشفت سابقاً وجزر رأس فيردى البعيدة عن افريقيا .

وغدت القارة المظلمة مركز اهتمام الامير هنري الخاص . ففي كل بضع سنوات كان قباطنته يصلون الى نقطة أبعد جنوباً على طول الساحل الغربي - وعندما يوصل كولبوس الى لشبونه كان قباطنة الأمير هنري قد عبروا خليج غينيا . وكانت أساطيل السفن ذات الأشرعة المثلثة ، وهي سفن صغيرة سريعة

بنيت خصيصاً لنقل التجارة الافريقية ، تنطلق من ميناء لشبونه في كل ربيع حاملة معها الأقمشة الحمراء والخرز الزجاجي وأجراس الصقور والخيل ، وتعود مع الخريف مشحونة بالبضائع الثمينة ، كالعاج والتبر والبهارات والعبيد السود . ولما كانت لشبونه مدينة تواجه المحيط ، لم يكن الانطلاق من احواضها الى خضم الاوقيانوس الأزرق صعباً او يستغرق طويل وقت .

وفي الوقت الذي كانت تجارة شرقي حوض البحر المتوسط تنتقل من يد جنوى الى أيدي اهالي البندقية والأتراك ، كانت لشبونه تتقدم مرتادة طرقاً جديدة للتجارة حول الدائرة العظيمة الممتدة من جزيرة ايسلندا مروراً بجزر الازور حتى الشاطئ الذهبي ، وهكذا تقاطر الى لشبونه التجار الطموحين ورجال البحر من كافة البلدان ، بما في ذلك أهالي جنوى لينالوا نصيبهم من الثروة . وقد أعان التاج البرتغالي عامداً جميع الرحلات بقصد اكتشاف جزر جديدة وإيجاد طريق بحرية الى الهند حول افريقيا .

وعلاوة على ذلك كانت مدينة لشبونه مدينة علم ، فكان يتسنى لقادم جديد مثل كولبوس ان يتعلم اللاتينية وبعض اللغات الحديثة وان يحصل على الكتب التي تزيد معلوماته عن العالم . أما بارثوليميو ، الذي كان قد اندمج في الجالية الجنوبية هناك ، فقد كان يعمل في إحدى المؤسسات لتصميم الخرائط حيث تمكن من الحصول على عمل لكريستوفر .

ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لدى الأخوين كولبوس مؤسسة خاصة ناشئة لتصميم الخرائط وطبعها ، مما جعلها على اتصال وثيق بكبار ربانة البحار وامثالهم من الشخصيات ، فقد كانت الخرائط والرسوم آنذاك توضع اعتماداً على المعلومات ومسودات الرسوم التي يعود بها البحارة من رحلاتهم .

وكان الاخوان يحاولان دائماً ان يكونا في استقبال السفن العائدة من أفريقيا أو الجزر الغربية ليدعوا ربانيتها او مرشديها لتناول الطعام او الشراب معها فيستخلصان منهم كل ما يستطيعان من المعلومات المفيدة لتصحيح خرائط البلاد

المعروفة او توسيعها لتشمل بلداناً جديدة على الساحل الافريقي . وقد حدث في احد هذه المؤتمرات ان قبطاناً أشيب الرأس تطلع الى خارطة العالم المعروف ، وقال ملاحظاً :

« لقد سئمت الابحار على شاطيء غينيا الموبوء بالحمى والمساومة مع الرؤساء المحليين على شحنة من العبيد ، لم لا نبحر غرباً عبر جزر الازور حتى نصل الى الشرق الذهبي فنصيب الهدف الحقيقي ؟ »

ولم لا حقاً ؟ لقد كان الناس يتحدثون عن ذلك منذ ايام الامبراطورية الرومانية ولكن أحداً لم يحاول ذلك على ماتعي ذاكرة الانسان .

لقد كان مشهوراً عن الاقيانوس بأنه عريض جداً لا ضابط للرياح فيه ، ولم يكن باستطاعة السفن ان تحمل شحنات كافية من المؤن تكفي لاطعام بحارتها لعدة أشهر بالاضافة الى ان البحارة انفسهم كانوا يشعرون بالرهبة أمام ذلك الحضم المظلم من المياه المتلاطمة ، المحيط الاطلسي الشمالي ، فيترددون في الاشتراك في مغامرة كهذه . وكان كل رجل متعلم يعترف ولو نظرياً بإمكانية الوصول الى الشرق بالابحار غرباً ، ولا سيما وأنه كان يعرف ان الأرض كروية ، ولكن احداً لم يفعل شيئاً لاختبار صحة تلك النظرية . وعندما وصل كولبوس الى لشبونة في عام ١٤٧٦ ، كان اقترح الابحار غرباً للوصول الى الشرق قد وصل الى المرحلة التي وصلت اليها فكرة الطيران عام ١٩٠٠ - أي انها ممكنة نظرياً ولكنها محفوفة بالمخاطر الحقيقية بالاضافة الى ان العادة والتقاليد وانتشار الخرافات كانت تقف ضدها : إذ كانوا يقولون عام ١٤٧٦ « على الانسان ان لا يغضب القدرة الالهية بسعيه الى سبر غور الأعماق المجهولة في المحيط » . أو « خلِقَ الانسان ليكون على الأرض لا في السماء » ... ولكن ما ان حلت سنة ١٤٩٠ حتى أقر معظم العقلاء بان السفر غرباً الى الصين ممكن وطالب القليلون بالقيام بها ولكن أحداً لم يهتم بالشروع في التنفيذ ... الى ان بدأ ذلك الشاب الجنوي كريستوفر كولبوس يضايق الناس بطلباته لتمويل مشروعه ! والحقيقة اننا لا نعلم متى وكيف طرأت هذه الفكرة على رأسه ، فربما

او عز اليه - كما نفترض - ربان سفينة ضاق ذرعاً بفشل ومخاطر التجارة مع غينيا . أو ربما خطرت بباله في دفق شعوره الديني أثناء حضوره القداس لدى سماعه المزمور التاسع عشر يقول : « السموات 'تحدث بمجد الله' . ذلك ان مواطناً من جنوى أشار بان كريستوفر حقق النبوءة الواردة في الآية الرابعة التي تقول : « في كل الأرض خرج منطلقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . أو ربما قرأ نبوءة سنيكا في « ميديا »^(١) القائلة : « سيأتي زمن تنهار فيه القيود المضروبة حول الاقيانوس ويزاح الستار عن قارة واسعة عندما ينجح بحار في اكتشاف عوالم جديدة ، وحينئذ لن تبقى ثولا^(٢) خط النهاية أبداً » . ولقد حقق كولمبوس بالفعل تلك النبوءة ايضاً ، كما سجل ابنه فرديناند على نسخته في كتاب سنيكا آنذاك ... ولسنا نعرف كيف توصل كولمبوس الى فكرة الابحار غرباً للوصول الى الشرق ! وجل ما نعرفه ان الفكرة أصبحت حقيقة واقعة لديه حالما التقطها ، فقد كان كولمبوس رجلاً من النوع الذي يعتبر العمل متمماً للاحلام . لقد عرف الحقيقة ولكنه لم يهدأ الى ان اثبتتها واصبحت الكلمة حقيقة حية !

ولنعترف بان اقتران خياله الخلاق بالثقة الراسخة ، ونفاذ صبره من المتقاعسين واحتقاره لمعارضيه جعله أحمق في عيون البعض ، وملحاحاً ثقیل الظل في عيون الكثيرين . وكرواد الطيران ، اعتبر ممسوساً في عقله ، كانسان يود التحليق في وجه الله - والاسوأ من ذلك كله انه كان عليه ان يقنع الرجال الأغبياء الذين كانوا يحتلون المراكز الرفيعة بان مشروعه للوصول الى جزر الهند ، كما كان يسميه ، مغرياً جداً ومعقولاً ، لأنه كان يحتاج الى المال والعتاد والرجال !

وكان على كولمبوس ان يحوز خبرة في الملاحة أوسع من خبرته في ادارة الشراع الامامي ورسم الخرائط لكي يأمل باقناع الناس بمغامرته . وقد اكتسب هذه الخبرة في ظل العلم البرتغالي . ففي خريف السنه التي وصل فيها الى لشبونه ،

(١) - اسطورة يونانية .

(٢) - في علم الجغرافية القديم ، كانت هذه اللفظة تطلق على القسم الشمالي الغربي من اوروبا .

أبحر على سفينة برتغالية كانت تقوم بالتجارة في «معبّر الاطلسي» حيث ازدهرت تجارة مقايضة الصوف والسمك المجفف والخبز بين ايسلندا ، وايرلندا ، وجزر الازور ، ولشبونه . واثناء ذلك زارت سفينته مدينة غالوي حيث رأى - كما ذكر في سنوات تالية - زورقاً ينحرف مع التيار وعليه شخصان ميتان ، لهما مظهر غريب مما جعل الايرلنديين يقولون بانها لا بد أن يكونا من الصين . وربما كانا فنلنديين غادرا سفينة غارقة . اما قبطان السفينة التي ابحر عليها كولبوس فقد انطلق في شباط عام ١٤٧٧ في رحلة استكشافية مسافة مئة فرسخ شمالي ايسلندا وذلك قبل عودته الى البرتغال ، وهكذا اتيح لكولبوس ان يفاخر بانه ابحر الى حافة دائرة القطب الشمالي !

وفي السنة التالية وقد اصبح كولبوس في السابعة والعشرين من عمره استخدمته الشركة الجنوبية التي ابحر معها سابقاً الى تشيوس ، لكي يشتري لها كمية من السكر من جزر الماديرا ويعود بها الى جنوى . ولكنها اغفلت تسليمه المال اللازم لشراؤها ، فرفض تجار فونشال^(١) تسليم الشحنة على الحساب ، فعاد كولبوس الى جنوى بدون السكر . فاقامت عليه الشركة دعوى أمام القضاء ، وقدم كريستوفر افادته في جنوى في صيف عام ١٤٧٩ . وربما كانت تلك الزيارة آخر زيارة قام بها لوطنه الاصيل . ولكن « تلك المدينة النبيلة القوية الرابضة قرب البحر » كما قال عنها في وصيته ، ظلت قريبة الى قلبه ، وكما تمنى لو يستطيع ان يحتفظ الى الأبد ببيت خاص من املاكه لذريته هناك . ولم يصبح كولبوس مواطناً في أي بلد آخر ، بل عين بنك القديس جورج في جنوى ، منفذاً لوصيته .

ولدى عودة كريستوفر الى لشبونه قادماً من جنوى تزوج الدونا فيلبا بريستريلو امونيز سليلة احدى عائلات البرتغال الأولى ، وابنة بارثوليمو بريستريلو الحاكم الورااثي لبورتوسانتو في جزر الماديرا ، وحفيدة جيل فونيز الفارس الذي كان مرافقاً للأمير هنري ، وعاش الزوجان الشبان فترة من الزمن في

(١) عاصمة جزر ماديرا .

لشبوته مع والدته الدونا فيليبيا ، التي أفشت سر لوائح قيد السفن والخرائط-
العائدة لزوجها الراحل وذلك لمنفعة صهرها . وفيما بعد انتقل الزوجان الى
بورتوسانتو حيث كان شقيق الدونا فيليبيا هو حاكم المدينة ، وهناك وضعت
الدونا ابنها الوحيد « ديجو » الذي عرف فيما بعد بالدون ديجو كولون ، الاميرال .
المساعد ونائب الملك في جزر الهند . وحوالي عام ١٤٨٢ انتقلوا الى فونشال في
جزر الماديرا وفيما كانوا هناك قام كولمبوس برحلة او ربما رحلتين الى سان جورج .
دامينا ، المركز التجاري الحصين الذي انشأه التاج البرتغالي على الشاطئ .
الذهبي . وفي احدى هاتين الرحلتين انيطت القيادة به .

ولدينا أيضاً ما يثبت ان كولمبوس كان يعرف جزر الازور معرفة تامة .
وربما لم يكن من الصحيح انه رأى على الطرف الشمالي من كورفو صخرة طبيعية .
على شكل تمثال فارس مشيراً الى الغرب ، ذلك ان تركيب الصخور هناك غريب
لدرجة لا تتطلب كثيراً من الخيال لتصور مثل تلك المناظر . فقد اكتشفنا
بانفسنا عام ١٩٣٩ ، شكل تمثال لمحارب مسلح مقنع الوجه مكتف الذراعين .
يتطلع صوب نيوفولاند وتميننا ان لا يحسبه البعض أدولف هتار !

اصبح كريستوفر كولمبوس الان في الواحدة او الثانية والثلاثين من عمره ،
واعتبر انه قد بلغ سن الرجولة والنضوج بموجب المقاييس المعروفة في ايامه .
وكان آنذاك ربانا بحرياً في خدمة الاسطول التجاري البرتغالي ، اعظم واشجع
اسطول بحري تجاري في العالم آنذاك كما كان قد أبحر من اعالي دائرة القطب
الشمالي حتى خط الاستواء تقريباً ومن جزر الاغريق الشرقية الى اقاصي جزر
الازور . وتعلم جميع اصول الملاحة العملية التي يمكن ان تكتسب من ممارسة
العمل في السفن ابتداء من « فتح الحبال » وقد سار صعوداً حتى بلغ غرفة
القبطان . وكان باستطاعته ان يضع الخرائط ويرسم خطوط العرض من النجمة
الشمالية . والى جانب ذلك كان قارئاً مشغولاً لجميع كتب الجغرافيا .
وعلم الكون وتركيبه وقد ارتبط بواسطة زواجه مع عائلتين عظيمتي الشأن
في البرتغال . وكان له ارتباطات تجارية مع بنك تجاري رئيسي في جنوى .

.وما كان على كولبوس الا ان يستمر في خطته ويثابر على عمله في التجارة الافريقية نظراً لما فيها من الفرص الكثيرة السانحة حتى يدخر بعض المال . ويعتزل العمل بعد سنوات قليلة وقد اصبح ثريا . او ربما اعطاه الملك بعض السفن الملكية لارتياح الشاطيء الافريقي ، كما كان يفعل ديجو كاوما بين عامي ١٤٨٢ - ١٤٨٣ ؛ او كاو الذي نال لقب الفروسية والشرف في عام ١٤٨٤ اثر وصوله الى نقاط جديدة على طول الشاطيء الافريقي .

لكن كريستوفر كان ينطوي على افكار أخرى وطموح اوسع . وكان عقله يعمل بفكرة الابحار غربا الى الشرق ، ليكتسب ثراء فوق ما يحلم به الجشعون ويسجل عظمة تتجاوز ما اكتسبه أي بحار سابق .

الفصل الثالث

مولد مشروع عظيم

كان مجرد ذكر اسم جزر الهند - التي كانت تعني معظم شرقي آسيا أي - الهند ، وبورما ، والصين ، واليابان ، وملقة ، وأندونيسيا - يفعل فعل السحر في خيال الاوروبيين في القرن الخامس عشر . فقد كانت تلك البلاد غنية جداً بالذهب والفضة والاحجار الكريمة ، بالحرير والقطن الممتاز ، بالبهارات والعقاقير والعطور التي كانت تنقل بكميات قليلة على ظهور قوافل الجمال عبر آسيا الى القسطنطينية أو الى موانئ الشرق الادنى حيث يجري توزيعها في أنحاء اوروبا بواسطة السفن وعربات النقل وقوافل الدواب . فكانت تكاليف النقل بسبب تعدد الوسطاء بالاضافة الى المسافة البعيدة الطويلة والطرق المعقدة تجعل اسعار البضائع الشرقية باهظة بالنسبة الى المستهلك الاوروبي . ومع ذلك فان ازدياد الثروة والترف في مدن اوروبا جعل الطلب على هذه البضائع اكثر من المعروض منها بكثير ، وهذا هو السبب الذي حدا بملوك البرتغال ان يكرروا محاولاتهم للسفر الى الهند حول افريقيا ، ليتمكنوا من شراء المنتوجات الشرقية باسعار زهيدة . وقد جزم كولمبوس بان الطريق الافريقية هي الطريق العسيرة الى الهند ، فراح يسعى لايجاد طريق اسهل ولكنها تتطلب الاقدام والشجاعة ، وذلك بالابحار غرباً في عرض المحيط .

وكانت هناك أسباب أخرى للبحث عن اتصال جديد وسهل مع الشرق الأقصى ، وقد وجدت هذه الأسباب وقعا حسنا في نفس كولمبوس المتدين ونفوس الكثيرين من رجال الكنيسة الذين كانوا يحتلون الكثير من المناصب العليا في حكومات أوروبا . أولئك الذين كانت المسألة في نظرهم مرتبطة بخيبة الأمل الشديدة ، التي تولدت بعد إخفاق الحملات الصليبية ، واضطرار المسيحيين للنزوح عن الأراضي المقدسة ، وترك الضريح المقدس في القدس ومكان ولادة المسيح تحت سيطرة الأتراك ! وكان هناك اعتقاد بأن دولة مسيحية قوية خاضعة لحكم ملك معروف باسم الكاهن يوحنا ، تقوم في مكان ما من الشرق . وربما كان أساس هذه الأسطورة وجود مملكة الحبشة التي كان يحكمها أجداد الامبراطور هيلاسيلاسي في ذلك الحين . ولو ان اتصالا جرى وتحالفا تم بين أوروبا والكاهن يوحنا ، الذي كان يقال انه يملك ثروة كبيرة وجيشا قويا ، اذن لاستطاعت الجيوش المسيحية ان تسترجع الأراضي المقدسة وتطرد فلول الأتراك الى داخل آسيا الوسطى !

كانت معلومات الأوروبيين عن الصين في ذلك الحين سطحية ومغلوبة . فقد ظن الملوك الاسبان ، كما تبين من كتاب التعريف الذي زودوا به كولمبوس بأن سلالة كوبلا خان المنغولية ما تزال تحكم امبراطورية السماء . بينما الواقع ان سلالة « مينغ » كانت قد ازاحتها عن الحكم وحلت محلها منذ عام ١٣٦٨ . كانت معظم المعلومات الصحيحة والمغلوبة التي تعرفها أوروبا عن الصين مقتبسة عن كتاب الرحالة البندقي البحري ماركو بولو الذي قضى ثلاث سنوات في الصين قبل نهاية القرن الرابع عشر وقد وزع من كتاب « مذكرات ماركو بولو وتجاربه » عدد لا يستهان به من النسخ المخطوطة ، كما كان من اوائل الكتب التي طبعت .

لم يؤكد ماركو بولو في كتابه الاشاعات المتناقلة عن الغنى الفاحش الذي كان ينعم به اباطرة الصين فحسب ، بل كتب ايضا معلومات فياضة ومنمقة عن جزيرة ذات نظام ملكي ترتفع في غنى أوسع وتدعى « سيبانجو » أي (اليابان)

ذاكراً انها تقع على بعد ١٥٠٠ ميل من البر الصيني ، ويجب ان لا يغيب عن بالنا بان أحداً في اوروبا لم يكن عنده أي فكرة أو شك ، في ذلك الحين عن وجود القارة المعروفة باسم أميركا . فقد كانت الرحلات التي قام بها رجال الشمال في القرن الحادي عشر الى قسم من الشاطيء الشرقي والذي يعرف الآن باسم كندا أو الى شواطيء نيو انجلند التي سموها فينلاند ، مجهولة لدى أهالي اوروبا الجنوبية أو انها دفنت في زوايا النسيان . حتى ولو افترضنا بان كولبوس كان قد سمع عن هذه البلدان أثناء رحلته الى ايسلندا فانه لم يهتم بها اذ لم يكن يسعى وراء العشب البري وأشجار الصنوبر وسمك القد ، بل كان يسعى وراء الذهب والبهارات .

وكان الجميع يعتبرون المحيط بجزراً واحداً لا يتجزأ^(١) يتدفق حول اوروبا وآسيا وافريقيا ، التي تكون معاً جزيرة كبيرة كما كانت آنذاك في قلب محيط عارم . وكانت الأسئلة الكبيرة المطروحة أمام كولبوس وأمام مختلف الملوك وكبار المسؤولين الذين أنيط بهم ان يقرروا فيما اذا كان عليهم ان يؤازروه أم لا ، هي :

كم يبعد الشرق الأقصى غرباً وما عدد الأميال التي تفصل اسبانيا عن الصين أو اليابان ؟ وما هي المدة التي ستستغرقها الرحلة ؟ وأخيراً ، هل يمكن القيام بمثل هذه الرحلة أي هل هي عملية ؟ ونكرر القول هنا ، بان الجميع كانوا يقرون بان الارض كروية . وبأن اليونان كانوا قد توصلوا الى اتفاق حول تقسيم الدائرة أو الكرة الى ٣٦٠ درجة . ولكن كم يبلغ طول الدرجة ؟ ان تقديرك لحجم الأرض يتوقف على الاجابة على هذا السؤال .

لقد ذكر بطليموس الاسكندراني في كتابه الذي كان يعتبر انجيل علم الجغرافيا في ايام كولبوس بان طول الدرجة يبلغ حوالي خمسين ميلاً بحرياً - (القياس الحقيقي ستون) . بينما قال الفرغاني ، العالم الجغرافي المسلم في القرن التاسع بان الدرجة تساوي حوالي ستة وستين ميلاً بحرياً ، ولكن كولبوس

(١) اي قبل شق قناة السويس ١٨٨٦ م .

أخطأ في قراءة الرقم. وقرر بأن القياس الذي أورده الفرغاني كان خمسة وأربعين ميلاً وبأنه أي الفرغاني كان على صواب وبطليموس على خطأ . وهكذا قدر كولبوس حجم الأرض بخمسة وعشرين بالمئة أقل من حجمها الحقيقي .

وبالإضافة إلى الخطأ الذي ارتكبه كولبوس بتقدير حجم الكرة الأرضية ، ارتكب خطأ افدح بتقدير مدى امتداد آسيا شرقاً . ذلك لأن طول أوروبا وآسيا معاً يبلغ تقريباً حوالي ١٣٠ درجة من رأس سانت فينسنت إلى بكينغ أو ١٥٠ درجة إلى طوكيو . وقد خمن بطليموس هذا الامتداد بمقدار ١٨٠ درجة أي نصف محيط الكرة الأرضية . أما مارينوس الصوري العالم السابق لهؤلاء والذي كان كولبوس يفضل تعلقاً ، فقد وسع امتداد هذه الأراضي إلى ٢٢٥ درجة . وقدر ماركوبولو الذي قضى حوالي سنتين أو ثلاث سنوات في عبور آسيا بطريق البر ، هذه المسافة بإضافة ٢٨ درجة إلى الصين و ٣٠ درجة إلى اليابان . فإذا أضيفت هذه الزيادة إلى الـ ٢٢٥ درجة التي قدرها مارينوس يصبح مركز طوكيو واقعاً على خط الزوال الشمسي الذي يمر بكوبا الغربية وشاتانوغا وجراند رابيدز وانتاريو الغربية ! ومع ذلك فإن كولبوس عندما اقترح الانطلاق من جزر الكناري الغربية التي تقع على خط مواز يبعد ٩ درجات إلى الغرب من رأس سانت فينسنت ، قدر بأن عليه أن يقطع ٦٨ درجة غرباً قبل أن يصل إلى الشاطئ الياباني . وعلى ضوء حساباته المغلوطة هذه وتقليله من طول الدرجة تصور كولبوس بأن رحلة المحيط من جزر الكناري إلى اليابان لن تتجاوز ٢٤٠٠ ميل بحري مع العلم بأن هذه المسافة تبلغ بطريق الجو ١٠٦٠٠ ميل !

وعلى كل حال ، لم يصل كولبوس إلى هذه النتيجة بنفسه ، بل آزره طبيب عالم من فلورنسا يدعى باولو توسكانلي كان مولعاً بعلم الفلك والرياضيات . وقد صدق توسكانلي التقدير الذي قدمه ماركوبولو عن طول آسيا ، فكتب إلى صديق له في البرتغال عام ١٤٧٤ يحثه على اقناع الملك بتجهيز حملة تبجر غرباً إلى اليابان ، أعظم مورد خصب للذهب ، وإلى مقاطعة مانجي في الصين ، مصوراً

له ان المسافة تبلغ ٣ الاف ميل من لشبونه الى (هانساور) مرفقاً خارطة مع كتابه ، لتوضيح نظريته . وتأثر كولمبوس أشد التأثر عندما سمع عن ذلك . فكتب الى العالم الفلورنسي يطلب منه المزيد من الايضاحات الاضافية ، فأرسل له هذا رسالة مشجعة وخارطة اخرى ، وهي التي حملها كولمبوس معه في رحلته الاستكشافية الكبرى . وقد حصلت هذه المراسلات بعد عودة كولمبوس من رحلته الى الشاطئ الذهبي بقليل في عام ١٤٨١ او في اوائل عام ١٤٨٢ . وكان كتاب توسكانلي والخارطة المرفقة له بالنسبة لكولمبوس بمثابة المستندات الأساسية التي اعتمد عليها .

وبالطبع كان لدى كولمبوس مستندات اخرى ، بعضها علمي والبعض الآخر عملي ، ثم الكثير من الآيات التوراتية بالاضافة الى المزمور التاسع عشر : « الآن ترتعد الجزائر يوم سقوطك ، وتضطرب الجزائر التي في البحر لزوالك » . (حزقيال ٢٦ : ١٨) « ويملك من البحر الى البحر ، ومن النهر الى أقاصي الأرض . » (زكريا ٩ : ١٠ مكررة في المزمور ٧٢) و « نظرت الجزائر فخافت . أطراف الارض ارتعدت . اقتربت وجاءت . » (أشعيا ٤١ : ٥) . ويقال ان ارسطوطاليس كتب مرة يقول بأن بوسع الانسان ان يعبر المحيط من اسبانيا الى جزر الهند في غضون أيام قليلة ، كما كتب سترابون ، العالم الجغرافي اليوناني الذي عاش في ايام المسيح ان البحارة الذين عاصروه قاموا فعلاً بمحاولة لعبور المحيط ، « لكنهم عادوا لافتقارهم الى الثبات والعزم ولدورة المؤن » ويؤكد كتاب « صورة العالم » للكاتب بيري دايلي والذي ظل كتاب كولمبوس المفضل لعدة سنوات ، ان المحيط « ليس عريضاً جداً بين مراكش (المغرب) وشاطئ آسيا الشرقي وان من الممكن عبور هذه المسافة في بضعة ايام اذا اعتدلت الرياح » ، وما تزال نسخة كولمبوس الخاصة من هذا الكتاب محفوظة في أشبيلية وهي تعج بالملاحظات المكتوبة بخط يده .

وهكذا بدأ كولمبوس مشروعه وهو مقتنع تمام الاقتناع بصحة نظريته « فأزاح من رأسه جميع الشكوك والالهام ووضع جانبا جميع المصاعب وطفق »

يجمع كل عبارة او استشهاد يساعده على دعم نظريته . ومثالا على ذلك ، كان يستشهد بعبارة « لقد جففت ستة أقسام » الواردة في الكتاب الثاني الابوقريفي لأسدراس ، ليثبت بان ستة أسباع الكرة الارضية يابسة بينما يغطي المحيط سبع سطح الارض فقط ، وعليه فلا يمكن ان يكون عريضا !

أما من الناحية العملية فقد لاحظ كولبوس في تنقلاته واسفاره جذوع اشجار غريبة وبعض حبوب العلف التي يرجح انها كانت تزرع في اميركا ، قدلقى بها اليم على شاطيء جزر الازور ، وكذلك شاهد في غالوي جثثا مفلطحة الوجوه ، التي لو كانت جثث صينيين لما طفت ساجحة على وجه المياه عدة آلاف من الاميال دون ان تتعفن وتتآكل ! هذا بالاضافة الى تقارير كثيرة مشابهة وصلت عن الجزر الواقعة غربي جزر الازور والكناري .

بيد أن كولبوس لم يفترض بأن عليه عبور الأطلسي بقفزة واحدة ، ولم يكن هناك أي سبب للاعتقاد بأن جزيرتي فلورزا وكورفو كانتا آخر الجزر الموصلة الى جزر الهند . كما كان الاعتقاد الشائع بين الناس ان الرحلات الخرافية التي نسبت الى القديس برندان الراهب الايرلندي البحار في القرن السادس ، كانت رحلات حقيقية ، وكذلك كان للبرتغاليين خرافتهم الخاصة عن جزيرة الأنتيل ، التي قيل ان بعض اللاجئين من الحروب المغربية التي نشبت في القرن الثامن كانوا قد استعمروها . وادعى بحار قديم في لشبونه بأنه كان هناك في تلك الجزيرة وطرد منها . وحتى توسكانلي أيضا ذكر بأن « الانتيل » جزيرة ملائمة للزيارة . وكما سنرى ، قام كولبوس فعلا بالبحث عنها أثناء رحلته الأولى .

شرع كولبوس في عام ١٤٨٤ بمحاولته الاولى لاثارة اهتمام الأمير جون الثاني ملك البرتغال وابن أخت هنري الملاح الذي كان شديد الاهتمام بالاكتشافات الجديدة .

وحسب ما ذكره المؤرخون المعاصرون ورواة الأخبار البرتغاليون ، كان غرض مشروع كولبوس آنذاك هو ذاته الذي أعلنه فيما بعد - محاولة الوصول الى اليابان بالبحار غربا واكتشاف جزر جديدة اخرى في الطريق ،

ويقول هؤلاء المؤرخين أن « الملك عندما رأى في كولبوس محدثاً ثثاراً ومدعياً محباً للمباهاة ... وممتلئاً بالتخيلات والاحلام عن جزيرة سيبانجو ... لم يثق به الا قليلا .. » ومع ذلك فقد عهد الملك بهذا المشروع الى لجنة مشتركة مؤلفة من احد رجال الكنيسة البارزين وطبيين يهوديين مشهورين بعلوم الملاحة الفلكية ، ولكن اللجنة رفضت المشروع رفضاً قاطعاً . أما اسباب الرفض فلم يذكر عنها شيء في السجلات ولكن بوسعنا التخمين بأنهم رفضوا الاشتراك بالمشروع لأن فكرتهم عن المسافة المنوي قطعها كانت اقرب الى الواقع مما كان يخمن كولبوس .

والمرجح ان كولبوس طلب كثيراً من ملوك البرتغال الذين تعودوا ان تقدم اليهم الاكتشافات البحرية مجانا وبدون مقابل . وهناك عدة اثباتات خطية تؤكد ان ملوك البرتغال منحوا جزراً كجزيرة الأزور مثلاً او احدى الجزر الواقعة غربها ، لمن تمكن من اكتشافها من قباطنتهم . وفي سنة ١٤٨٥ ، ذات السنة التي رفضت فيها اللجنة الملكية مشروع كولبوس أصدر الملك إذناً للملاحين بورتغاليين « دولما » و « ستيريتو » بالسفر والسعي لاكتشاف جزر الأنتيل وذلك على حسابها الخاص ، ووعد بتعيينهما هناك حاكمين شرعيين يورثان حكمها لأبنائهما بالاضافة الى ما كان سيضيفه عليهما من ألقاب وتكريم . فوافقا على الابحار غرباً لمدة اربعين يوماً على ان يعودا بعد ذلك ، اذا لم يجدا شيئاً .

اما أسباب اخفاق هذه المحاولة وجميع المحاولات البرتغالية التي سبقت كولبوس ، والتي كانت تهدف لاكتشاف جزر تقع غربي الأزور فواضحة وهي : اولاً لم تكن هناك انتيليا أو اية جزيرة اخرى اقرب من نيوفاوندلاند ، ثانياً : كانت على من يبحر غربي جزر الأزور ، كما فعل معظم هؤلاء الرجال البرتغاليين ، ان يواجه الرياح الغربية عبر بحار عالية . اما كولبوس فقد لاحظ في رحلاته الافريقية الرياح الموسمية الشرقية الوثيدة التي كانت تهب بين خط الاستواء وخط الطول الذي تقع عليه جزر الكناري ، ولذلك فانه اختار جزر الكناري كنقطة انطلاق لرحلته وهذا هو السبب البسيط الذي مكنه من .

العثور على شيء ما حتى وإن كان ذلك الشيء غير ما كان يريد .
وكان على كولبوس قبل ان يجرب طريقته الخاصة هذه ان يحصل على المال والمؤازرة . وفي عام ١٤٨٥ ، العام الذي خذلته فيه اللجنة البرتغالية ، توفيت زوجته الدونا فيلبا في لشبونة وانقطعت بوفاتها أوثق صلة له بالبرتغال . ولم يعد هناك من يستطيع ان يقدم له الضمانة اذا ما رفض الملك ذلك . وهكذا قرر كولبوس ان يجرب حظه في اسبانيا بالرغم من انه لا يعرف أحداً هناك سوى شقيقة زوجته الراحلة والتي كانت متزوجة من شخص إسباني في مدينة هويلفا . وهكذا رحل كولبوس الى مقاطعة نبلا الاسبانية المجاورة للبرتغال مصطحباً معه ابنه ديجو البالغ من العمر خمس سنوات . ولا بد ان كولبوس دخل « ريو سالتيز » بقلب كبير نظراً للتباين الظاهر بين البلدين ، إذ بينا كانت لشبونة تضج بالحركة ، وجد الخمول يسيطر على مرفأى هويلفا وبالوس . وبينما كانت سفينته تدور للدخول في ريوتينتو لمح ديراً للرهبان الفرنسيكان يقع على ربوة عالية في قرية لا رابيدا . وكان ذلك سبباً لحل مشكلة ابنه ديجو ، إذ كان معروفاً عن الفرنسيكان بانهم يقبلون تلاميذ داخلين في ديرهم . وهكذا وبعد ان نزل الى البر في بالوس ، مشى مسافة اربعة اميال الى دير الرهبان مصطحباً ابنه ، ثم قرع باب الدير وطلب من الحاجب ماء وقليلاً من الخبز لابنه . ولحسن حظه ، حضر الى الباب انطونيو دي مارشينا ، الراهب الفرنسيكاني المشهود له بالذكاء والذي كان قد درس علم الفلك ، فأخذ يتحدث مع كولبوس ثم دعا الوالد وابنه الى البقاء في الدير بعد ان قبل ديجو في عداد التلاميذ ثم عرّف كولبوس بكونت مادينا سالي ، أحد كبار الأعيان في اسبانيا ، ومن كبار اصحاب السفن في قادس .

وكان مادينا سالي على وشك ان يضمن مشروع كولبوس الذي كان يطالبه « بثلاث او اربع سفن كاملة التجهيز لا اكثر » عندما خطر بباله ان يطلب موافقة الملكة ولما فعل ذلك رفضت الملكة بحجة ان مشروعاً عظيماً كالذي ينادي به كولبوس يجب ان يشرف عليه التاج ويرعاه . ولكن تحويل الأمر من الكونت الى الملكة أخر رحلة كولبوس حوالي ست سنوات .

الفصل الرابع

المساومة مع الامراء

مرت حوالي تسعة شهور قبل ان يتمكن كولبوس من المثول أمام الملكة ، ويعود ذلك الى تنقل حاشية البلاط من بلدة الى أخرى في وسط اسبانيا وشماليها والى عدم حوزته على الاموال اللازمة للحاق بهم . الا انه سافر من مدينة اشبيلية حيث أجرى مشاورات مع الكونت مادينا سيلي الى مدينة قرطبة المجاورة بانتظار وصول موكب الملكة .

وفي قرطبة ، كما كان الحال في معظم مدن اسبانيا ، وجد كولبوس جالية من أهالي جنوى كان أحد افرادها اجزاخنجي ، وكانت الاجزاخانات في تلك الايام ملتقى الاطباء وهواة العلم . وكان من الطبيعي ان يزور كولبوس دكان مواطنه ، وهناك تعرف على « ديجو دي هارانا » الذي كان يتردد كثيراً على تلك الندوة غير الرسمية ، والذي دعاه الى بيته حيث التقى بابنة عم لعائلة هارانا الريفية ، بياتريز انريكويز ، الشابة الجميلة التي كانت في الواحدة والعشرين من عمرها والتي أصبحت منذ ذلك الحين عشيقته ، وفي عام ١٤٨٨ وضعت له ابنة الثاني فرديناند . وقد ازعجت حقيقة عدم زواجه من بياتريز الكثيرين من كتاب سيرته المتدينين ، كما اثقلت ضميره الأمر الذي اتضح من بعض النصوص

الواردة عنها في وصيته ولكن يبدو ان لا أحد اتخذ من هذه الهفوة الاخلاقية سلاحاً ضده في ذلك الحين .

كانت زوجته ارسقراطية ذات منزلة رفيعة فساعدته على توطيد مركزه في البرتغال وبالنظر لتقاليد وعادات تلك الايام فان زواجاً ثانياً من فتاة ريفية كان يعتبر غير لائق بشخص مثل كولبوس يرغب بالانتساب الى طبقة الاشراف ويطمع بان يصبح اميرالا . ومع ذلك كانت عائلة هارانا الريفية مسرورة بهذا الارتباط ، بدليل ان بعض أفرادها التحقوا فيما بعد ، بالخدمة تحت قيادة كولبوس كما دامت الصداقة بين العائلتين جيلين او ثلاثة .

وفي يوم من أيام أيار عام ١٤٨٦ ، أي بعد عام تقريباً من وصول كولبوس الى اسبانيا استقبلته الملكة في قصر الكازار الذي لا يزال قائماً في مدينة قرطبة . وكانت الملكة ايزابيلا الكاثوليكية من أقدر ملوك اوروبا في عصر تميز بالملوك الأقوياء ، وكانت تتحلى بقدرة بدهية في اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب وكذلك القيام بالعمل المناسب في الوقت المناسب كما كانت بعمر كولبوس تقريباً ، وشبيهة له في المزاج والالوان لا سيما بعينها الزرقاوين وشعرها الأسمر النحاسي . وكان زواجهما من فرديناند الاراغوني قد وحد جميع أجزاء اسبانيا ، عدا البرتغال التي كانت متحالفة معها ، وبقيت دولة الخلافة المغربية في قرطبة والتي كانت قد قررت اخضاعها . فلا غرابة اذن ان تبدو بعض بشائر التفاهم الفكري بين الملكة ايزابيلا وكولبوس في اجتماعها الاول اذ بالرغم من انها رفضت مشروعه اكثر من مرة الا انه اكتشف ان باستطاعته الاعتماد عليها في النهاية . وأثناء ذلك عينت لجنة خاصة باشراف معرفها الخاص هرناندو دي تالافيرا لدراسة المشروع والتوصية فيما اذا كان عليها ان تقبل به او ترفضه ، او ان تسمح للكونت مدينا سيلي بأخذه على عاتقه وتمويله .

وعندئذ ، بدأت أصعب فترة في حياة كولبوس كلها ، استمرت حوالي ست سنوات متواصلة فقد كان عليه الثبات في معركة مستمرة ضد التحامل.

واللامبالاة الصريحة المهيمنة وكان يتحتم على رجل عزيز النفس رقيق الشعور مثل كولبوس ، آمن ان مشروعه عملي ، وانه سيفتح آفاقاً جديدة وفرصاً لا تعوض في عالم الملاحة ، ان يتحمل تهريج المهرجين وانتقادات الجهة المنافقين من أفراد الحاشية وان يعامل بأسوأ ما يعامل به الشحاذون .. وان يعاني احياناً ، الفقر المدقع والعوز المذل .

والأسوأ من ذلك كله انه تعلم من التجارب العملية معنى العبارة الاسبانية « كوزاس دي اسبانا » أي « هذا شيء اسباني » كما خبر الماطلة المزعجة التي يتصف بها الاسبان الذين اشتهروا بعجزهم عن اتخاذ أي قرار او تنفيذ أي طلب مهما كان بسيطاً او اتخاذ قرار حاسم بدون رشوة او خدمة مقابلة . وفي السنين التالية ، نوّه كولبوس بمرارة وألم عن هذه التجارب وراح يقابل بأسلوب تنقصه اللباقة ، بين الثروة والقوة التي منحها لاسبانيا وبين جهوده الطويلة المحزنة للوصول الى من يستمع اليه بتفهم وعطف !

وقد فشلت لجنة تالافيرا في اجتماعها الذي عقدته في سلمنكه عام ١٤٨٦ بالوصول الى أي قرار . الا ان ديجو دي ديزا كان العضو الوحيد الذي صوت مع المشروع العظيم ، وكان لتنفذه الشخصي ، او لتنفوذ تالافيرا ، الفضل الاول في منح كولبوس اجراً عن اتعابه بلغ ٢١ ألف مارافديس - اي ٨٣ دولاراً ذهبياً - في السنة . وكان هذا المبلغ يعتبر راتباً ممتازاً لبحار قدير ، مبلغاً يكفي لتلبية رغبات كولبوس البسيطة فيما لو دفع بصورة مستمرة .

ومر الشهر تلو الشهر ، وانقضى عيد ميلاد آخر دون أن يصدر شيء عن لجنة تالافيرا . وفي اوائل عام ١٤٨٨ كتب كولبوس الى جون الثاني ملك البرتغال يطلب منه افساح المجال له للمرافعة في قضيته مجدداً ومنحه الامان بعدم اعتقاله بسبب سندات ديونه غير المدفوعة في لشبونه . فأجابه الملك بسرعة مرحباً به واستحثه على الحضور فوراً ووعدته بالحماية من أية ملاحقة قضائية أو اعتقال. وربما كان هناك سببان رئيسيان لهذا التغير المداجي المفاجيء في الموقف، اذ ان دولو ، وأستريتو البرتغاليين كانا قد اخفقا باكتشاف جزيرة الانتيل الخرافية

كما ان بارثولميو دياس كان قد ابجر منذ سبعة شهور في المحاولة البرتغالية العشرين للوصول الى جزر الهند بالدوران حول افريقيا ثم لم يعد يسمع عنه شيء !
تأخر كولمبوس بالسفر الى لشبونه بسبب احتياجه للمال ، وقبل ان يتمكن هو وأخوه بارثولميو (الذي بقي هناك) من مقابلة جون الثاني ملك البرتغال ، ذاع نبأ عودة دياس من رحلته .

وقد حضر الاخوان كولمبوس في كانون الاول عام ١٤٨٨ حفلة ابجار السفن الثلاث بقيادة دياس باتجاه تاغوس . بعد أن طاف قائدها العظيم حول رأس افريقيا الجنوبي الذي سماه الملك برأس الرجاء الصالح ، وفيما كان يقترب بسفنه من الشاطئ الشرقي ترد بجارته وأرغموه على العودة الى لشبونه . وكان ذلك كافياً لوضع حد لاهتمام الملك بمشروع كولمبوس ، فقد اكتشف دياس طريقاً بحرياً الى جزر الهند مما جعل جلالاته يسأل عن فائدة المغامرة بتمويل مشروع الابجار غرباً للوصول الى الشرق ذلك المشروع الذي يكتنفه الشك والغموض بالاضافة الى ظهور منافس لكولمبوس في البرتغال يدعى مارتن بهايم وهو شاب بحار من نورمبرغ ، قام مثل كولمبوس ، برحلات تحت ظل العلم البرتغالي وتزوج ابنة قبطان برتغالي ، وكانت فكرة بهايم عن حجم الارض التي كان قد صنع بها نموذجاً في شكل كرة عام ١٤٩٢ - تكاد تنطبق على فكرة كولمبوس .

وفي عام ١٤٩٣ ، وكان الوقت متأخراً جداً ، اقترح بهايم على الملك ما اقترحه كولمبوس سابقاً او اعتقد بأنه فعل .

وقبل حلول رأس السنة الجديدة لعام ١٤٨٩ قرر الاخوان كولمبوس ... خطة للعمل فعاد كولمبوس الى اسبانيا حيث كان لا يزال لديه بعض الامل في لجنة تالافيرا البطيئة الحركة ، بينما طوى اخوه بارثولميو مهنة وصنع الخرائط وسافر في رحلة طويلة على امل ان يبيع مشروع الابجار غرباً الى الشرق لأحد الامراء الآخرين .

ولما لم يتمكن من التأثير على هنري السابع ملك إنجلترا ، تابع طريقه الى فرنسا حيث التقى بآن دي بيجو ، شقيقة الملك شارل الثامن التي اعجبت به

واستخدمته لكي يصنع لها الخرائط في مدينة فونتنبلي وبواسطتها اصبحت بارثوليميو صديقاً للملك فرنسا ، ولكنه لم يحظ على أي أمل بمؤازرة الملك له .

كان النجاح يبدو في نظر كولبوس على بعد خطوات منه ، ولكن حتى عام ١٤٨٩ كان عليه ان ينتظر ثلاث سنوات اخرى قبل الوصول الى نتيجة حاسمة . ولا نعرف سوى القليل عن الكيفية التي أمضى بها وقته طوال هذه المدة . ولكن احد معاصريه أفاد بأنه باشر العمل في فرع « الاخوان كولبوس - صانعا خرائط وبائعا كتب » وذلك في اشبيلية . ولما علمت الملكة برجوعه الى قشتالة زودته بكتاب مفتوح تأمر فيه جميع موظفي الحكومة بتسهيل اقامته وتنقلاته وهو في طريقه الى البلاط الذي اقيم آنذاك في معسكر محصن في ضواحي مدينة بزة المغربية التي كانت تعاني حصار الجيش الاسباني . وهناك ما يشير الى ان كولبوس تطوع في الجيش بانتظار جواب على رسالته وقد اتيح له الوقت الكافي للاشتراك باطلاق النار على الاعداء .

واخيراً وفي نهاية عام ١٤٩٠ اصدرت لجنة تالافيرا تقريرها ، وكان نخبياً للآمال . إذ نصحت الخبراء ملكتهم بأن مشروع الأبحار غرباً الى الشرق لا « يرتكز على اسس متينة » وان تحقيقه يبدو « غير مؤكد ومستحيلا في نظر أي رجل مثقف » ذلك لان الرحلة المقترحة الى آسيا تستغرق ثلاث سنوات ، هذا اذا استطاعت السفن العودة . الامر الذي يشكون فيه . كما ان الاقيانوس اوسع حتماً مما خمنه كولبوس وأن معظمه لا يصلح للملاحة . واخيراً فان من غير المعقول ان يكون الله قد اخفى عن عباده أية اراض ثينة غير مسكونة طوال القرون السالفة . ولم يكن باستطاعة هذا الرفض ان يكون أكثر حزمًا ووضوحاً . وعلينا ان نسلم بان جميع أقوال اللجنة كانت صحيحة ما عدا الادعاء الاخير ، وعلى افتراض أن اميركا لم تكن موجودة ، فان أية سفينة من سفن ذلك الوقت ما كانت لتستطيع ، مهما بلغت قوة العزم لدى ربانها وبجارتها او تقتيرها في استهلاك المؤن ، القيام برحلة العشرة آلاف ميل من أسبانيا الى اليابان !

ومن الواضح ان مسعى كولبوس قد فشل كلياً ! ومع ان كولبوس كان يعرف انه يستطيع تنفيذ المشروع ، إلا ان الخبراء كانوا على ثقة بأنه لا يستطيع ذلك . وأصبح المشروع بحاجة الى شيء خارق بقوة الادراك الانثوية لتحطيم العقبة المعترضة .

وكان أقصى ما تستطيع الملكة فعله في الوقت الحاضر هو ان تبقى جذوة الأمل في كولبوس فأخبرته بأنه يستطيع التقدم بطلب جديد حالما تنتهي الحرب مع المغاربة . فانتظر سنة أخرى ثم قرر مغادرة اسبانيا والالتحاق بأخيه في فرنسا . ولما عرج على دير الفرنسيسكان في قرية لارابيدا القريبة من مرفأ بالوس ليأخذ ابنه ديجو معه وقد أصبح الآن في العاشرة ، اقنعه الأب جون بريز ، رئيس الدير ان يمنح الملكة فرصة جديدة ، وأرسل اليها كتاباً بهذا الصدد . فأجابت تدعو كولبوس الى البلاط وأرسلت له هدية سخية لكي يشتري لنفسه بغلاً وثياباً لائقة !

كان كولبوس يجد دائماً بين رجال الكهنوت اصدقاء ومؤيدين أكثر مما كان يجده بين العلمانيين . فقد بدا أنهم كانوا يفهمونه أفضل ، خصوصاً ان افكاره وتلفاته كانت تنبع من احساسه الديني . وكان هو أكثر من غيره من العلمانيين حرصاً على تلاوة الصلوات اليومية ابتداء من الفاتحة فالثلوث والستاوية وصلاة ما قبل النوم . وقلماً اضاع فرصة لحضور القداس . ورغم انه كان يعيش في عصر كثير التلون والاحاد المفلسف فلم يسمع عنه ابداً انه أقسم بغير « سانت فرناندو » أو ان شتم اذا غضب باكثر من قوله « ليأخذك الله » . وكان يترك أثراً مهيباً على الناس ، بطلعته البهية وعزة نفسه الفطرية ، مها كانت مرتبتهم ، ومع انه لم يتكلم اللغة الاسبانية بطلاقة فان احداً لم يلمه على ذلك نظراً لانه جنوي المولد وقضى مدة طويلة في البرتغال .

وفي يوم قريب من يوم عيد الميلاد عام ١٤٩١ ظهر كولبوس مرة ثانية في البلاط الذي كان يجتمع في المعسكر المحصن في « سانتا في » اثناء حصار غرناطة . وهناك عينت لجنة جديدة وراجع المجلس الملكي مقرراتها . وبالرغم من ان

التفاصيل الدقيقة عن المقررات ليست معروفة فقد بدا ان اعضاء اللجنة وقد
لمسوا رغبة الملكة بمساعدة كولبوس ، أوصوا بالسماح له في أن يجرب هذا
المشروع ، والمحوا الى ان المجلس كان قد رفض المشروع بالنظر الى الثمن الباهظ
الذي طلبه كولبوس - فقد كان هذا الرجل الخارق قد رفع ، بالرغم من فقره
والمحاولة وتثبيط المهمة التي تعرض لها ، من قيمة طلباته وزاد عليها - ففي عام
١٤٨٥ رضي بالاجار غرباً لحساب الكونت مادينا سليلي مقابل تأمين النفقات
والمصاريف فقط وبدون ان يشترط اية ارباح او أي شرف خاص له . اما الآن
فلم يكتف بطلب رفعه الى منزلة النبلاء ومنحه لقب أميرال بل اشترط ايضاً
أن يعين حاكماً ونائباً للملك في أية اراضي جديدة يكتشفها ، وان يصبح لافراد
عائلته حق وراثة كلا اللقبين ، وان يعطى هو وورثته حق حسم عشرة بالمئة على
التجارة هناك ! لقد قاسى جداً من كثرة الاهانات طيلة اقامته الطويلة في اسبانيا
لذلك أقسم بالقديس فرناندو « انه لن يأتي بالمجد والسؤدد لاسبانيا بلا مقابل » !

فاذا وافق العاهلان على ان يمنحاه ، لدى نجاحه ، الرتب والالقاب والاملاك
التي يمكن هو وذريته من ان يبقوا رؤوسهم مرفوعة بين أعيان الاسبان ، فحسناً ،
والا فانه لن يقبل باية مساومات أخرى ! تلك هي عروضي يا صاحبي الجلالة ،
فتقبلها او تخليها عنها .

وفعلاً ، رفض العاهلان تلك الشروط في كانون الثاني عام ١٤٩٢ حالماً
سقطت غرناطة ، وأبلغاه ذلك في اجتماع عقد في البلاط ، ان الملك على الأقل
قصد أن يكون حازماً في رفضه . فقام كولبوس لتوّه وشد السرج على بغله
وملاً عيون الخرج بخراططه ومستنداته وانطلق الى أشبيلية برفقة صديقه المخلص
جون بريز معترماً ركوب السفينة من هناك الى فرنسا للاشتراك مع أخيه
بارثوليو برفع التماس جديد الى الملك شارل الثامن .

وحدث هنا ما يحدث غالباً في المخازن الشرقية من مساومات بين البائع
والشاري والتي تنتهي غالباً بأن يلحق البائع الزبون معلناً قبول عرضه الاخير .
ففي ذات اليوم الذي رحل فيه كولبوس عن « سانتافي » قام لويس دي سانتانجيل

حارس خزانة الملك فرديناند الخاص ، بزيارة الملكة وألح عليها ان تقبل شروط كولبوس ، قائلاً بأن الرحلة لن تكلف ما تكلفه نفقات الترفيه عن زميل ملكي آخر في اسبوع واحد ، وتعهد بأن يدبر المال بنفسه ، أما بالنسبة الى الرتب والالقب فان كولبوس لم يطلب سوى وعداً بنيلها بعد نجاحه ، وان مثل هذه الامور تعتبر ، في حالة نجاحه ثمناً ضئيلاً بالنسبة الى ما سيكتشفه من جزر جديدة وطريق بحري غربي الى جزر الهند . فما كان من ايزابيلا التي ربما كانت ترى ذلك الرأي بعينه ، الا ان تمسكت بفرصتها الحقيقية الاخيرة . هذه وتحمست حتى انها اقترحت رهن جواهر التاج كضمانة لتغطية النفقات ، غير ان « سانتنجيل » أكد لها بأن ذلك لن يكون ضرورياً . وهكذا أرسلت رسولا خاصاً لحق بكولبوس في قرية تبعد اربعة اميال عن سانتافي وأعادته معه .

ومع ان كل شيء قد تقرر الآن من حيث المبدأ ، الا ان الكثير من المساومات الاسبانية ظلت تنتظر الحل ، وهكذا لم يجر التوقيع على العقود وختمها بين كولبوس من جهة والعاھلین الاسبانیين - أو اصحاب الامتيازات في الشرق - كما كانا يلقبان عموماً ، الا في نيسان عام ١٤٩٢ . وقد ضمن العاهلان في تلك العقود اعتبار كولبوس موفداً لاكتشاف وللاستيلاء على جزر وأراضي جديدة في الاقيانوس إِمقابل وعدهما له بتعيينه اميرالا على الاقيانوس . ونائباً للملك وحاكماً في الاراضي التي يستطيع اكتشافها ، وان من حقه الحصول على مقدار عشرة بالمئة معفاة من الرسوم من جميع الذهب والجواهر ، والبهارات والبضائع الاخرى المنتجة او التي يتاجر بها مع تلك الأراضي ، كما وان له الحق بتوظيف اموال تعادل ثمن قيمة حمولة كل سفينة مسافرة الى هناك وان هذه المناصب والمكاسب سوف يتمتع بها هو وورثته من بعده الى الابد . كذلك زوده العاهلان بجواز سفر مكتوباً باللغة اللاتينية يفيد بانها مرسلاه باتجاه مناطق الهند على رأس ثلاث سفن كبيرة . كما حملاه ثلاث رسائل للتعريف عن نفسه : واحدة لأمبراطور الصين او « الخان العظيم » وترك فراغ في الرسالتين الاخيرتين لكي يتمكن كولبوس من كتابة اللقب والأسم الصحيح لأي أمير آخر يريده !

ومما لا شك فيه ، ان الأمر سيبدو في نظر القارىء المعاصر ساذجاً للغاية ، في ان يتوقع أي انسان نزول كولمبوس الى شاطئ الصين أو اليابان وان يعلن استيلاءه على مناطق منها بمساعدة مئة بحار فقط .. غير ان اوروبا كانت تجهل الكثير عن الشرق الاقصى في ذلك الحين ، ولم يكن البرتغاليون يواجهون اية صعوبة في تعاملهم مع ملوك الزوج في افريقيا ، فلماذا لا يفعل كولمبوس الشيء نفسه في آسيا؟! وفوق ذلك فان لفظة « المستعمرة » التي كانت تجول في خيلة كولمبوس ، لم تكن بالمعنى الذي نفهمه اليوم بل كان المقصود منها ايجاد « محطة تجارية » . وقد ألف الاوروبيون استعمال هذه الكلمة – اي المحطة التجارية – منذ زمن طويل . وقد كانت تعني امتداد سلطة دولة ما لتشمل دولة اخرى بقصد الاغراض التجارية ، ومن المحتمل ان تكون هذه المحطة محصنة ، اذا كانت واقعة في منطقة متوحشة نسبياً ، كالمحطة التجارية الجنوبية في القرام او محطة – سانت جورج دامينا البرتغالية الواقعة على الشاطئ الذهبي ، كما يمكن ان تكون مستعمرة سلمية تتمتع بالحصانة الدبلوماسية خارج حدود الوطن كاتحاد مصانع الفولاذ في لندن او مركز رابطة التجار المغامرين في امستردام . وقد اوضحت كرة مارتن بهائم التي صممها في عام ١٤٩٢ بأن مارتن كان يشارك كولمبوس افكاره الجغرافية عن وجود أرخبيل يقع جنوبي اليابان متصل بأرخبيل ريوكيوس^(١) فلولا وجود الحاجز الاميركي ولوان المحيط كان ضيقاً كما تصوره كولمبوس ، لنجح بدون شك في اقامة مركز تجاري في جزيرة كجزيرة او كيناوا مثلاً ، بحيث تصبح مستودعاً هاماً للبضائع بين الصين والغرب يصلح للتجارة والارساليات التبشيرية .

ولم يكن ذلك الامل مبالغ فيه كما اثبتته الحقائق مما جرى في الفلبين بعد ثمانين عاماً حيث احتل ليغاسي منطقة مانيلا لحساب اسبانيا واعاد بناء تلك المدينة القديمة مستعيناً بقوة أقل من تلك التي كانت لدى كولمبوس . وتم الأمر دون مقاومة أي امير أو صاحب سلطة . وهكذا اصبحت مانيلا مركزاً

(١) وهو الارخبيل الواقع بين كوشيو وتايوان في المحيط الباسفيكي .

هاماً للتجارة تقايض فيها البضائع الاسبانية بالمنتجات الصينية .

وربما يبدو من المستهجن أيضاً ان يقبل العاهلان الاسبانيان اعطاء كولمبوس عشرة بالمئة من الارباح المنتظرة . ولكن كان من الطبيعي جداً في اوروبا ان يكافئ الامراء خدامهم ورعاياهم بتلك الطريقة ، وما يزال يعمل بهذه الطريقة في بعض البلدان الشرقية . فعبد الله الدرويش رئيس الوزارة في سلطنة قطر الواقعة على الخليج العربي (الفارسي) ، ظل يحصل حتى عام ١٩٥٤ على عشرة بالمئة من مجموع الصادرات والواردات بما في ذلك واردات النفط .

وهناك أسباب هامة دعت لتطبيق تلك الاتفاقية المالية في القرن الخامس عشر اذ كان مدخول الامراء منخفضاً بشكل ملحوظ كما لم تكن العادة والضرورة قد نجحتا بعد بتخفيف حدة مقاومة الشعب لفرض ضرائب جديدة عليه .

الفصل الخامس

الاستعداد للرحلة الاولى

بالرغم من ان كل شيء عن المشروع قد تقرر مبدئياً فان نجاحه كان يتوقف على توفر بعض التفاصيل العملية العديدة . لقد تقرر أولاً ان يجهز الاسطول ويحند الرجال في بالوس ، المرفأ الصغير في نبلا ، أول مدينة وطأها كولمبوس في اسبانيا ، ولعدة أسباب أخرى منها ان كولمبوس أقام روابط صداقة بينه وبين أفراد عائلة بنزون الذين اشتهروا بقيادة السفن وامتلاكها . وهكذا توفرت هناك السفن والملاحون .

وكانت بالوس قد ارتكبت عملاً بلدياً شائناً ففرضت الملكة عليها تقديم سفينتين كبيرتين تامتي العدة والتجهيز . واتفق ان كولمبوس كان يحضر قداساً في كنيسة القديس جورج مع صديقه فراي جون بريز ، عندما أخذ الدلال يقرأ الامر الملكي بوجوب تحضير سفينتين في غضون عشرة ايام مجهزتين بالرجال مع رواتب أربعة أشهر سلفاً .

من البدهي ان مدة عشرة ايام لم تكن كافية ، والواقع ان الاعداد للرحلة استغرق ثلاثة أشهر قبل ان يستطيع كولمبوس الابحار . وكان قد وعد بثلاثة سفن لا اثنتين ، ولكن حدث ان سفينة من غاليسيا كانت راسية في المرفأ ،

فاستأجرها كولبوس من صاحبها القبطان جون دي لا كوزا ، وجعلها سفينة القيادة وسماها « سانتا ماريا » .

كانت « سانتا ماريا » أشهر سفن كولبوس على الإطلاق ، لقد انتهت حياتها بالجنوح على الصخور القريبة من اسبانيولا دون ان تترك خلفها صورة أو نموذجاً لهيكلها ، ويعتقد ان عدة نماذج صنعت عنها بصورة تقريبية ، كما بنيت سفينتان . « طبق الأصل » عنها في اسبانيا .

كانت حمولة « سانتا ماريا » الأصلية حوالي مئة طن أو مئة برميل خمر من الحجم المزدوج .

وكانت قلاعها من النوع التقليدي في تلك الفترة حيث كانت السفن على عتبة الخروج من نظام القلع الواحد الذي تميزت به سفن القرون الوسطى : صاري امامي يبلغ ارتفاعه اكثر من طول السفينة ، فسحة أمامية بطول الهيكل تحمل شراعاً مربعاً هائلاً – الدافع الرئيسي – والذي كان يعتمد عليه لتحقيق السرعة القصوى . وفوق القلع الرئيسي على رأس الصاري ينتشر قلع علوي رئيسي .

وكان صاري المقدمة ، اطول قليلاً من نصف علو الصاري الرئيسي ويحمل قلعاً مربعاً أمامياً يعرف بالقلع الأمامي . أما صاري مؤخرة السفينة والذي يرتفع فوق أعلى نقطة في المؤخرة فكان يحمل قلعاً صغيراً مثلث الشكل ، وتحت البومبريس ، المتجه الى أعلى مقدمة السفينة (البروة) بزاوية حادة كان ينتشر قلع صغير مربع يدعى القلع الجانبي الذي كان يقوم الى حد ما بوظيفة ذراع المرفاع الحديث او شراع مقدم السفينة الحالية .

وكان لكل سفينة اسبانية في تلك الايام اسم رسمي ، غالباً ما يكون اسم قديس او قديسة ، ولقب آخر يستعمله البحارة . « فسانتا ماريا » مثلاً كانت تسمى « (اسبانيا) أي غاليسيا » بينما كانت احدى السفينتين التي قدمتها مدينة بالوس تسمى « بسانتا كلارا » . لكنها ظلت معروفة عالمياً بلقبها « نينا » الذي اعطي لها نسبة الى عائلة نينو التي كانت تملكها في بالوس . وكانت نينا:

السفينة المفضلة لدى كولبوس والمحبة الى قلبه لأنها عادت به سالماً الى وطنه. من رحلته الأولى . ثم حملته الى غرب كوبا وعادت به الى اسبانيا في الرحلة الثانية ، كما قام برحلة أخرى عليها الى اسبانيولا . كانت تزن حوالي ٦٠ طناً ولم يزد طولها عن ٧٠ قدماً ، وكانت في بدء الرحلة مجهزة بثلاثة أشعرة مثلثة الشكل كالسفن البرتغالية . ولكن كولبوس جهزها بأشعرة مربعة عندما بلغ جزر الكناري فأضحت مثل « سانتا ماريا » وذلك لأن الأشعرة المربعة أسلس من الأشعرة المثلثة عندما تسير السفينة بوجه الريح .

أما « بنتا » التي بنيت محلياً أيضاً ، فقد كانت أكبر من « نينا » وكانت مجهزة بأشعرة مربعة منذ البداية . ولا نعرف اسمها الحقيقي الرسمي . وربما كان لقبها مشتقاً من اسم صاحبها السابق الذي كان يدعى بينتو . لقد كانت سفينة سريعة ، ومن على ظهرها شوهد العالم الجديد لأول مرة كما كانت اول من عاد الى اسبانيا من السفن الثلاث .

وكانت جميع السفن تحمل في عنابرها صابورة من الحجارة المثبتة غالباً بأوتاد خشبية مثل التي يراها الانسان في هياكل البيوت الاميركية القديمة . وكانت جوانبها تدهن بالوان زاهية فوق خط العوم بينما يطلى القسم الغارق منها بالزفت لأبعاد البطلينوس وتقادي الثقوب التي يحفرها بالخشب .

وكانت شعارات الصليب ورسوم الاسلحة تزين الأشعرة . وكانت السفن تحمل معها مجموعة متنوعة من البيارق الكبيرة المطلية بالألوان اللامعة التي ترفع عادة لدى دخول السفينة او خروجها من المرفأ . كما كان شعار الملكة أليزابيلا المطرز بصور قلاع وأسود مدينتي قشتالة وليون ، يخفق على المقدمة ، بينما انتشر على القلع الأمامي او الخلفي شعار الرحلة الخاص وهو صليب اخضر على حقل ابيض مع تاج على كل ذراع — وهو شعار خاص بولاية اراغون^(١) . وكانت السفن الثلاث تحمل بطارية صغيرة من المدفعية بقصد مقاومة هجمات القرصان المحتملة أو صد الدخلاء غير المرغوب فيهم . ولكنها لم تكن بأي شكل من

(١) احدى مقاطعات اسبانيا .

الأشكال سفناً حربية ولم تحمل على ظهرها جنداً أو رجالاً للمدفعية .

ولم يكن باستطاعة كولبوس الغريب عن نبلا ان يجند الضباط والرجال بدون مؤازرة العائلات البحرية الكبرى الثلاث في بالوس : آل بنزون وآل نينو وآل كوينتيرو ، وهكذا تقلد مارتين الونسو بنزون قيادة السفينة « بنتا » مصطحباً معه اخاه فرنسيسكو الصغير برتبة معاون أول ، وقاد شقيق آخر لمارتين ، فينسنت بانيز بنزون السفينة « نينا » التي كان يملكها جون نينو ، الذي عين كولبوس اخاه بيير الونز نينو مرشداً « لسانتا ماريا » .

اما سفينة القيادة فقد قادها كولبوس بنفسه بينما ابحر صاحبها جون دي لا كوزا معه بصفة معاون اول .

وكان في كل سفينة مرشد وضابط يشارك في مهام المعاونة الاول في العصر الحديث ويتولى مسؤولية الملاحة - وطبيب . وكان الاسطول يضم بعض الاختصاصيين منهم لويس دي توريز اليهودي المتنصر الذي كان يعرف العربية ، وهي اللغة التي اعتقد بانها ستتمكنه من التفاهم مع الصينيين واليابانيين ، ورودريغو دي اسكوبيدو ، سكرتير الاسطول ، الذي أنيطت به مهمة تدوين المكتشفات رسمياً ، ورودريغو سانشيز ، المفتش الملكي الذي كانت وظيفته الاساسية التحقيق من ان التساج يحصل على حصته كاملة من الذهب وبدرو جوتيريز خادماً منصة الملك ، الذي سئم الحياة في البلاط الملكي فسافر بوظيفة رئيس الخدم على السفينة . وديجو هارانا ، عم عشيقه كولبوس بصفة مارشال للاسطول المركزي الذي يقابل الرتبة البحرية القديمة « سيد السلاح » .

وقد بلغ عدد الضباط والرجال المعروفين في سانتا ماريا ٣٩ وفي نينا ٢٦ و ٢٢ في بنتا وربما كان هناك اثنان او ثلاثة آخرون مما يجعل مجموع عدد أفراد الاسطول الكامل تسعين شخصاً .

وجاء معظم الرجال المجندين : من خدم ورؤساء نوتية ، وقلعطجية ، وبحارة

ماهرين وصبيان ، من مدينة نبلا أو من المدن المجاورة لها في اندلوسيا مثل .
أشبيلية وقرطبة وجيريز دي لا فرونتيرا . وكان معاش البحار الواحد يعادل .
سبعة دولارات وستين سنتاً في الشهر . وكان الاجانب الوحيدون الى جانب
كولبوس نفسه هم : جنوي واحد وبرتغالي وآخر من البندقية .

أما القصة التي تقول بسفر الإنجليزي واحد وآخر إيرلندي برفقة كولبوس
فخرافة ، ولكن هناك بعض الاساس للرواية الشائعة من ان بعض المساجين
كانوا في عداد البحارة ، فقد أطلق فعلاً سراح ثلاثة شبان كانوا محكومين
بالسجن مدى الحياة ، لمساعدتهم أحد المجرمين على خلع باب السجن ، لكي
يبحروا مع كولبوس . وقد أثبتوا اخلاصهم وسافروا مع الاميرال في رحلات
اخرى ، كما فعل عدد كبير من الآخرين . وكان بحارة هذه السفن بوجه عام
رجالاً مقتدرين اختيروا من الجوار وعملوا بامرة أفراد من عائلات معروفة كانوا
يتبوأون المراكز الحساسة في الحملة .

وقد تغلب هؤلاء الرجال والشبان على روح التحفظ والحذر الطبيعية لدى .
البحارة وذلك بسبب التشجيع الذي بثه فيهم ملاح قديم كان واثقاً من انه
أخطأ جزر الهند بقليل أثناء رحلته غرباً في ظل العلم البرتغالي قبل اربعين عاماً
خلت فاندفعوا خلفه بحماس سعيّاً وراء الذهب والمجد والمغامرة .

وهكذا اشترك هذا الجمع في اعظم مغامرة بحرية سجلها التاريخ الا وهي
رحلة كولبوس الاولى أما اولئك الذين ظلوا على قيد الحياة فقد نالوا .
أيضاً المجد والذهب .

الفصل السادس

عبور الاطلسي للمرة الاولى

في اليوم الثاني من شهر آب عام ١٤٩٢ كان كل شيء جاهزاً . وفي تلك الليلة اعترف كل رجل وكل شاب في الاسطول بخطاياهم ، ونال الغفران وتناول القربان في كنيسة مدينة بالوس ، المكرسة للقديس جريس ، شفيح مدينة جنوى مسقط رأس كولمبوس .

صعد الاميرال الى ظهر سفينة القيادة في الهزيع الاخير من ليلة الجمعة في اليوم الثالث من آب واعطى الاشارة بالانطلاق . وقبل ان تشرق الشمس كانت السفن الثلاث قد رفعت مراسيها وانسابت فوق مياه مدينة ريو تنتوم مع جزر الصباح وأشرعتها تخفق فوق اعواد الصواري ، مستعينة بالمجازيف الكبيرة لشق طريقها .

وفما كان البحارة ينطلقون في اليم ، مارين قرب لارابيدا كان بمقدورهم سماع الرهبان وهم يرتلون التسبيحة القديمة : « طلعت نجمة النور » ويرددون لازمتها « من الآن والى كل آن » .

كان هذا الاسطول الزاخر بالامل الصالح والذي كان لأعماله العظيمة ان

تغير تاريخ العالم تغييراً جذرياً ، يبحر بموازة اسطول آخر يحمل البؤس والشقاء .
ففي ذات المجرى تماماً ابجرت آخر سفينة من ساليتر وهي تحمل اليهود الذين نفاهم
الملك فرديناند والملكة ايزابيلا من اسبانيا . وكان اليوم الثاني من آب آخر موعد
لرحيلهم ، وعلى كل من يتخلف منهم ان يواجه الاعداء او اعتناق المسيحية
وهكذا اندفع آلاف من اللاجئين البائسين وهم يحملون من حوائج البيت ما
استطاعوا تكديسه فوق السفن المزدحمة متوجهين الى البلدان الاسلامية حيث
التسامح والتساهل متوفران بصورة أكبر ، او الى الاراضي الواطئة^(١) ، البلد
المسيحي الوحيد ، الذي كان يقبل استقباهم .

ولم يشر كولبوس بكلمة عطف واحدة في جميع كتاباته عن مصير هذا
الشعب المضطهد ، بل عبر عن رغبته بمنعهم من الاستيطان في البلدان التي
سيكتشفها . ولو كان بين اليهود الاسبان نبي جديد لأشار أمام مواطنيه المعذبين
الى اسطول كولبوس الذي أبحر في صباح ذلك اليوم من شهر آب قائلاً :
« شاهدوا تلك السفن التي ستنتقل في الوقت المناسب ابناء اسرائيل الى كافة
ارحاء الارض » .

كانت خطة كولبوس للرحلة بسيطة ، وقد ضمنت له هذه البساطة النجاح .
وما كان لكولبوس ان يخشى الرياح العاتية والبحار الصاخبة والظلمة الرهيبة ،
ولا المياه اللامتناهية في شمالي الاطلسي والتي خيبت آمال الكثيرين من
البرتغاليين قبله وكسرت شوكتهم . فقد عزم على الابحار جنوباً بوجه الرياح
الشمالية السائدة الى جزر الكناري ومنها يغير اتجاهه منعطفاً في زاوية قائمة
لأنه كان قد لاحظ في سفراته الافريقية ان ريح الشتاء تهب على خطوط العرض
المارة بجزر الكناري من الشرق وان مياه « المحيط حولها غالباً ما تكون
صافية وهادئة كالمياه الراكدة في بركة الطاحون » وكان هناك سبب آخر أفضل
لوضع خطة انطلاقه من جزر الكناري هو وقوعها على جانبي الدرجة ٢٨ من
خط العرض الذي يمر ، على ما كان يعتقد ، باليابان مخترقاً في طريقه جزيرة

(١) هولندا .

« الانتيل » الاسطورية والتي ستكون نقطة استراحة بديعة له في طريقه غربا !
والى مئة سنة خلت عندما شاع استعمال الكرونومتر (جهاز قياس الوقت)
لتحديد خطوط الطول ، كان البحارة يحاولون تحديد خط عرض المكافئ
الذي يقصدونه ثم يبدلون اتجاههم غربا او شرقا حسب مقتضى الحال الى ان
يصلوا اليه . وهذا ما فكر ان يطبقه كولبوس بالنسبة الى اليابان التي ظن
انها - أي اليابان - لا تبعد عن جزر الكناري بأكثر من ٢٤٠٠
ميل بحري غربا .

قطع كولبوس المرحلة الاولى من الرحلة بأقل من اسبوع . وعلى مرأى جزيرة
الكناري الكبرى اندفع الاسطول في بحر رائق استمر لفترة يومين او
ثلاثة ، قرر كولبوس بعدها ان يرسل السفينة بنتا ، الى « لاس بالماس » لاجراء
بعض التوصيلات بينما تابعت السفينتان « سانتا ماريا » و « نينا » مسيرتهما الى
« جوميرا » الواقعة على ابعد نقطة غربية من جزر الكناري ، والتي كانت
الاسبان قد اغتصبوها من سكانها الاصليين . وفي « جوميرا » ارسل القائد العام
(كما سنسمي كولبوس في هذه الرحلة قبل تنصيبه اميرالا) بعض رجاله الى
الشاطئ ليملأوا بعض البراميل الخشبية بالماء ، وليشتروا كميات اضافية من
الخبز والجن وكمية من لحم البقر كبسوها بالملح والخل وبعدئذ أبحروا الى لاس بالماس
حيث أشرف بنفسه على التوصيلات الجارية على سفينته الثالثة « بنتا » وعاد
بها الى جوميرا .

وفي الثاني من ايلول كانت السفن الثلاث تلقي مراسيها في مرفأ جزيرة
سان سبستيان حيث تقابل كولبوس لأول مرة مع دونا بياتريز دي بوباديللا ،
ارملة حاكم تلك الجزيرة السابق . وكانت سيدة جميلة لا تتجاوز الثلاثين من
عمرها ، وقد قيل ان كولبوس وقع في حبها . فاذا كان هذا صحيحا فالظاهر
انه لم يغرم بها لدرجة تبقيه بقربها حتى اكتمال القمر بدرأ .

وبسرعة نقلت كميات اضافية من المؤن الى السفن ووضعت في العنابر ، وفي
٦ ايلول عام ١٤٩٢ رفعت سفن الاسطول مراسيها لآخر مرة في العالم القديم !

وكان عليها ان تمر بجزيرة اخرى هي جزيرة فرو او هيو الشهقة . ونظراً لهدوء الامواج واعتدال الطقس بقيت جزيرة فرو وقمة تناريف التي يبلغ ارتفاعها حوالي ١٢ الف قدم مرئية لغاية التاسع من ايلول وما ان حل ليل ذلك اليوم ، حتى غاب كل اثر لليابسة وراء الافق الشرقي ، وأضحت السفن الثلاث وحدها في المحيط المجهول .

وحدد كولومبوس وجهة السير بنفسه ، هكذا : « الى الغرب ... وليس الى الشمال ولا الى الجنوب ابداً » .

وقبل الدخول في تفاصيل الرحلة ، دعنا نرى بأنفسنا كيف كانت تدار تلك السفن ، وكيف كان النهار يمضي في عرض البحر . كانت العلوم الفلكية البحرية في ذلك الحين في طور نشأتها ، ولكن تقديرات تقريبية عن خطوط العرض كان يمكن استنتاجها من علو النجمة الشمالية فوق الافق وعلاقتها بالنجمين البعيدين اللذين يعرفان باسم « الحارسين » وهما نجمتا الدب الاصغر .

وكان مجرد تطبيق معادلة بسيطة بعد تحديد ارتفاع الشمس عند الظهيرة ومقارنة هذا الارتفاع بالجداول المتوفرة لمعرفة مدى انحرافها ، يكفي للوصول الى تحديد خطوط الطول . ولكن معدات المراقبة المصنوعة من الخشب القاسي ، والميزولة ^(١) المصنوعة من النحاس والاسطرلاب ^(٢) كانت بدائية حتى ان تقلبات السفينة كانت تقذف بها بعيداً وتبعثرها هنا وهناك . لذلك كان معظم الملاحين يحددون خطوط العرض وهم على الشاطئ . اما كولمبوس فكان يعتمد كل الاعتماد على التقدير الرزين الذي يعني تحديد وجهة السير والمركز على الخارطة بالاعتماد على عوامل ثلاثة هي : الاتجاه والوقت والمسافة !

فكان يحصل على الاتجاه المعين من احدى البوصلات المشابهة لتلك التي ظلت قيد الاستعمال في السفن الصغيرة الى وقت قريب - وهي كناية عن ورقة كرتون مستديرة مقسمة الى ٣٢ درجة على الشكل التالي : ش ، ش شرقي ،

(١) آلة لقياس الزوايا .

(٢) آلة فلكية قديمة .

ش ش شرقي ، ش شرق بقرب ش ش شرق ... وهلمجرا .. وفيها حجر مغناطيسي موضوع مباشرة تحت رأس الابرة الشمالي المركبة على مسمار ومحاطة بصندوق فيه قاعدة مستديرة لكي تتحرك بحرية كلما تحركت السفينة .

وكانت بوصلة كولبوس الاصلية مركبة على ظهر مؤخرة السفينة بحيث يستطيع ضابط الرقابة ان يراها . اما المسؤول عن الدفة الذي كان يسيرها بذراع ثقيلة تتصل مباشرة بقمة الدفة ، فلم يكن يستطيع ان يرى امامه كثيراً لان مكانه كان أدنى من ظهر السفينة . وربما كان يحتفظ ببوصلة أخرى يدير الدفة بواسطتها ، ولكن ماسك الدفة في السفن الصغيرة كان يسترشد بضابط المراقبة ويحافظ على خط سير السفينة بواسطة تحسسه مسكة الدفة . وكان من المستطاع القيام بمثل هذا العمل في سفينة شراعية صغيرة ولكنه يستحيل في سفينة آلية .

أما الوقت في تلك الايام فكان يقاس بواسطة ساعة رملية معيرة لمدة نصف ساعة تعلق على دعامة حتى يتمكن الرمل من التدفق بسهولة من نصفها العلوي الى نصفها السفلي . وحالما يصبح الرمل كله في الأسفل يأتي الصبي ويقلب الزجاجاة بعد ان يكون الضابط المسؤول على ظهر السفينة قد سجل الوقت بحجرة قلم على لوح اردوازي . وكانت كل ثماني زجاجات تعني نوبة حراسة . وليست أجراس السفن الحديثة في الاصل الا وسيلة لتسجيل عدد الزجاجات . وكان بالامكان ضبط زجاجة النصف ساعة تلك عندما يكون الجو لطيفا وذلك بمراقبة اللحظة التي تأخذ فيها الشمس بالميل الى الجنوب ، أي وقت الظهيرة محلياً . أما المسافة فقد كانت العامل الأكثر تقلباً من تلك العوامل الثلاثة . اذ لم يكن في حوزة كولبوس آلة لقياس سرعة السفينة او أية وسيلة أخرى لتقديرها ، الا انه وضباط المراقبة كانوا يقدرونها تقديراً فقط ويدونونها في ملاحظاتهم .

وقد اكبد القبطان ج.و. منا كلروي بعد المراجعة الدقيقة التي اجراها على دفتر كولبوس اليومي لرحلته الاولى ، بأن كولبوس افراط في تقدير مسافته بنسبة ٩. بالمئة فقط .. ولكن هذا لم يمنعه من ايجاد طريق العودة الى وطنه وذلك

لأن الغلطة كانت ثابتة ، بينما كان الوقت والاتجاه صحيحين . وكل ما نتج عن ذلك هو ان كولبوس وضع الجزر التي اكتشفها في مراكز أبعد غرباً مما كانت عليه بالحقيقة .

ونجد ، حتى بعد طرح الزيادة في تقديرات كولبوس ان سرعة سفنه كانت مدهشة اذ كان ينتظر من السفن آنذاك ان تسير بسرعة ٣ الى ٥ عقد في الريح المعتدلة . وتسع ونصف عقدة في الرياح القوية أو النوء المعتدل ، وفي بعض الأوقات كان يوسعها ان تسير بسرعة ١٢ عقدة في الساعة . وقد تبين ان اسطول كولبوس سار في تشرين الاول عام ١٤٩٢ بمعدل ١٢٤ ميلا في اليوم، لخمس ايام متتالية . وبلغت اقصى سرعته ١٨٢ ميلا في اليوم الواحد . أي بمعدل ٨ عقد بحرية في الساعة . وفي رحلة العودة قطعت السفينتان نينا وبنتا ١٩٨ ميلا في أحد ايام شباط من عام ١٤٩٣ ووصلت السرعة احيانا الى ١١ عقد في الساعة . إن أي صاحب يخت في أيامنا هذه يعتز ويفخر اذا ما سجل الارقام التي سجلها الاميرال العظيم في بعض رحلاته عبر المحيط في القرن الخامس عشر ! والغريب ان معظم التحسينات التي ادخلت على السفن منذ عام ١٤٩٢ حتى الآن انحصرت في جعل السفن اكثر احتمالا لابعاء الملاحة وتوفير اسباب الراحة فيها دون الاكتراث للسرعة .

وكان من اسباب اصرار كولبوس على اصطحاب اكثر من سفينة واحدة في رحلاته ، رغبته بان تقوم احدى السفن باعمال الانقاذ في حالة تعرض الأخرى للفرق . ومع ذلك فقد حقق سجلاً ممتازاً بعدم فقدانه أية سفينة في عرض البحر ، اللهم إلا اذا حسبنا سانتا ماريا التي جنحت على الشاطئ دون ان تسبب أية خسارة في الأرواح . وكانت وسائل التسلية واسباب الراحة مفقودة تماماً ، فكان الطبخ يجري على ظهر السفن فوق طبقة من الرمل في صندوق خشبي يحميه من الريح قمع كبير . وكان الطعام على رتيبة واحدة — أي اللحم المملح والبقساط والفصوليا المجففة . أما الشراب فكان النبيذ طالما هو متوفر . ثم يشربون الماء المعبأ في براميل الخشب والذي غالباً ما كان يفسد بسبب طول

المدة وكان للقائد العام والقباطنة الآخرين فقط غرف للنوم مزودة بالفراش .
أما الآخرون فكانوا ينامون بشياهم وحيث يستطيعون !

وكان البحارة في تلك الايام اكثر الرجال تديناً . وكان لكل سفينة صبي يعهد
اليه بترنيم انشودة عند الفجر ، هذا مطلعها :

تبارك ضوء النهار !

فيردد البحارة : والصليب المقدس !

ثم يقوم بعدها بتلاوة صلاة الرب ومديح العذراء ويتضرع الى الله كي يبارك
جماعة (طاقم) السفينة . وكلما انقضت نصف ساعة يعود الى الانشاد وهو يدير
الزجاجة . وها كم بعض ما كان ينشده والذي نسميه اليوم بالخمسة أجراس .

مرات الخامسة وها هي السادسة تجري

سوف يمر وقت اكثر بمشيئة الله

عد وامشي ... تجعل الرحلة اسرع

وبعد غروب الشمس ، وقبل بدء نوبة الحراسة الليلية كان ينادي على الجميع
للتأدية صلاة المساء التي كان يبدأها الولد وهو يضيء المصابيح منشداً :

اعطنا يا رب ليلة ممتعة وسفرة موفقة

ودع سفينتنا تشق طريقها بسلام

برفقة رباننا ومعاونيه والزملاء الاخيار .

عندئذ يرفع الجميع أيديهم مبتهلين الى الله وهم يصلون « نؤمن بالله واحد .. »

ثم يصلون الى العذراء ويختتمون صلاتهم بانشاد تسبيحة « سالفى رجينا »
التي كان ينشدها البحارة على طريقتهم الخاصة فيزعقون ويصرخون بعدة ألحان
موسيقية مشوهين جمال الكلمات اللاتينية الفخمة . ولكن ترى هل يجعلها
هذا (النشاز) اقل قبولاً لدى العذراء التي يشعر جميع البحارة بالاطمئنان

في ظل حمايتها؟!!

والان يعود الصبي الى الانشاد بعد ان يكون قد قلب زجاجة الساعة الرملية.
للمرة الثامنة :

الرقيب مدعو ...

فان الساعة تجري ...

سوف نقوم برحلة طيبة

ان شاء الله ...

وفيا السفن تسير غرباً خلال الليل الاستوائي الساكن ، وهي تترنج.
وتتهادى وتنتفخ أشرعتها وتمدد ، وتتوتر حبالها ، وتقذف مقدماتها الزبد
تعلن الترنيمة التالية مرور نصف ساعة على المسير :

دعونا نصلي الى الله تعالى

لكي يمنحنا رحلة طيبة

وبكرامة الام المباركة

شفيعتنا في السماء ،

ينجينا من حيات البحار

ويبعد عنا العواصف !

ولنكتف الآن بهذا القدر من الشعائر الدينية التي كانت تمارس يومياً مهما
كان الطقس ولننتقل الى شرح تفاصيل الرحلة وحوادثها :

قرر كولمبوس في التاسع من ايلول أي في اليوم الذي غابت فيه اليابسة عن
الرؤيا وراء الأفق ، ان يحتفظ بتقديرين عن رحلته : الاول صحيح يحتفظ به
لنفسه والثاني مصطنع يطمئن به رجاله لكي لا يشتد بهم الخوف وهم على بعد

شاسع من اليابسة . ولكن تقديره المبالغ فيه عن السرعة جعل التقدير المصطنع أقرب الى الواقع من التقدير الصحيح .

ظلت الرياح الموسمية الشرقية تهب بتؤدة أثناء العشرة أيام الأولى من الرحلة - أي من ٩ - ١٨ ايلول - وقطع الاسطول مسافة ١١٦٣ ميلاً بحرياً في اتجاهه غرباً . وكانت هذه المدة بمثابة شهر العسل للرحلة وكتب عنها كولبوس في مذكراته هذه الفقرة : « ياله من انشراح ذلك الذي تولده نكهة الصباح » . ان هذه الفقرة تتجاوب مع قلب كل انسان قام بالسفر في الرياح الموسمية ، وتعيد الى مخيلته صورة الفجر الجميل وقد صبغ الغيوم والأشعة بلون الورد ... وتذكره رائحة الندى الآخذ في الجفاف على سطح السفينة الخشبية ... وشيئاً آخر لم ينله كولبوس ... الا وهو أول فنجان من القهوة . وبما ان سفنه كانت على الطرف الشمالي لمهب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصطدم الريح أولاً بالماء ، كان البحر هادئاً ، والهواء ... كما اشار كولبوس في مذكراته « اشبه بايام نيسان في الأندلس ، ولم يكن ينقصنا سوى سماع تغريد البلابل » وكانت اصناف اخرى من الطيور تلحق بالسفن ، منها : فراخ الام كاري وهي تلبلب ببناقيرها على خشبة طافية على سطح المياه في ثنايا امواج المقدمة ، وطير الرئيس ، هكذا كانوا يسمونه نظراً لريش ذيله الطويل وكذلك طير القناصة الذي كتب عنه الشاعر والت وايتان : « انت سفينة الهواء التي لا تطوي اجنحتها ابداً » .

وعندما ابتعد الاسطول عن مكان هذه الطيور ، ناداه النورس^(١) الكبير ! وفي هذه الاثناء كان الاسطول يمخر عباب اول منطقة يكثر فيها عشب البحر الذي وجد البحارة انه لا يعيق الملاحة . وظلت عبارة « رأيت عشباً كثيراً » تتردد يومياً في دفتر مذكرات القائد العام ، الذي لم يضايقه وجود العشب بمقدار ما ضايقه ملاحظة انحراف البوصلة لجهة الغرب ، ذلك لان هذا الانحراف يكون دائماً لجهة الشرق في المياه الاوروبية .

وما ان دخل الاسطول يومه العاشر بعد مغادرته جزيرة فرو - اي في ١٩

(١) طير مائي كبير .

ايلول حتى اخذ يبحر تدريجياً في منطقة متقلبة الرياح وكثيرة المطر ، قريبة من المكان المفروض ان تكون فيه جزيرة الانتيل الاسطورية ، كما عينها كولمبوس على خارطته ، وانتظر الجميع ان يشاهدوا اليابسة . حتى ان القائد العام انزل عاموداً لقياس الأعماق ، ولشد ما كانت دهشته عندما لم يصل العامود الى قرار على عمق ٢٠٠ قامة ! ولا عجب فان عمق المحيط في المنطقة التي وصل اليها يبلغ حوالي ٢٣٠٠ قامة . ولكن البحارة الذين بدأوا في اليوم العاشر لهبوب الرياح الموسمية يتساءلون فيما اذا كانوا سيتمكنون من العودة الى وطنهم ، عادوا فانتعشت آمالهم للتبدل الذي طرأ على الريح . وخلال الأيام الخمسة التالية قطع الاسطول مسافة ٢٣٤ ميلاً فقط ، كان الطقس خلالها لطيفاً مما اتاح للبحارة تبادل الأحاديث بين سفينة واخرى عن الجزر التي سيكتشفونها وخصوصاً عن الانتيل وسانت برندان . وحدث خلال أحد هذه الاحاديث ان صرخ بحار من بنتا « اليابسة ، اليابسة » مما جعل كل بحار يعتقد بأنه رأى جزيرة مقابل الشمس الغاربة . وخر كولمبوس على ركبته راكعاً ليشكر الله وأمر الجميع بأن ينشدوا ترنيمة المديح الالهية وعين وجهة سير الاسطول نحو الجزيرة . ولكنهم عند بزوغ الفجر لم يعثروا على أي اثر لأية جزيرة اذ لم يكن هناك جزيرة ، ولم تكن الصخور الخداعة سوى حافة غيمة كانت فوق الأفق الغربي شبيهة باليابسة وهذه ظاهرة طبيعية تحدث عادة في عرض البحر . ومع ذلك تنى مارتن الوزو بنزون ان يحوم حول المكان للتفتيش عن هذه الجزيرة لكن كولمبوس رفض ذلك لأن هدفه كان على حد قوله « الوصول الى جزر الهند ، فليس لتباطئه مغزى ».

عادت الرياح الموسمية الى الهبوب الآن ، ولكن باعتدال ، ولم يستطع الاسطول في الستة أيام الواقعة بين ٢٦ ايلول الى واحد تشرين اول ان يقطع سوى ٣٨٢ ميلاً فقط . فأخذ البحارة والحالة هذه يهيمون ويتذمرون . فربما كانت الثلاثة اسابيع التي قضوها دون ان يروا اليابسة اطول من أي مدة قضوها من قبل فراح كل منهم يثير أعصاب الآخر كما يحدث حتى في أيامنا هذه إبان السفر الى جهة معروفة ولكن في رحلة طويلة . ولم يكن هناك ما يفعله

البحارة أثناء الرياح الخفيفة سوى متابعة العمل الروتيني وصيد السمك. وازداد الغم في صدورهم وأخذوا يزأرون بالشكوى لأسباب واقعية وخيالية ، وبدأت تتشكل بينهم الأحزاب والكتل . لقد كانت اسبانيا تبتعد عنهم مع مرور كل دقيقة ... ترى ماذا يخبىء لهم القدر ؟!

ربما لا شيء ، سوى ما يراه ذلك الجنوي اللعين . فليجبروه على العودة !
او ليقتلوا به الى البحر !

وزادت قوة الرياح في اليوم الأول من تشرين وقطع الاسطول في الخمسة ايام الواقعة بين الثاني والسادس من تشرين الاول - ٧١٠ أميال . وعندما اجتازوا الدرجة الخامسة والستون من خط الطول غربا وأصبح وضعهم الحقيقي شمالي بورتوريكو مباشرة ، اطلق مارتن الوزو بنزون العنان لسفينته الرشيقة بنتا تحت مؤخرة سفينة الاميرال وصاح «عدل الطريق يا سيدي الى جنوبية غربية .. اليابان !» . لم يفهم كولمبوس ما اذا كان مارتن الوزو قصدا ان يقول له بأنهم اخطأوا اليابان وعليهم ان يديروا الدفة الى الجهة الجنوبية الغربية - غربا حتى يصلوا الى الصين ، او ان اليابان تقع في ذلك الاتجاه ؟ لكنه كان يعلم كما يعلم بنزون بان الاسطول قد قطع أكثر من مسافة الـ ٢٤٠٠ ميل التي تفصل جزر الكناري عن اليابان حسب تقديراتها . ومن الطبيعي ان يقلق كولمبوس ، لكنه أبقى البوصلة باتجاه الغرب المغناطيسي ، ذلك الاتجاه الذي كان في الواقع بسبب الانحرافات التي لم يأبه لها كولمبوس غربياً جنوبياً .

وعندما تراءى للبعض وللمرة الثانية سراب اليابسة الخداع في السابع من تشرين الاول ، مرت اسراب هائلة من الطيور فوق السفن وتبين ان وجهة طيرانها كانت غربية - جنوبية - غربية ، وكان هذا الوقت أوان نزوحها الخريفي من شرقي اميركا الشمالية الى جزر الهند الغربية . فقرر كولمبوس انه من الأفضل ان يتبع سير الطيور بدلا من الخارطة ، واقدام على تغيير وجهة سيره في ذلك المساء . لقد كان ذلك فألا حسنا لانه سلك اقصر الطرق للوصول الى أقرب مكان من اليابسة . وكان منظر اسراب الطيور الآن ، وفي الليالي

المتتالية باعثاً على شد عزائم البحارة الذين كانوا يشاهدونها في ضوء القمر (وقد غدا بدرأ في الخامس من تشرين الاول) وكأنها تشاركهم الطريق في طيرانها . ولكن في العاشر من تشرين الاول تأججت نار العصيان ثانية فلا اثر لليابسة بعد واحد وثلاثين يوماً . ولقد أبحروا غرباً حتى أكثر من التقدير الخاطيء الذي قدمه كولبوس ، واكثر مما كان احد يتوقع : لقد شعبنا من هذا الهديان الفارغ ، انظر نبحر الى ما لا نهاية ، وعلى القائد العام ان يعود والالاء .! » ويقول السجل بان كولبوس طيب خاطرهم باقصى ما يستطيع واكد لهم الأمل الكبير بالفوائد التي سيحصلون عليها . و اضاف يقول : « ان من العبث التذمر فقد أتى للوصول الى جزر الهند وسيتابع طريقه حتى يعثر عليها باذن الله » .

كان ذلك مثلاً عن عزم كولبوس . ومع ذلك ، وحتى هو ، الواثق بالعناية الالهية ، لم يكن ليستطيع الثبات الى ما لا نهاية بدون مؤازرة قباطنته وضباطه . وبناء على احدى الروايات ، كان مارتين الوزو بنزون هو الذي يشدد من عزيمه كولبوس بقوله له « اديلانتي » الكلمة التي ترجمها شاعر اميركي بانها تعني « ابحر الى الامام .. الى الامام » .

ولكن اوفيدو ، احد المؤرخين الاوائل والذي يقال بانه تحدث مع المشتركين بالرحلة ذكر ، ان كولبوس هو الذي اقنع آل بنزون ولاكوزا بمتابعة المسير بعد ان وعدهم بأنه سيعود اذا لم يجد ارضاً في غضون ثلاثة أيام . فاذا كانت هذه الرواية صحيحة وأنا اعتقد بانها كذلك ، يكون وعد القائد العام لربابنته قد صدر في التاسع من تشرين الاول .

وفي اليوم التالي تجدد هبوب الرياح الموسمية فاندفع الاسطول بسرعة ٧ عقديات بالساعة ، وظلت الحال كذلك لغاية اليوم الحادي عشر من تشرين الاول ثم اعتكر البحر وهاج . ولكن امارات اليابسة كظهور اغصان الشجر باوراقها الخضراء اليانعة والأزهار الطافية على سطح المياه بدأت تظهر بكثرة مما اقنع البحارة بصواب القرار الذي اتخذته قائدهم العام وانطفأت هممة التمرد في غمرة شعورهم بقرب ظهور جزر الهند للعيان .

وما ان غابت شمس اليوم الحادي عشر من تشرين الأول ، وراء افق صاف ، حتى اشتدت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وتحولت الى ريح هوجاء دفعت السفن بسرعة ٩ عقدات في الساعة ، إلا ان كولبوس رفض ان يقصر مدى القلوع لأن الوقت الذي حدده لبلوغ اليابسة كان يمضي سريعاً ، ولذلك أشار كل شخص ان يقوم بالمراقبة بعين يقظة ، ووعد بكافأة اضافية لأول شخص يرى اليابسة بالاضافة الى الراتب السنوي الذي وعد به العاهلان . وكانت ليلة القدر تلك صافية وجميلة لدى طلوع القمر متأخراً ، ولكن البحر كان اكثر هيجاناً منه في اي يوم من ايام الرحلة كلها ، وكان البحارة يشعرون بالتوتر وهم ينتظرون املاً جديداً وبدا القلق والتوقع على وجوه الضباط بينما بقي القائد العام محتفظاً برزاقته وبقوته بالله ، الذي تجلت قدرته ، سيظهر له جزر الهند الموعودة !

وحوالي العاشرة ليلاً أي قبل طلوع القمر بساعة واحدة اعتقد كولبوس . وبحار آخر في ذات اللحظة تقريباً بأنها شاهدوا نوراً يشبه ضوء الشمعة يرتفع ويهبط . وقال آخرون بانهم رأوا النور وانه اختفى بعد دقائق ، ولكن اكثر البحارة نفوا ذلك ، وبعد ، لقد كتبت المجلدات لتوضيح ماهية ذلك الضوء وماذا يمكن ان يكون ، أما بالنسبة الى البحار فلم يكن الأمر بحاجة الى أي ايضاح ، فلم تكن تلك الظاهرة بالنسبة اليه سوى سراب خادع ناجم من فرط المراقبة الصارمة فعندما يجهد البحار نفسه لرؤية اليابسة في الظلام بدون ان يكون متأكداً من موضعه الحقيقي ، تترأى له أضواء ومضات وهمية ويسمع طنين اجراس ليس لها وجود ، بل انه يرى اشباح امواج هائلة بينما يكون البحر صافياً هادئاً .

كانت السفن في اندفاعها الى الامام تهبط وترتفع ، تتقلب ذات اليمين وذات اليسار قاذفة الامواج الصغيرة على مقدمتها بينما الزبد الأبيض يعكس أشعة القمر ، وكانت السفينة بنتا تسبق الآخرين بمسافة نصف ميل بينما كانت سانتاماريا على يسارها من جهة ونينا من الجهة الاخرى . وكان تقدم بنتا حافزاً لاثارة شعور التسابق بين البحارة فكانت تتقدم احداها تارة والاخرى طوراً السفن الثلاث تسير بأقصى ما تستطيع من السرعة . وبنهاية الرمل الموجود في

الزجاجة السادسة لتوقيت الحراسة الليلية انتهت فترة بدأ بعدها فجر تاريخ جديد . ومضت دقائق قليلة أدار بعدها القدر ساعة جديدة ما زالت الاجيال تراقب انسياب الرمل منها حتى يومنا هذا .

بل ولم يحدث منذ ولادة المسيح ، ان مضت ليلة مفعة بالمعاني والآمال للجنس البشري كتلك الليلة الفذة .

ففي الثانية صباحاً من ١٢ تشرين الاول شاهد رودريغودي تريانا وهو يقوم بدور المراقبة على برج السفينة « بنتا » شيئاً ابيض كقمة صخرية يلمع في أشعة القمر فأخذ يصيح مبهوراً « تيرا تيرا » (اليابسة ! اليابسة !) وبعد ان تأكد القبطان بتزون من ذلك ، أطلق المدافع حسب الخطة المرسومة وأمر بتخفيض القلوع حتى يساعد سفينة الاميرال على اللحاق بسفينته . وفيما كانت سانتا ماريا تقترب لعلع القائد العام بصوته وسط المياه الصاخبة قائلاً : حقاً يا سنيورمارتين الوزو انك وجدت اليابسة وعليه تستحق مبلغ خمسة الاف مارافديس كمكافأة لك !

نعم ، لقد وجدوا اليابسة هذه المرة ، وكانت جزيرة صغيرة من مجموعة جزر البهاما . وتوجه الاسطول رأساً باتجاه الريح المقابل للمرتفعات الرملية ، اذ كان معرضاً للتحطم فيما لو حافظ على وجهة سيره . كما ان البحارة كانوا اكثر مهارة من ان يسمحوا لشيء كهذا ان يحدث . وعندئذ ، أمر القائد العام بتخفيض القلوع وطلب الى الاسطول ان يتلکأ الى ان يبرز نور الصباح . وما ان اصبح الفجر حتى سار الاسطول بأقصى سرعته فاجتاز النقطة الجنوبية للجزيرة وأخذ يفتش عن معبر الى الشاطئ الغربي وسط حاجز من الصخور المرجانية . وقبل الظهر بقليل وجدوا ضالتهم ودخلوا في خليج قليل الغور يدعى اليوم خليج « لونغ » او « فرنانديز » ورست السفن في مكان محجوب عن الريح على عمق خمس قامات .

وهنا ، وعلى شاطئ براق بالمرجان الابيض تم نزول كولبوس الشهير الاول الى اليابسة . وذهب القائد العام – الذي اصبح الان اميرالا بموافقة

الجميع - الى الشاطئ في زورق القيادة يرفرف عليه لواء كاستيل الملكي ، بينما
ركب القبطانان من آل بنزون في زورقيها يرفرف عليها شعار الحملة الذي كان
كناية عن صليب متوج من اللون الاخضر مرسوم على قطعة بيضاء . وما ان
وصلوا الى الشاطئ حتى ركع الجميع على الارض يقدمون صلاة الشكر للرب ،
على رحمته ومساعدته لهم بالوصول اليها ومحتضنين التراب بدموع الفرح والسرور ،
ثم نهض الاميرال واطلق على الجزيرة اسم « سان سلفادور » أي - المنقذ المقدس .

الفصل السابع

آسيا ، او ماذا ؟

هرول سكان « جوانا هاني » كما كانوا يسمون هذه الجزيرة ، الى الادغال عندما شاهدوا ثلاثة وحوش بحرية تقترب من الشاطئ ، ولكن حب الاستطلاع استولى عليهم فأخذوا يختلسون النظر الى القادمين ، وعندما شاهدوا بعض الآدميين ينزلون الى الشاطئ باللبستهم الغريبة ، خرجوا من مخبئهم وأخذوا يقتربون منهم بوجل حاملين معهم الهدايا بقصد استرضائهم. وكان لابد لكولمبوس من ان يعتقد بأنه وطأ ارض جزر الهند ، ولذلك سمى سكان الجزيرة بالهنود ، وهكذا اصبح سكان اميركا الاصليين يعرفون بالهنود في جميع اللغات الاوروبية!

كان أولئك السكان الذين التقى بهم كولمبوس لأول مرة من فرع « تاينو » من مجموعة القبائل المتكلمة بلغة اراواك . وكانوا قد اتوا من البر الاصلي خلال القرن الغابر في قوارب صغيرة من جذوع الأشجار ، ولم تكن اسلحتهم اكثر من الرماح الخشبية ، وكانوا قد اغتصبوا جزر البهاما ومعظم اراضي كوبا من فصيلة « سيبوني » الذين كانوا يحيون حياة بدائية اكثر منهم . كان افراد « التاينو » يمارسون زراعة الذرة واليام وبعض الجذوع الأخرى التي تصلح للأكل ، وكانوا يجيدون صنع الخبز من النشاء الذي يستخرجونه من شجرة الكاسافا ، كما يجيدون

غزل القطن وحيآكته وصنع الاواني الخزفية . ودهش الاسباب لدى مشاهدة اجسامهم الجميلة ، وعريهم الكامل تقريباً ، كما لاحظوا بدهشة زائدة ما كان يتحلى به بعضهم من الخلق المصنوع من الذهب الخالص المتدلى من انوفهم . وقد كتب كولبوس عن صراحة ابناء الطبيعة هؤلاء وكرمهم فقال : « انهم يدعونك الى مشاركتهم بكل شيء يملكونه ويظهرون من المودة ما يجعل المرء يعتقد بأنهم يقدمون قلوبهم ايضاً ، وكان جهلهم المسال والحديد وعريهم الكامل يوحي الى كل اوروبي مثقف أنهم من بقايا « العصر الذهبي » .

وكتب مارتير ، اول مؤرخ للعالم الجديد يقول : « يبدو انهم يعيشون في ذلك العالم الذهبي الذي طالما افاض الكتاب القدامى من الحديث عنه ، حيث يعيش الانسان بكل بساطة وبراءة ودونما حاجة لتطبيق القوانين وتنفيذها ، وبدون مشاجرات وبلا قضاة ولا تشهير ، قانعاً فقط بان يرضي الطبيعة » . أما كولبوس فكان يفضل أن لو قابل الشرقيين المثقفين بدلاً من هؤلاء « المتوحشين الاكارم » لكنه جرياً على عادته استفاد من الوضع على افضل وجه فقال ملاحظاً : « ما اسهل تنصير هؤلاء الناس وجعلهم يعملون لنا » . وبمعنى آخر ، كان كولبوس يرى ان يستعبدهم مقابل تخليص ارواحهم . ويبدو ان جميع الاسبانيين اخذوا من البحارة الذين عادوا من هذه الرحلة الاولى الفكرة القائلة بان الرجل الأبيض لن يحتاج في العالم الجديد لان يشغل يديه في أي عمل كان لأن الله قد هيا لهم اناساً لكي يقوموا على خدمة اسيااد الخلق .

ظل كولبوس طوال يومين يحوب سان سلفادور وكانت آنئذ جزيرة رائعة تغطيها غابات كثيفة من الاشجار الاستوائية الصلبة . ولكن مها كان اكتشاف هذه الجزيرة الجديدة واهالي العصر الذهبي باعثاً على الدهشة والسرور ، إلا أن الاميرال كان يعرف تمام المعرفة ان عليه ، ان هو اراد ان يثبت نجاح رحلته ، ان يرجع ببرهان أكيد على وصوله الى اليابان او الصين او ان يعود بكيات من الذهب والبهارات . وقد ذكر له أهالي سان سلفادور بلغة الاشارة ان عشرات الجزر تنتشر الى الغرب والى الجنوب من جزيرتهم . وبدا لكولبوس أن الجزر

التي يتحدثون عنها لا بد ان تكون الجزر الظاهرة على خريطته والتي تقع جنوبي
ارخبيل سيبانجو . فاذا هي لم تقده الى اليابان الغنية بالذهب ، فهي ولا شك
ستكون مراحل في طريقه الى الصين .

وهكذا اندفع كولبوس مبحراً بعد ظهر الرابع عشر من تشرين الاول
مصطحباً معه ستة من الهنود كأدلاء . وفي ذلك اليوم اكتشف جزيرة أخرى
سمّاها سانتا ماريا دي لكنسبيسون - ويسمى الانجليز بلغتهم العادية جزيرة
« روم كاي » . وقد ظهر ان سكانها لا يختلفون عن سكان جزيرة سان سلفادور
كما انهم فرحوا بالقبعات الحمراء والخرز المصنوع من الزجاج واجراس الصقور ،
التي اهداهم إياها الاميرال . ولقد اثبتت تلك العملية التجارية المعروفة على
الشاطئ الافريقي ، أنها لا تقل رواجاً هنا في جزر الانتيل أيضاً ، وعلى
الأخص أجراس الصقور ، وهي اجراس مستديرة صغيرة بحجم قطر ربع
الدولار او الشلن تربط باعناق صقور القنص وقد احبها الاهالي لرنتها القصيرة
المفرحة التي كانت صورة صوتية مصغرة عن صوت المطرقة . وقد احبها الهنود
كثيراً فكانوا يحذفون حتى سفينة القيادة ثم يهزون أصابعهم ويقولون « تشوك
تشوك » أي « نريد المزيد من اجراس الصقور » . كذلك أحبوا : اطراف الدنتلة
والاسنان المعدنية التي كانت تستعمل لربط ثياب الرجال وصنوج الدف
النحاسية .

واشد ما كان يتمنى الادلاء الوطنيون ارضاء الاميرال ، ولذلك ظلوا
يؤكدون له بالاشارات والتلميحات بأنه سيجد ذهباً كثيراً في الجزيرة التالية ،
ولكنه تأكد بعد ان مر بكل من « لونغ ايلند » - الجزيرة الطويلة « وكروك ايلند » -
الجزيرة المتعرجة « وفيوتشر ايلند » - جزيرة المستقبل ، بأن هذه الجزر
لا تختلف في شيء عن جزيرة سان سلفادور . اذ كانت كل منها كناية عن قطعة
ارض صغيره منبسطة ، تغشاها الادغال ويقطنها بعض الاهالي اللطفاء الذين لا
يملكون من الذهب اكثر من قطع زينة صغيرة حصلوا عليها من مكان آخر . أما
اين هو هذا المكان ، فلم يستطع كولبوس معرفة ذلك ، نظراً لاختلاف اللغة

التي كانت تقف حاجزاً منيعاً ، كما ان الترجمان لويس دي توريز وجد ان لغته العربية لا تفيد شيئاً .

كان كولبوس اول اوروبي شاهد الذرة الهندية ، وأراجيح الشبك المنسوجة من القطن المحلي وكذلك اليام^(١) والبطاطا الحلوة . كما شاهد شجرة قدر ان خشبها يصلح للصباغة . ولكنه لم ير أية دلائل تشير الى وجود الذهب سوى ما كان يتحلى به الأهالي .

وعندما ازدادت امكانية التفاهم بين الاميرال وادلائه الهنود ، فهم منهم بان هناك جزيرة كبيرة تدعى كولبا (كوبا) فاعتقد جازماً انها اليابان او جزءاً من الصين . وهكذا عزم على الذهاب اليها ، فقاده الهنود في الطريق التي يسلكونها بقواربهم الصغيرة وكانت اقصر طريق ممكنة فوق المياه الزرقاء . وعبروا ممر جزيرة كروكد الى خط كيز جنوب شرقي جزيرة البهاما الكبرى . وفي ٢٧ تشرين اول البحر الاسطول مسرعاً بمساعدة النسيم الشمالي - الشرقي ، من جزيرة وعرة ماراً فوق مياه ضحلة تعرف اليوم بصفة كولبوس ، الى المكان الذي أشار اليه الهنود أي جزيرة كولبا (كوبا) ودخلوا في صباح ٢٨ تشرين الاول مرفأ « باهيا بارياي » في مقاطعة اورنتي من اعمال كوبا . وقد اشار كولبوس في دفتره اليومي بأنه لم ير في حياته مرفأً جميلاً كهذا المرفأ ، تكثرفيه الأشجار الطريفة الخضراء التي تختلف عن أشجار بلاده وكان بعضها يشع بالازهار والبعض الآخر مثقلاً بالاثار بينما كان الهواء مفعماً بتغاريد الطيور . ولكن أين معالم اليابان من بين هذه المناظر كلها ؟ أين المعابد المسقوفة بالذهب ، والمدافع البرونزية التي تشبه فوهات فم التنين ؟ وأين الأشراف والسيدات بشياهن المطرزة بخيوط الذهب ؟؟

مسكين كولبوس لقد حاول جاهداً ان يجد ما يكافئ به نفسه في الاشياء الغريبة التي رآها بدلاً من الأشياء الشرقية التي كان يتشوق لرؤيتها . كما كانت

(١) نوع من البطاطا

من الصعب تصوير المناظر والازهار وسكان كوبا بأسلوب شيق مقنع يرضي به الرجال العظام في اسبانيا . ولم يكن باستطاعته قبول الفكرة المزعجة بأن هذا لم يكن الشرق ولكنه عالم جديد !

وفي اليوم التالي ابجرت السفن الثلاث غرباً على طول شاطئ كوبا الغني بالموانئ وكولمبوس يحدوه الأمل في كل لحظة بأن يلتقي بالسفن الصينية القادمة للترحيب به . وأخيراً القت السفن مراسيها في « بورتوجيارا » حيث مكثوا مدة اثنتي عشر يوماً ، قاموا خلالها فقط بنزهة قصيرة الى الغرب باتجاه يونتاكوباروبيا .

وبما ان المترجمين من « سان سلفادور » اكدوا للهنود المحليين بأن هؤلاء الاغراب الذين هبطوا على الشاطئ في سفنهم الخفيفة ذات الجوانب المجنحة البيضاء ، هم اناس طيبون يحملون معهم اكداساً من البضائع الممتازة للمقايضة ، نشط العمل بعض الوقت . ورغبة بارضاء كولمبوس ، اخبره المترجمون عن وجود ذهب كثير في الداخل في مكان يدعى كوبانا كان أي وسط كوبا . ولكن الاميرال وهو في لهفته لتقديم كتاب التعريف الى امبراطور الصين ، أخطأ فهم كلمة كوبانا كان وظن ان التراجمة قالوا « آل غران كان » أي « الخان العظيم » فقرر ان افضل ما كان يمكن عمله هو ارسال بعثة دبلوماسية الى كوبانا كان . فعين لويس دي توريز ، العالم باللغة العربية رئيساً للبعثة مع رودريغو دي كسيرس البحار الكفو ، مساعداً له لأنه سبق وقابل ذات مرة ملكاً زنجياً في غينيا مما يفرض عليه معرفة الطريقة الرسمية للدخول على الاسر الملكية الوثنية ! وهكذا حمل الهنود الحقيبة الدبلوماسية التي تضم (جواز سفر لاتينيا وكتاب اعتماد ملكياً الى الخان العظيم) وهدية لائقة للملك ، وسبحات من الخرز الزجاجي ليشتروا بها المأكولات من الوطنيين .

وانطلقت البعثة مشياً على الاقدام في وادي نهر « كاكويوغوين » مارة بسهولة مزروعة بالذرة والفاصوليا والبطاطا الحلوة ، متجهة الى حيث اعتقدوا انها مدينة « كامبالوك » الامبراطورية حيث يقيم الخان العظيم . لكن وآسفاه

لقد كانت قرية ليس فيها اكثر من خمسين كوخاً مسقوفاً بالنخيل تنتشر حيث تقوم اليوم مدينة « هولجوين » . وهناك استقبل الاسبانيان كأنهما هابطان من السماء وأقام لهما رئيس القبيلة وليمة تكريم بينما احتشد انباء الشعب وراحوا يقبلون أقدامها ويقدمون اليها الهدايا البسيطة . وشغف البحار رودريغو بهذه المعاملة التي لم يلاق مثلها اثناء تجواله في افريقيا ، بينما شعر توريز بخيبة امل ساحقة ، لأنه لم يجد من يفهم لغته العربية وبالتالي لأنه كان يتوقع استقبلاً فخماً من قبل اناس متحضرين في عاصمة تضم ما لا يقل عن العشرة آلاف بيت حجري .

ومع ذلك ، اكتشفت البعثة في طريق عودتها الى المرفأ ، اكتشافاً كان له ، لو علمت ، اثراً أبعد مدى في سعادة الانسانية من أي اتفاق كان يمكن عقده مع الصين . وكان هذا الاكتشاف بكلمات كولبوس نفسه هو : « التقت البعثة باناس كثيرين كانوا عائدین الى قراهم وهم يحملون جمرة نار وحشائش يستنشقون الدخان المتصاعد منها كما هي العادة عندهم » . اظنك حذرت ذلك الشيء أيها القارىء ؟ انه التبغ ، وكانت تلك المناسبة المرة الاولى التي عرف فيها الاوروبيون التبغ . لقد كان افراد قبيلة التينو يستعملونه بشكل سيجار ويسمونه توباكوس .

وكانت الجماعة التي شاهدتها البعثة تسير حاملة سيجاراً ضخماً تشعله لدى كل وقفة من جمرة نار ، ثم يتناوب كل من افرادها اخذ ثلاثة أو أربعة « جرعات » من خلال منخريه وبعد ان ينتعش الجميع يعاودون السير ، بينما يقرم صغار الاولاد بالمحافظة على جمرة النار مشتعلة حتى الوقفة التالية . وهكذا لم يمض وقت طويل على استيطان الاسبان في العالم الجديد حتى جربوا تدخين التبغ فأعجبوا به وأحبوه . وعن طريقهم ، انتشر استعماله بسرعة في اوروبا وآسيا وافريقيا .

اجهد كولبوس نفسه اثناء غياب البعثة في اعادة النظر في تقديراته ومعلوماته وقدر انه قطع مسافة ٩٠ درجة غرباً . وكان هذا طبقاً لمبالغته في تقدير طول.

آسيا كفيلاً بان يضع سفنه على حدود الصين تماماً . ولذلك قرر ان كوبا هي فعلاً « مقاطعة مانجي » الاسم الذي كانت تضعه خرائط الصين الخيالية ، التي كان كولبوس قد درسها ، فوق شبه جزيرة في الزاوية الجنوبية الشرقية للامبراطورية حسب ترامى له من بعض الخرائط الخيالية عن الصين . وحاول الاميرال ايضاً ان يهتدي الى نجمة الشمال بمقياسه البدائي للزوايا ، ولكنه لسوء الحظ اختار النجمة الخاطئة وهي نجمة « الفرق » من فلك الملتهب (قيفاوس) التي كانت في مساء تلك الليلة من تشرين الثاني تشع معلقة فوق نجمة القطب تماماً ، وهكذا استنتج ان كوبا تقع على الدرجة ٤٢ من خطوط العرض ، أي خط العرض التابع لـ « كاب قد » (رأس قد) ! وبالطبع عرف ان هذا التقدير خاطيء ، فقد ابحر عبر الدرجة ٢٨ شمالاً ، كما انه في تقريره عن هذه الرحلة صحح موقع شمال كوبا الى الدرجة ٢٦ - أي ٥ درجات زيادة عن موقعها الحقيقي .

شرع الاميرال يجمع بعض النماذج التي أمل ان تساعد على اقناع الناس في الوطن بأنه وصل على الاقل الى تخوم آسيا . وكان هناك شجيرات تنبعث منها رائحة شبيهة برائحة القرفة جعلته يعتقد انها القرفة نفسها ، كما اعتقد ان البامية الآسيوية ليست إلا نموذجاً عن اشجار الصمغ التي رآها في تشيوس ، وكذلك ثمرة « نوغال دل بيز » التي لا تؤكل ، ظن انها جوزة الهند التي ذكرها ماركو بولو . واليوم إذ تضيء اشجار جوز الهند الباسقة على الشاطئ الكريبي منظرًا رائعاً ، ننسى ان الاسبان هم الذين ادخلوها الى هناك ، كما ادخلوا اشجار الموز . وأخرج الرجال نوعاً من الجذور من الارض ، أكد الطبيب مايستر سانشيز أنها جذور الروند الصيني ، وهي عقار ثمين كانت تستورده اوروبا - ثم تبين انها شيء مختلف تماماً ليس له قيمة حشيشة الفطائر المتواضعة .

وحتى الآن لم يعثروا على الذهب . وعندما كان الاسبان يسألون الهنود عن الذهب كانوا دائماً يشيرون الى مكان آخر . وأفاد هؤلاء الهنود ان الذهب يكثر في جزيرة تدعى « بابك » يقوم سكانها بجمع الذهب من الشاطئ على

ضوء الشموع ثم يطرقونه على شكل قضبان . وقد سببت هذه المعلومات الخاطئة أول تصدع في القيادة الاسبانية العليا إذ أبحر مارتين الونسو بنزون بسفينته بنتا بدون اذن الاميرال على امل ان يكون اول من يصل الى جزيرة بابك . وعرج في طريقه على جزيرة أيناغوا العظيمة التي تقع في الاتجاه الذي عينه الهنود ، وغني عن القول انه لم يعثر على الذهب لا على ضوء الشموع ولا على أي ضوء آخر !

أما الاميرال الذي كان على ظهر سانتا ماريا فقد أبحر والسفينة نينا (التي ظل قبطانها فينسننت يانز بنزون على ولائه له) شرقاً على طول شاطئ المقاطعة الشرقية الجميل . وكانت الجبال الشاهقة ترتفع رأساً من البحر ، وكان يشاهد على مسافة كل بضعة اميال نهر يشكل مصبه مرفأ أميناً محاطاً باليابسة .

ثم عرج على جزيرة « بهياتانامو » التي يشبه مدخلها عنق الزجاجة ، حيث تنتشر جزر صغيرة تكثر فيها الاعشاب وتبرز فوق الماء كرؤوس الالماس ، وجزر اخرى منبسطة كسطوح الموائد . ثم دخل في جزيرة « بورتوكايوموا » الجميلة بعد ان اختار معبراً وسط الامواج المتكسرة ليجد نفسه على حد قوله في « بحيرة تتسع لرسو جميع سفن اسبانيا بأمان » . وصف كولمبوس جمال هذا المرفأ الامين الواقع بين الجبال الشاخنة وحواجز الصخور المتشعبة والتي يتصاعد منها الزبد بكلمات ليس فيها أدنى مبالغة . وكان ثاقب البصيرة أيضاً بالنسبة الى النواحي العملية من مشاهداته فعندما حمله بعض رجاله الى مصب النهر في الزورق وشاهد اشجار الصنوبر المنتشرة على سفوح الجبال قال ان جذوعها الخشبية تصلح لبناء سفن الاسطول الاسباني ! والغريب ان سلالة اشجار الصنوبر هذه تقطع الآن وتنتشر في مصنع يدار بمياه نهر الجبل الذي سمع كولمبوس هديره في احد ايام الاحاد من تشرين الثاني عام ١٤٩٢ .

وتابع سيره مع النسيم الذي كان يهب لحسن الحظ من الغرب ، ملاحظاً ما لا يقل عن تسع موانئ صغيرة حيث خلفها تقع الاودية المورقة الممتدة الى داخل سلسلة الجبال الشاهقة . ومر في طريقه على جبل « الينكو » الذي يشبه

شكل السندان وأحد معالم مرفأ براكوا ، المرفأ الذي وصفه كولبوس بقوله :
« انه مستدير كالحصاة الصغيرة » .

وهنا في هذا المكان المناسب شيد الاسبان أول مستعمرة لهم في كوبا عام ١٥١٢ . وعندما تبين بان لا ذهب في براكوا ، غادرها الاسطول حالما انقلبت الريح الى معتدلة . وعند شروق شمس الخامس من كانون الاول وصل الاسطول قرب كاب ميسي (رأس ميسي) الواقع في اقصى نقطة من كوبا الى الشرق ، ولما كان كولبوس يعتقد ان رأس ميسي يشكل نهاية آسيا ، كما هو حال رأس سانت فينسنت في أوروبا لذلك سماه برأس الفا وأومينا حيث ينتهي الشرق ويبدأ الغرب .

قطع الاسطول الآن ممر عبور الريح ووصل عند حلول الليل الى مرفأ القديس « نقولا مولي » في هايتي ، وقد سماه كولبوس بهذا الاسم لأنه دخله في يوم عيد هذا القديس المحب الى قلوب الاطفال . وكان ادلاؤه الهنود قد اشاروا الى وجود الذهب في هذه الجزيرة العظيمة التي كانت موطن اسلافهم . ولقد كانوا صادقين هذه المرة . ويمكن القول ان هذه الجزيرة انقذت سمعة كولبوس ، لأنه لو عاد الى الوطن دون بينات جديدة غير التي جمعها الى الآن ، لقال الناس بتأفف : « لقد اكتشف هذا الجنوي بعض جزر المتوحشين المثيرة » ، والتي يقطنها اناس لطفاء من العصر الذهبي ، أما كونها جزر الهند الغربية !... فباه باه^(١) !...

دخلت السفينة نينا الرشيقة المرفأ تلك الليلة بينما انطلقت سانتا ماريا الى مسافة قريبة لكي تصبح في وضع مناسب للريح يساعدها على ولوج مرفأ القديس نقولا في الصباح التالي . وعند بزوغ الفجر ، اتخذ الاميرال موقعا يشرف على اربع نواح باتجاه رأس القديس نقولا وجزيرة تورقوغا ورأسين شرقيين في جزيرة هايتي . وكان تقديره متقنا بشكل يمكننا من تحديد مركزه على خارطة عصرية .

(١) لفظة استهزاء واستنكار بمعنى « هراء » .

وساقت ربح معتدلة السفينتين الى خليج موستيك حيث احتجزتها الرياح الشرقية والامطار مدة خمسة ايام . وهنا وبعد ان شاهد الاميرال روعة وجمال الجزيرة ومشابقتها للأراضي الاسبانية سماها « الجزيرة الاسبانية » . وحدث ان قبض ثلاثة من بحارته على فتاة صغيرة جميلة كانت عارية إلا من حجاب ذهبي على انفها وأحضرها معهم الى السفينة ، وبالرغم من انها ابدت رغبتها بالبقاء مع البحارة إلا ان الاميرال « اعادها الى الشاطئ مكرمة » ومنحها ثياباً لائقة مزخرفة بالجلجل وأجراس الصقور غطت بها صدرها . ولما كانت هذه الصبية ابنة احد رؤساء القبائل ، فقد اثبتت هذه الخطوة فائدتها في حقل العلاقات العامة ... إذ بينما كان تسعة من الاسبان يتعقبون معالم طريق ، ارشدهم الاهالي الى قرية كبيرة يسكنها قرابة الالفى نسمة ، وهناك نالوا كل ما يريدونه من الطعام والشراب والبيغاوات والفتيات !

وفي الخامس عشر من كانون اول تخطت السفينتان قنال تورنوجا ومنه الى مصب تروا ريفيرى (الانهر الثلاث) وهو جدول صاف يتدفق من الجبل في واد دعاه كولمبوس بوادي الفردوس . وفي اليوم التالي وعندما لقت السفن مراسيها بالقرب من احد الشواطىء جاء اكثر من خمسمائة نسمة من الاهالي برفقة رئيسهم الشاب بزيارة رسمية للاميرال . ولم يكن كولمبوس قد تأثر برئيس القبيلة الذي صعد على سفينته في كوبا كما تأثر الآن ، إذ كان هذا الرئيس مختلفاً عن ذاك كثيراً ، فقد تناول طعام العشاء بمفرده مع الاميرال وتصرف باتزان وعزة نفس ملكية . وفوق ذلك كان يتزين وحاشيته بالمصاغات الذهبية الاصلية . واستقبل كولمبوس رئيس القبيلة بالاسلوب البحري الرسمي وسط نفخ الابواق كما اطلقت المدفعية احدى وعشرون طلقة تحية له . وللمرة الثانية فكر كولمبوس ان هؤلاء الناس كانوا قابلين للاستغلال فهم جبناء وأهلاً لأن يؤسروا وان يساقوا للعمل والزراعة أو اي عمل آخر تدعو اليه الحاجة ! ورأى كولمبوس ان مثل هذا الامر سيكون فرصة رائعة للعاهلين الذين لم يكن رعاياهما من المولعين بالقيام بالاعمال الشاقة .

وعند شروق شمس العشرين من كانون الاول وصلت السفينتان قرب خليج «آكول» الذي كان جماله أخاذاً بشكل جعل الاميرال يستنفذ كل ما لديه من النعوت لوصفه . والحقيقة ان خليج آكول هو أحد اجمل الخلجان في العالم . اذ تفترق قمم جباله العالية لتكشف عن قمة مخروطية الشكل فوق رأس الوادي ، هذه القمة التي توجهها هنري كريستوف ، ملك هايتي بقلعة صخرية وذلك منذ ١٥٠ عاماً . وكان الأهالي هنا عام ١٤٩٢ في حالة فطرية بريئة اكثر من أي مكان آخر ، حتى النساء كن لا يغطين أجسامهن ولو بخرقة ضئيلة من القطن ، كما لم يمانع الرجال بعرض زوجاتهم وبناتهم على الغرباء . وكذلك كان يبدو ان لديهم الكثير من الذهب ، مما سال له لعاب الاسبان وزاد شهيتهم يوماً بعد يوم .

وخلال ليلة ٢٢ - ٢٣ كانون اول وفي الصباح التالي ، خرج حوالي ألف شخص بقواربهم الصغيرة لزيارة سانتا ماريا كما قام ما لا يقل عن خمسمائة شخص بالسباحة اليها بالرغم من انها كانت ترسو على بعد يزيد على الثلاثة أميال من اقرب نقطة على الشاطئ .

ولم يكن يسمح بحدوث مثل هذه الزيارة بعد ان احتاط كلا الهنود والبيض من بعضها البعض ، وذلك خشية قيام الاهالي بالاستيلاء على السفن ، اما الان فلم تكن مثل هذه الفكرة لتطراً على بال اولئك التانويين المستكينين .

وصل الى آكول رسول خاص من غوا كنغاري ، رئيس قبيلة الهنود في مارين الواقعة في المنطقة الشمالية الغربية من هايتي والذي كان اكثر صولة وجاهاً من رئيس القبيلة الذي كرمه كولمبوس قبل ايام قليلة . وأرسل غوا كنغاري الى كولمبوس حزاماً رائعاً ببكلة من الذهب الخالص ودعاه لزيارته . قبل كولمبوس الدعوة لان الجميع كانوا يؤكدون له وجود مناجم الذهب في ذلك الاتجاه ولأن وسط الجزيرة كانت يدعى سيباو ، الاسم الذي ظن انه ربما كان مشتقاً من سيبانجو أي اليابان .

وهكذا غادرت سانتا ماريا وتينا خليج آكول قبل بزوغ شمس الرابع والعشرين من كانون الاول وكل من عليها يأمل بتمضية عيد الميلاد بفرح وحبور

في مقر الزعيم الهندي الذي ربما كان امبراطور اليابان نفسه !

ولكن القدر قضى بعكس ما تمنوه . ولم تستطع السفينتان بسبب هبوب الرياح المعاكسة ان تقطع المسافة القصيرة بين آكول وعاصمة رئيس القبيلة الواقعة في خليج كارا كول بيوم واحد . ومع تغيير الحراسة في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، توقفت السفينتان شرقي رأس هاتيان ضمن مضيق الليمون الواقع صوب حاجز الصخور المتشعبة . وكان البحارة يشعرون بالانهك بعد ان أمضوا الليلة الماضية بطولها في مسراتهم مع الأهالي ، ولكن عندما سكنت المياه وهدأت الرياح ، وخف تلاطم الامواج تسلل الى سفينة القيادة شعور بالامان التام – اخطر الاوهام التي تراود ذهن البحارة – ، حتى ان الاميرال نفسه انسحب لينام للمرة الاولى خلال ثمانية وأربعين ساعة ، وسلم ماسك الدفة بدوره ذراع الدفة الكبير الى ولد صغير لينضم الى باقي افراد الحراسة في غفوتهم .

وتاماً ، عندما اعلن انتصاف الليل حلول عيد الميلاد ، كانت سانتا ماريا تستقر بلطف على حاجز صخور مرجانية حتى ان احداً لم يستيقظ على الصدمة الخفيفة . ولكن الصبي الذي كان يمسك الدفة صرخ عندما شعر بارتطامها بالارض فكان الاميرال اول من صعد الى ظهر السفينة وتبعه القبطان لاكوزا وجميع البحارة . ولما كانت مقدمة السفينة وحدها قد جنحت وجد كولبوس من الانسب ان يخلصها من المؤخرة وامر لاكوزا وطاقم زورق كامل بشد مرساة المؤخرة . وبدلاً من ان يطيعوا الاوامر جذفوا بزورقهم الى نينا حيث رفض القبطان فنسنت بنزون استقبالهم وارسل زورقاً من عنده للمساعدة . ولا نعلم اذا كانت نينا اكثر حذراً اثناء مرورها في ذات الاتجاه ، من سفينة القيادة ام لا ، غير انها تخطت الصخور المتشعبة بسلام .

وبسبب جبن لاكوزا او لعدم طاعته ، ضاعت ساعة ثمينة من الزمن كانت كافية للقضاء على سانتا ماريا . فقد كان تلاطم الامواج تحتها يقذف بها اكثر فأكثر فوق الصخور المتشعبة بينما كانت رؤوس الصخور المرجانية الحادة تسبب لها الثقوب في قعرها ، وفيما كانت الميابه تملأ هيكل السفينة امر كولبوس

بالجلاء عنها على امل ان يتمكن من تعويمها في ضوء النهار ، مستعيناً بحركة المد والجزر وان كانت لا تزيد عن البضع بوصات .

وفي الصباح عمل غواكنغاري ورعاياه يجد مع الاسبان لانقاذ السفينة ، ولكن سبق السيف العذل . وكان كل ما استطاعوا انتشاله منها كما ورد في سجلات الاميرال ، المعدات والمؤن والبضائع التي كانوا يحملونها للمتاجرة . وتولى الهنود حراستها دون ان يختلسوا منها ولو بمقدار رأس ابرة .

حاول كولبوس بايمانه القوي بالعناية الالهية ان يحدد معنى هذه الحادثة الغريبة بل المفجعة ! وسرعان ما وجد الجواب . وقرر توأ ان الله شاء له ولبحارة سانتا ماريا ان يشرعوا ببناء مستعمرة في تلك النقطة . وتوسل اليه غواكنغاري ان يفعل ذلك اذ كان بحاجة لقوة النار لصدا أعدائه المنتشرين في جميع ارجاء الجزيرة . فتطوع الاسبان واحداً تلو الاخر بسبب الدلائل الكثيرة عن وجود الذهب بكميات كبيرة مما جعلهم يثقون بضمان مستقبلهم . وهكذا أصدر كولبوس اوامره للشروع ببناء قلعة محصنة بالقرب من الشاطئ سماها « فيلادي لا نافيدا » (مدينة عيد الميلاد) تكريماً ليوم الكارثة ، التي ظن باعتزاز انها انقلبت في صالحه .

وشيدت نافيداد بسرعة فائقة ، وكانت اول محاولة يقوم بها الاوروبيون لتوطيد اقدامهم في العالم الجديد منذ رحلات رجال الشمال الاولى ، والمعروف ان موقعها كان على اللسان الرمي الذي يدعى الآن ليموناد بور - دي - مار - وبقربه مرسى مناسب للسفن وقد بنيت القلعة في معظمها من حطام سانتا ماريا الحشي . وقد ترك الاميرال هناك حوالي ٣٩ بحاراً معظمهم من سفينة القيادة وبعضهم من نينا للعمل تحت قيادة صديقه ديجو دي هارانا القرطبي كما منحهم قسماً كبيراً من المؤن ، ومعظم البضائع التجارية مع زورق سانتا ماريا ، وقبل عودته زودهم بالارشادات اللازمة لارتياح البلاد الداخلية سعياً للعثور على مكان ثابت للاستيطان ، ومقايضة بضائعهم بالذهب كما أمرهم بان يعاملوا الاهالي برفق . تأكد كولبوس الآن انه وجد جزر الهند . ولربما كانت اسبانيولا غير

اليابان إلا انها كانت جزيرة عظيمة وغنية بالقرب من البر الصيني وفيها شعب قابل للتنصير والاستغلال . وأصبح لديه الآن حلى من الذهب كافية لاقتناع اكثر الناس تشاؤماً بان ارضاً مليئة بالتبر والمال والرخاء قد اكتشفت .

وفي اليوم التالي لعيد رأس سنة ١٤٩٣ اقام غواكنغاري وكولمبوس حفلة وداع اطلقت فيها نينا مدافعها على ما تبقى من هيكل سانتا ماريا للتأثير على الهنود ، وأقام رئيس القبيلة وليمة لجميع البحارة ، وبعد ان عبر الجميع عن شعورهم بالحب المتبادل والتقدير افترق الحلفاء الجدد بعد ان تعانقوا بحرارة ، وصعد كولمبوس الى ظهر السفينة نينا ليعود عليها الى الوطن ، وبرفقة السفينة بنتا اذا تمكن من العثور عليها ، وإلا فانه سيعود بمفرده . وبعد فترة انتظار هبوب ريح ملائمة وعودة البحارة الذين طالت اجازتهم على الشاطئ اقلعت نينا في الرابع من كانون الثاني مبتدئة رحلة العودة الى الوطن .

الفصل الثامن

رحلة العودة

عزم كولمبوس عندما غادر نافيداد على ان يهيئ طريقاً توصله رأساً الى اسبانيا خشية ان يسبقه بنزون اليها بالاخبار الطيبة . ولكنه شاهد بنتا بعد يومين ، مبحرة مع الريح في الاتجاه الآخر . وفي ذلك المساء صعد مارتين الونسو قبطان بنتا الى ظهر السفينة نينا وقدم لكولمبوس بياناً معقولاً ومقنعاً عن اعماله خلال الاسابيع الثلاثة الماضية . وذكر انه زار جزيرة ايناغوا العظيمة ووجد ان حكاية البحث عن الذهب على ضوء الشمعة مجرد خرافة فأبحر بعدئذ على طول شاطئ اسبانيولا ورسى في بورتو بلانكو . وهناك توغلت زمرة من رجاله داخل سيبا وعثرت على كميات كبيرة من الذهب . وقال بنزون انه علم يحنوح سفينة القيادة بالقرب من الكروم الهندية وعزم على العودة لمساعدة الاميرال . رغب كولمبوس بالعفو عما مضى بالنظر الى الاخبار السارة عن الذهب ، كما سره وجود من يرافقه في رحلة العودة ، إذ ان احداً في تلك الفترة ما كان ليجر بدون حراسة لو استطاع تأمينها .

وبينما كانوا بانتظار هبوب الرياح المعتدلة للدوران حول شبه جزيرة مونت كريستي التي كانوا يرسون خلفها ، ارتاد كولمبوس الطريق السفلي لجزيرة

« ريوبا كوديل نورث » ووجد كتلاً من الذهب بحجم حبة العدس . وكانت نسوة المنطقة يشتغلن بكد لاجراجه وكلما توفر لديهن ملء انبوبة كبيرة اخذنه الى البلدة لشراء حاجاتهن به . هذا ، وما زال الذهب موجوداً في وادي ذلك النهر حتى يومنا هذا !

تابعت بنتا ونينا رحلة العودة في منتصف ليلة الثامن من كانون الثاني ، وفيما كانتا تمخران المياه على طول شاطئ اسبانيولا اشرفنا على ميناء بورتوبلاتا — وهو الاسم الذي اطلقه كولمبوس على الجزيرة بسبب الغيوم الفضية التي تغطي الجبال — ورست السفينتان بالقرب من مدخل خليج سامانا حيث ارتأت الولايات المتحدة مؤخراً ان تبني قاعدة بحرية . وهناك وفي المكان الذي لا زال يدعى « بوينت اوف اروز » أي رؤوس السهام — قابل الأهالي المسلحون بالقوس والنشاب الاسبانيين لأول مرة وبدوا غير راغبين باستقبالهم . وكانت هؤلاء الهنود بطناً آخر من قبيلة التينو يعرفون باسم سيغوايو ، اعتادوا امتشاق اسلحتهم ليظلوا على اهبة الاستعداد للدفاع عن انفسهم بسبب الغزوات المتكررة التي كانوا يتعرضون لها من قبائل الكريبيين في بورتوريكو . وحدث ، بعد ان قبض الاسبانيون على احد افراد قبيلة سيغوايو وأعادوه الى الشاطئ بعد ان عاملوه بالحسنى وحملوه تشكيلة من القماش الأحمر والحلي ، ان هدا روع الآخرين وتوصل الطرفان الى اقامة متاجرة حذرة نوعاً ما ولكنها نشيطة . كما اقتنع فرد أو اثنان منهم بالانضمام الى زمرة الهنود المسافرين الى اسبانيا .

وقبل بزوغ فجر يوم الاربعاء الموافق ١٦ كانون ثاني بساعات ثلاث اجرت السفينتان من خليج سامانا . وكان امام الاسبان رحلة قاسية ، ومشكلة صعبة جداً في الملاحة ، إذ كانت رحلة العودة هذه اعظم تجربة لاختبار شجاعة كولمبوس وكفاءته البحرية وقدرته على قيادة الرجال بقدر يفوق جميع ما اختبره حتى الآن . وهكذا كان على الأميرال ، الذي كان يقفل صدره على اعظم اكتشاف جغرافي بكل الازمان ، مدركاً ان احداً لن يستفيد منه إلا اذا وصل به سالماً ، ان يصارع عناصر الطبيعة وضعف الانسان كما لم يحدث من قبل

أو من بعد .

عزم كولبوس قبل الاتجاه الى الوطن رأساً ، ان يتحقق من أمر الخرافة الامازونية التي نقلها افراد قبيلة التينو بخصوص جزيرة ماتينينو المعروفة الآن بجزيرة مارتينيك . فقد اخبره افراد التينوبان هذه الجزيرة كان يسكنها نساء الكريب اللواتي كن يقبلن زيارة الذكور هن مرة في السنة ، ثم يتخلصن منهم حالما ينجزون ما كانوا قد اتوا من اجله ! وربما كان منشأ الخرافة ان نساء الكريب كن يحاربن الى جانب الرجال ، أو وحدهن في غياب الرجال .

ولم يكن الفضول هو الذي اثار اهتمام كولبوس ، بل رغبته يجمع شواهد اكثر عن الشرق ، لا سيما وأن ماركو بولو كان قد نشر قصة طويلة عن « جزر الذكور والاناث » في المحيط الهندي ، وأخيراً لأنها أي الجزيرة كانت مرسومة على كرة بهيم^(١) ! ولكن زيارة الجزيرة ألغيت عندما هبت الريح الغربية - وهو امر نادر الحدوث في مثل ذلك المكان والفصل - فاعتقد الاميرال ان الفرصة اثن من ان يفوتها وقرر الابحار رأساً الى اسبانيا ولكن سرعان ما خمدت الريح الغربية وعادت الرياح الموسمية الشرقية تهب من جديد مما ساعد السفينتين على الانطلاق بأقصى ما تستطيعان وهما مائلتان الى اقصى الجانب الايمن . وبوسع السفن الشراعية الحديثة ان تميل الى اربع خانات باتفاق الريح (اي ٤٥ درجة) ، اما اذا كانت من السفن السريعة ، فانها تستطيع اكثر من ذلك في المياه الهادئة . اما نينا وبنتا فكانتا تستطيعان الميل الى خمس خانات (٥٦ درجة) اذا كان البحر هادئاً ، أما في الحالات العادية فلم يكن بوسعها الانحراف اكثر من ست خانات (٦٧ ١/٢ درجة) لا سيما ان بنتا كانت بطيئة فوق الريح نظراً لبروز شراع مؤخرتها . وكان هذا يعني عملياً انه اذا هبت الريح من الجهة الجنوبية الشرقية ، استطاعت السفينتان السير في الاتجاه الشرقي - الشمالي الشرقي . وكانت افضل وجهة للبحار الى اسبانيا بمساعدة الرياح هي وجهة - شمالية - شمالية شرقية ، ولكن اذا تغيرت الريح

(١) العالم الجغرافي الآنف الذكر .

الى شمالية شرقية كما يحدث غالباً اثناء هبوب الرياح الموسمية ، فعلى الاميرال ان يدير الاشرعة الى الجهة اليسرى ويسير في الاتجاه الشرقي - الجنوبي الشرقي .

تابعت بنتا ونينا مسيرهما خلال ما تبقى من كانون ثاني في اتجاه ثابت نحو الشمال مع الانحراف التدريجي نحو اسبانيا . وعندما اصبحتا قرب الحدود الشمالية لمنطقة الرياح الموسمية هدأ البحر وشاءت العناية الالهية ان يتغير الريح التي حملتهم عبر خطوط عرض الحصان كما اعتاد البحارة ان يسموا البقعة الهادئة بين خطي العرض ٣٠ - ٣٣ شمالاً . وبالرغم من خبرتهم الضئيلة في السير مع النسيم اللطيف عبر خليج تخضبت مياهه بمروج من الاعشاب المتماوجة ، فقد نجحوا بعبور بحر « سارجاسو » فيما كان القمر بدرأ . وكان المنظر جميلاً حقاً للعين والاذن على السواء خصوصاً عندما كان يحل صوت حفيف الاعشاب المنبعث من ملامستها جوانب السفينة محل الصوت المنبثق عن ارتطام الامواج . واستخدم كولبوس افضل الطرق الفنية البحرية للوصول بسرعة الى وطنه دون سابق معرفة بها . ولو انه حاول الابحار رأساً الى اسبانيا (كما فعل في رحلته العودة الثالثة عام ١٤٩٦) لكان عليه ان يستمر بالسير ضد الريح معظم الطريق الا ان هذه الخطوة الطويلة شمالاً قد اوصلته الى خط العرض الذي تقع عليه جزيرة بومودا حيث الامواج الهائجة والرياح الغربية العاتية .

وفي آخر يوم من كانون ثاني تبدلت الرياح الى غربية ، وبعد اربعة ايام قدر الاميرال من مجرد النظر بالعين المجردة الى نجمة الشمال انه بلغ الدرجة ٢٧ شمالاً من خط عرض (رأس سانت فينسنت ، بينما كان بالحقيقة على خط عرض جبل طارق) فعين الاتجاه رأساً الى الشرق وكان هذا الاتجاه بسبب انحراف البوصلة يبلغ حوالي ٨٠ درجة ، وهو الاتجاه الصحيح للوصول الى جزر الازور . وانقلب الطقس الان الى البرودة مع هبوب عاصفة جديدة ، انطلقت فيها السفينتان بمعدل ١٥٠ ميلاً في اليوم لمدة اربعة ايام متتالية ووصلت هذه السرعة احياناً الى ٢٠٠ ميل تقريباً في اليوم الواحد ، وفي بعض الفترات وصلت سرعتها الى ١١ عقدة في الساعة .

عندما تصل اليوم سرعة اي يخت شراعي بطول بنتا او نينا حدود الاحدى عشر او الاثنتا عشرة عقدة في الساعة ، يصبح الحدث موضوعاً يستحق الذكر ، لذلك فان ما لا يمكن انكاره هو ان السفينتين اندفعتا بأعلى معدل للسرعة وبمساعدة رياح عاتية فوق مياه عميقة زرقاء متوجة بزبد الامواج البيضاء . وهكذا ظلنا تسرعان خلال الايام المشرقة بأشعة الشمس والليالي الوضاءة بنور كوكبه الجبار والاجرام الفلكية الاخرى وكأنها ترشدها الى الطريق المؤدية الى الوطن . والواقع ان من العسير على اي بحار ان يشفق على كولبوس فقد نعم بالرغم من نكباته الاخيرة بطقس رائع للسفر في جميع رحلاته تقريباً . ومع ذلك تعرض لتجارب عسيرة جداً كانت اسوأها على وشك الحدوث .

سكنت العاصفة الهوجاء الغربية مع هبوط ليلة السابع من شباط ، وتعرضت السفينتان لامواج متعارضة خفيفة مدة يومين سجلتا خلالها القليل من التقدم . ولكنها استطاعتا في التاسع من شباط ان تعدلا وجهتهما الى الشرق . وفي اليوم التالي تباحث المرشدون والربابنة مع بعضهم من على ظهري السفينتين لمعرفة مركزهم . واعتقد كل واحد منهم ، بما في ذلك كولبوس ، انهم كانوا ابعد بكثير الى الجنوب مما كانوا عليه حقاً ، وقرر الجميع عدا كولبوس انهم كانوا في دائرة جزر الازور الشرقية ، لكن كولبوس قدر بالضبط بأنهم وصلوا جنوبي جزر الفلورس وعزم على ان يعرج على احدى جزر الازور ، اذا تمكن من ذلك !

لكنه كاد يفشل بالوصول اليها اذ كانت السفينتان تبحران في منطقة يعمها طقس رديء في شتاء بارد صاخب من اسوأ ما سجله التاريخ ، شتاء تحطمت فيه مئات السفن ، وتجمدت المياه في ميناء جنوى كما ظلت السفن عدة أشهر ، قابعة في ميناء لشبونة لا تستطيع حراكاً . وكان يحتاج منطقة شمالي جزر الازور وافدة واسعة من ضغط منخفض جداً مصحوبة باعصار جامع كان يهب باتجاه جنوبي غربي بسرعة تتراوح بين ٤٧ - ٦٣ ميلاً في الساعة ، وكان على السفينتين ان تعبرا ثلاث جهات من الطقس .

وما ان حان اليوم الثاني عشر من شباط حتى صارت نينا تترنح متثاقلة امام الريح بعد ان تجردت صواربها من الاشرعة . ثم اعتدلت الريح قليلا في الصباح التالي ثم اشتدت بعض الشيء وسارت نينا في يَمّ متلاطم عابس . وطال أمد تعارض الرياح واصطدامها كما حدث في الاعصار المعروف باسم « ادنا » عام ١٩٥٤ ، والذي كان ما يزال يزجر في الوقت الذي كنت منكبا فيه على الكتابة . وقد ادى هذا الى تقارب الرياح المتعاكسة بعضها من البعض الآخر . وبدأت مياه البحر المتلاطمة تشكل امواجاً هرمية خفيفة راحت تتكسر على طول السفينتين من المقدمة حتى المؤخرة . وخفت صابورة نينا بسبب نفاذ المؤن في عنابرهما واخذت وقد نشر شراعها الامامي وتدلّى شراع الوسط ، تسير في اتجاه شمالي شرقي بينا راح كولبوس والقبطان فينسنت بنزون يتناوبان الحراسة على ظهرها لمراقبة الأمواج وانذار ماسك الدفة الذي كان يقف في مكان منخفض عن الظهر . وكانت أقل هفوة من احدهما كافية لان تشك السفينة في لجة المياه ثم تنقلب وتغرق . والاسوأ من ذلك ان بنتا لم تكن لتستطيع انقاذ الاحياء من بحارة نينا في مثل ذلك البحر المجنون .

وفي ليلة ١٣ - ١٤ من شباط ضاعت السفينتان وابتعدت الواحدة عن الأخرى ولم تلتقيا ثانية الا بعد ان وصلتا الميناء في اسبانيا . والحقيقة انها كادتا ان لا تصلا ابداً . وليس لدينا سجل يدلنا كيف سارت بنتا . أما نينا فقد فقدت بحارتها كل امل بالخلاص في يوم عيد القديس فلانتين . واجروا القرعة مع ضباطهم ثلاث مرات لتعيين شخص يحج الى مزار مشهور اذا هم نجوا ، ولكن زئير الريح كان يزداد ويعلو . واخيرا تعهدوا بأن يسيروا في موكب حافل بقمصانهم الى مزار للعدراء يقابلونه ، وعندئذ أخذت الريح تحمد . واعترف كولبوس فيما بعد بأنه شعر بالخوف مثل أي شخص آخر على السفينة . وفي ذروة العاصفة ، وخشية ان تتحطم السفينتان ويهلك الجميع ، دفع اليأس بكولبوس ان يكتب على قطعة من الجلد خلاصة ما احتواه دفتره اليومي عن الرحلة ولف الرقعة المكتوبة بقطعة من القماش المشمع ثم وضعها في برميل من

الخشب ألقى به من على ظهر السفينة في البحر على أمل ان يعثر عليها احد ويقرأ
القصة الحقيقية عن اكتشافه . ولم يتوصل أحد للكشف عن البرميل ، ولكن
الحكايات الملفقة عن « دفتر الاميرال السري » ما زالت تباع حتى يومنا هذا
للسذج من هواة جمع الاشياء النادرة .

وبعد شروق شمس الخامس عشر من شباط بقليل ، شوهدت اماماً صورة
باهتة عن اليايسة . وقدر كولبوس انها احدى جزر الازور ، ولكنه لم يدر
أية واحدة منها . ومع ان الرياح أخذت تهب شرقاً الا ان اياماً ثلاثة مضت
قبل ان استطاعت نينا الوصول الى هذه الجزيرة والرسو فيها . وأرسل الاميرال
زورقه الى الشاطئ مؤكداً انها جزيرة سانتا ماريا الواقعة في أقصى جنوبي
جزر الأزور . ورست السفينة بالقرب من قرية تدعى « نوسا سينورادوانجوس »
فيها كنيسة صغيرة كرست للعدراء التي كانت قد ظهرت لأحد الصيادين المحليين
محاطة بالملائكة . لذا اعتبرت انجوس ملائمة لتأدية الصلاة ومكاناً مناسباً للنوتية
ليحققوا فيه نذرهم الذي تعهدوا بايفائه في ذروة العاصفة .

وهناك وقع ما يبدو بالنسبة لجرى الاحداث السابقة أعظم حادث مضحك
خلال الرحلة الاولى بأسرها . فها هنا رجال على وشك اذاعة اعظم وأهم نبأ
منذ سقوط الامبراطورية الرومانية – نبأ اكتشاف كفيل بان يغمر اوروبا
والاوروبين بفوائد جمة لم يسبق لها مثيل . ومع ذلك ، كيف كان استقبال
اهالي أنجوس الاول لهم ؟ كان البحارة يؤدون صلاتهم في الكنيسة الصغيرة
بقمصانهم فقط دلالة الخشوع وإذا بسكان البلدة يهاجمونهم ويزجون بنصفهم في
السجن ! لقد اشتبه حاكم الجزيرة البرتغالي بانهم كانوا يقومون برحلة ممنوعة الى
افريقيا الغربية ، فاندفع بقاربه الى نينا بقصد القاء القبض على كولبوس والبحارة
الآخرين الذين ظلوا على ظهر السفينة على أمل ان يوفوا نذورهم فيما بعد ! ولكن
الاميرال رفض ان يستقبله وهدد باطلاق النار على المدينة والاستيلاء على رهائن
منها اذا لم يطلق سراح رجاله فوراً ، وقبل ان يجيب الحاكم هبت عاصفة اخرى
قطعت حبال نينا وقذفت بها الى مقربة من سانت ميغيل ثم اعادتها الى حيث

كانت . ومن حسن الطالع انها عادت ، إذ لم يكن على ظهرها سوى ثلاثة
بجارة وزمرة الهنود لمساعدة الأميرال والربان على ادارتها . وأقدم الحاكم
البرتغالي، في الوقت التي رجعت فيه نينا على تسليم البحارة وتزويدهم بما يحتاجونه
من المؤن الجديدة وذلك بعد ان عذبهم وفشل باكتشاف اي دليل عن عزمهم على
سرقة محفوظات ملكية .

وهكذا استأنف كولبوس رحلة العودة في الرابع والعشرين من شباط
وكانت المسافة التي تفصله عن رأس سانت فينسنت حيث اراد الوصول ، لا
تزيد عن ٨٠٠ ميل ولا تستغرق اكثر من اسبوع في الرياح الشمالية المعتدلة .
ولكن هذا الجزء من الاقيانوس يعرف بكثرة الجفاف الضاغط فيه مما يسبب
المتاعب للبحارة الذين تنقصهم الخبرة ، لا سيما وقد كان شتاء عام ١٤٩٣ مزعجاً
فوق العادة . وهكذا باغتت نينا عاصفة ثانية حملتها حوالي ٢٥٠ ميلاً بعيداً عن
جزيرة سانتا ماريا وواكبها طوال الطريق . كما ان زوبعتين اثنتين كانتا تتحركان
ببطء نحو الشرق ، واستغرقتا ستة ايام حتى تخطتها بعد ان سببتا لها ضربات
اسوأ مما سببتها لها العاصفة التي هبت غربي جزر الازور .

وبدأت المتاعب في السادس والعشرين من شباط . إذ انقلبت الرياح الى الجهة
الجنوبية الشرقية مرغمة نينا على تغيير وجهة سيرها الى الاتجاه الشرقي - الشمالي
الشرقي . وكتب كولبوس اثناء ذلك يقول : « من المفجع ان يتعرض الرجال
لمثل هذه العاصفة بينما هم في عشية الوصول الى الوطن » ، واتفق الرياح والبحر في
اليوم التالي ، وظلت السفينتان تدفعان بعيداً عن وجهة سيرهما لثلاثة ايام
أخرى . وفي ليلة الثاني من آذار لطمت مقدمة زوبعة دوارة حارة السفينة نينا
ثم تحولت الرياح الى جنوبية غربية واستطاعت نينا ان تسير في اتجاهها الصحيح ،
ولكنها عادت وبوغتت في الليلة ذاتها برياح باردة مصحوبة بعاصفة هوجاء مزقت
الشراع الامامي وطيرت شراعي المقدمة والمؤخرة الملفوفين من مكانها ومزقتها
إرباً خلال لحظات .

وهكذا فعل كولبوس الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الا وهو متابعة

السير تحت الصواري العارية . وكانت نينا تنحدر وترتفع وتتدحرج بشكل خفيف في خضم بحر هائج كما ان الريح انقلبت من جديد في الثالث من آذار الى شمالية غربية . وكان هذا بمثابة « لطمة المؤخرة » للأعصار وكما حدث في الأعصار الذي هب على نيو انجلند في اميركا في ١١ أيلول عام ١٩٥٤ ، كانت لطمة المؤخرة اسوأ من لطمة المقدمة . واستبد القلق في النفوس فيما كان مساء ذلك الشتاء القاتم يدخل في ظلمة الليل . وكان كولمبوس وباقي المرشدين يعرفون تمام المعرفة انهم يبحرون باتجاه شاطئ البرتغال المحاصر بالصخور وان اعجوبة فقط تستطيع ان تمنع انسحاقهم بالارتطام على صخور الشاطئ .

وعندما غابت الشمس بعد السادسة بقليل وقعت الواقعة وبدأ البرق يلمع فوق رؤوسهم والأمواج الهائلة تتكسر على ظهر السفينة من جانبيها الاثنان ، وكانت الريح شديدة حتى بدا وكأنها « سترفع السفينة في الجو » . ومن حسن الحظ ان القمر كان كاملاً في تلك الليلة فكان يبعث بأضواء خافتة من بين الغيوم . وهكذا تمكنوا من رؤية اليابسة المائلة أمامهم على بعد خمسة أميال تقريباً ، وفي الحال قام كولمبوس بالمناورة الخطرة المعروفة لدى كل بحار قديم وهي الانقضاء على الشاطئ من تحت الريح . كان الشاطئ يمتد من الشمال الى الجنوب والريح شمالية غربية . ورفع البحارة شراعاً مربعاً صغيراً على المقدمة ، كان مدخراً في الصندوق ، واستداروا في بحر مزبد ورمموا للسفينة وجهة سير جنوبية على موازاة الشاطئ .

ولا عجب اذا أصبحت نينا سفينة الاميرال المحببة بعد ثباتها لكل ذلك اللطم وتجاوبها مع هذه المناورة الصعبة دون ان تصاب ولو بثقب واحد .

تحقق كولمبوس لدى بزوغ فجر الرابع من آذار من رؤية رأس روكا الشهير البارز في المحيط من بين جبال سينترا شمالي مدخل نهر تاغوس . وعندما رأى الاميرال ان الدمار الكلي على قيد خطوة منه اختار الدخول الى تاغوس ثم التعرّيج على لشبونة لاجراء الترميم اللازم لسفينته بدلاً من محاولة متابعة السير حول رأس سانت فينسنت الى اسبانيا . وكان يعرف تمام المعرفة بانه إذ يضع

نفسه تحت سلطة الملك يوحنا الثاني يعرض نفسه لمسؤولية خطيرة لا سيما وان الملك القاسي كان قد خيب آماله مرتين، ولكن دوافعه (كانت حسب الترتيب التالي) : ان يبعث أولاً بنحبر اكتشافه الى اسبانيا وان ينقذ بحارته والسفينة ثانياً .

وهكذا دارت نينا حول رأس روكا بعد الغروب ، واجتازت « كاسكيس » حيث ذهل الصيادون من رؤية مثل هذه السفينة الصغيرة تقترب قادمة من البحر ثم تعبر حاجز الدخان القريب من مصب النهر ، وفي الساعة التاسعة تقريباً ، ترسو في بيلم مرفأ لشبونة الخارجي .

غمر البحارة شعور غريب بالراحة والأمان عندما رست السفينة بسلام في مرفأ امين بعد المشقات الطويلة التي تعرضوا لها في عرض البحر . ولكن كان لا يزال امام الاميرال وبحارته المنهكين الكثير من المنغصات ! ذلك ان نينا كانت بحاجة الى اعادة تجهيزها قبل متابعة السفر الى اسبانيا . ثم هل يسمح الملك يوحنا بذلك ؟ ثم ماذا حدث لبيتنا ؟

لم تكن نظرات البرتغاليين الاولى مشجعة . وكانت هناك سفينة حربية كبيرة راسية بالقرب من نينا بقيادة بارثولميودياس ، مكتشف رأس الرجاء الصالح ، وكان ربانها ضابطاً معروفاً في سلاح البحرية الملكية . وبعد فترة قصيرة حضر دياس في زورق مسلح وأمر القائد كولمبوس بالصعود الى ظهر السفينة الحربية لأعطاء الايضاحات اللازمة عن نفسه . ورفض كولمبوس متمسكاً بشرف لقبه كأمرال المحيط . ولكنه كشف عن اوراق اعتماده الرسمية التي رضي بها كل من دياس ومرافقه الربان اللذين صعدا الى ظهر نينا بزيارة مجاملة وسط دقات الطبول وأصوات الأبواق والمزامير وعرضاً تقديم المؤن وأية بضاعة يحتاج اليها الاميرال . كان كولمبوس خلال ذلك قد بعث برسالة الى الملك يوحنا يطلب فيها منه ان يسمح له بالدخول الى مرفأ لشبونة ، وفي الثامن من اذار حمل اليه أحد النبلاء الجواب الذي كان يتضمن بالاضافة الى موافقة الملك على طلبه . أمراً بتموين نينا بكل ما تحتاج اليه بلا مقابل ودعوة رسمية للاميرال لزيارته في

مقره الريفي . ومع ان تلبية دعوة الملك كانت ستؤخره ، ورغم انه كان يخشى ان تغتاز الملكة ايزابيلا من زيارته للملك البرتغال قبل المثل امامها ، كما حدث فعلاً ، قرر كولبوس بأن من الأفضل له قبول الدعوة . وهكذا ، اختار كولبوس اثنين او ثلاثة من اتباعه وبعض الاصحاء من أسراه الهنود ونزل الى شاطئ لشبونة حيث استأجر قافلة من البغال حملته وأتباعه الى مقر الملك . مساكين أولئك الهنود اذ كان عليهم بعد اللطم العنيف الذي تعرضوا له في عرض البحر ان يتحملوا مشاق الركوب على ظهور البغال فوق طرق البرتغال الضيقة الموحلة ! واستغرقت الرحلة يومين لقطع مسافة الواحد والثلاثين ميلاً المؤدية الى دير سانتاماريا دي فرتود حيث كان يقيم الملك آنذاك .

استقبل الملك يوحنا الثاني كولبوس بحفاوة بالغة غير متوقعة ، ولكن مؤرخو البلاط يخبروننا ان الملك غضب قليلاً من كولبوس بسبب اخباره التي بدت كقصة طويلة كما شك في ان تكون الاكتشافات الجديدة قد حصلت في مناطق تتمتع فيها البرتغال بحقوق الأولوية . وقيل ان الندماء ألحوا على الملك بالفتك سرّاً بهذا المتعجرف حديث النعمة (بنفس الطريقة التي تخلص بها من صهره المزعج) ولكن الملك لحسن الحظ رفض ذلك . كما اعترف ان ضيوفه الهنود يختلفون عن جميع الأفريقيين الذين رأهم او سمع عنهم . حتى ان اثنين من الهنود أثرا عليه كثيراً لرسمهم خارطة تقريبية عن جزر الانتيل بحبوب الفاصوليا فاقتنع الملك بقصة كولبوس وقرع على صدره صارخاً « آه لماذا تركت مثل هذه الفرصة المدهشة تفلت من يدي » !

والحقيقة ان هؤلاء الهنود كانوا جغرافيين ممتازين . فقد سبق وقالوا لكولبوس كما روى في كتابه عن رحلته الاولى ، ان جزيرة تدعى ماتينينو كانت أقرب جزر بحر الكريب الى اسبانيا وتليها جزيرة شاريس . الأمر الذي يقارب الحقيقة كثيراً كما أن الاميرال ، كما تبين لنا ، اتجه في رحلته الثانية مباشرة الى تلك الزاوية الاستراتيجية من جزر الانتيل الصغرى .

غادر كولبوس وحاشيته البلاط في الحادي عشر من آذار بجراحة موكب

من الفرسان وقاموا بدورة لزيارة ملكة البرتغال في دير القديس انطونيو دي كاستينيرا . وكان الاميرال قد تألم كثيراً من الركوب على ظهر البغل فتراك الموكب في الهاندرا الواقعة على نهر تاغوس واستأجر من هناك زورقاً حملاً عبر النهر الى نينا ، التي كانت قد جهزت اثناء غيابه بعدة جديدة من الاشرعة والحبال كما نقلت الى ظهرها كمية من المؤن الطازجة والخطب والماء وبرميل من النبيذ بدون شك . وهكذا أصبحت الآن جاهزة لقطع الخطوة الاخيرة من الرحلة ثم صعد جميع بحارتها الى ظهرها ، وفي صباح الثالث عشر من آذار رفعت السفينة الصغيرة الشجاعة مرساتها من مرفأ لشبونة .

ومن غريب ما حدث أن بنتا كانت تسير في أثرها بعيدة عن النظر ولكن على مسافة قريبة خلفها . وكانت بنتا قد اخفقت بالوصول الى جزر الازور ، وهكذا كتب لها ان لا تتعرض لآخر واسوء العواصف التي اجتاحت نينا وجرفتها ، وهكذا وصلت الى مرفأ بايونا القريب من فيجو شمالي اسبانيا في اواخر شباط . وحاول مارتين الونسو بنزون الذي اشتبه كولبوس بأنه يسعى لان يسبقه بنقل خبر الاكتشاف الى الوطن ، ان يفعل هذا حقاً فبعث بخطاب عبر اسبانيا الى الملك فرديناند والملكة ايزابيلا في برشلونة يعلمها فيه عن وصوله ويطلب الاذن له بالمثل امامها ليخبرها عن الرحلة . ولكن العاهلين ردا عليه بانها يفضلان سماع الاخبار من فم كولبوس . عندئذ أبحرت بنتا من مرفأ بايونا متجهة الى بالوس .

وفي فجر الرابع عشر من آذار دارت نينا حول رأس سانت فينسنت ومرت بقرب الشاطئ الذي سبق لكولبوس ان التجأ اليه سباحة بعد صراعه مع الامواج قبل سبعة عشر عاماً مضت . وفي ظهيرة الخامس عشر من آذار عبرت حاجز الريو سالتيز فوق تيار جارف وألقت مرساتها بالقرب من بالوس .

ودخلت بنتا على نفس التيار ولكن منظر نينا التي كانت ترسو ساكنة كما لو انها كانت قد وصلت الى الوطن منذ شهر ، قضى على مارتين الونسو بنزون ! كان مارتين اكبر سناً من كولبوس وقد امضته متاعب الرحلة ومشقاتها وزاد

صد الملك والملكة له من غمه ويأسه فأضحى لا يستطيع تحمل أكثر من ذلك ، وهكذا غادر بنتا الى بيته الريفي القريب من بالوس ، وهناك آوى الى فراشه حيث قضى نحبه قبل مضي شهر على عودته .

وهكذا انتهت أعظم رحلة كاملة في التاريخ بعد مضي ٢٢٤ يوماً من بدايتها . وفيما يلي آخر ما كتبه عنها كولبوس في دفتره اليومي :

« ان ملاحظاتي عن هذه الرحلة هي ان قدرة الله قد تجلت من خلال المعجزات الكثيرة التي أظهرها تعالى إبانها ، وفيما يتعلق بي شخصياً انا الذي قضيت فترة طويلة من الزمن في بلاط جلاتكم محاطاً بالمعارضة ورغم اراء شخصيات رفيعة الشأن من حاشيتكم الذين كانوا جميعاً ضدي زاعمين ان هذا المشروع كان من وحي الجنون ، لذلك ارجو ان يكون ، بمشيئة الرب ، من أسباب عظمة المسيحية ومجدها الذي تحقق فعلاً الى درجة ما . »

وهكذا كان كولبوس حتى في لحظات انتصاراته وبعد ما توجت العناية الالهية صبره ومثابرته وسرعة ادراكه ومعرفته البحرية بالنجاح ، لا يستطيع الا الرد على تعنيف الاغبياء والمتشائمين ورجال العلم الذين سخروا منه او شككوا في قدرته . ان على كل رائد علم او معرفة ان يكابد كثيراً ويتحمل كثيراً قبل ان يستطيع ابراز افكاره الى حيز الوجود . واذا صدف وكان خالي الوفاض لا يستطيع فعل شيء بدون المال ، فعليه ان يتوقع الاستخفاف والتعرض للسخرية والخداع والوقاحة والمباهاة وجميع انواع المعارضة ! ولكن عندما يحصل في النهاية على ما يريد وينجح ، فانه حسناً يفعل اذ يلوذ بالصمت عن مثل هذه الامور بل يجدر به ان يهنئ اولئك الذين شكوا في قدرته بسبب المساعدة التي فشلوا في تقديمها له . ولكن كولبوس لم يتعلم ان يفعل شيئاً مثل هذا أبداً وكان من الصعب عليه ان يكتب رسالة أو تقريراً واحداً دون حشوه بالتعابير المشينة بحق الذين كانوا يغمطون قدرته مما دفعهم لتحقيره والخط من كرامته بدلاً من تكريمه وتقديم يد العون اليه !

الفصل التاسع

ساعة النصر

كان كولبوس قد ارسل تقريره الرسمي عن رحلته (وهو التقرير المشهور باسم رسالة الى سانتنجيل) او (كتاب كولبوس) من لشبونة الى برشلونة برأ وخشية ان يضيع او ان يصادره الملك يوحنا الثاني ، بعث بصورة اخرى عنه الى العاهلين مع رسول رسمي ونسخة ثالثة الى بلدية قرطاجنة حيث كانت تقيم عشيقته بياتريز مترقبة عودته مع ابنها فرديناند البالغ من العمر خمسة اعوام . وديجو البالغ ثلاثة عشرة عاماً . وقبل متابعة سيره الى اشبيلية حيث تريت بانتظار استلام الجواب ، اوفى نذوره في كنيسة سانتا ماريا دي لاسنتا في هويلفا وسانتا كلارا دي موغار بالقرب من بالوس (التي اخذ اسم نينا منها) كما قضى اسبوعين مع فراي جون بريز واصدقائه الآخرين المقيمين في لارايدا . وفي يوم الاحد الواقع في ٣١ آذار ، دخل اشبيلية في ذروة الاحتفالات باسبوع الآلام المقدسة واشترك فيها . وفي احد الفصح الواقع في ٧ نيسان او بعد ذلك بقليل طفح كأس سعادته إذ وافاه كتاب من فرديناند وايزابيلا معنون الى « الدون كريستوفر كولون اميرال البحر المحيط وحاكم جزر الهند التي اكتشفها ونائب الملك فيها » وكانت هذه هي الألقاب ذاتها التي وعدها بها اذا تمكن من الوصول الى تلك الجزر .. وكان وصفه بها دليلاً على ان العاهلين الاسبانيين قد

صدقا بأنه احسن صنعا ، كما عبرا عن سرورهما بما انجز من الأعمال وأمره بالمشول الى البلاط ، وأضاف الأمر الملكي قائلا : « ولما كنا نرغب في ان يكون ما ابتدأتم به بعون الله مستمرا ومتزايدا فقد صدرت الاوامر لاتخاذ الترتيبات اللازمة للقيام برحلة ثانية فوراً » .

حقاً انها لكلمات حلوة ، وسرعان ما نظم كولبوس مسودة تقرير للعاهلين عن كيفية وجوب استعمار اسبانيولا . وهناك في يومياته شطحات قلم تثبت انه كان يفكر بهذا الامر خلال الاشهر الاخيرة وكانت النتيجة انه عدل فكرته عن مراكز التجارة التي كان يهدف اليها يوم بدأ رحلته الاولى، واقترح الآن ان يصار الى جمع حد اعلى من المستعمرين لا يتجاوز الفي شخص يطلب منهم القيام ببناء البيوت لبلدة محددة المعالم ، مقابل الترخيص لهم بتعاطي تجارة الذهب مع السكان الوطنيين في الداخل ، وكان على كل واحد منهم حسب هذا المشروع ، ان يعود الى بلده في اوقات معينة ويسلم ما عنده من الذهب بقصد صهره ، الى موظف يطرح من قيمته رسم الخمس لحساب الملك ورسم العشر لحساب الاميرال ورسم آخر للكنيسة . واقترح ايضا ضرورة تحديد موسم يحرم فيه السعي وراء الذهب يقوم فيه المستعمرون بزراعة الارض وجني محاصيلها كما اقترح ابعاد الاجانب واليهود والملحدين والهرطقة عن جزر الهند ، أما الكهنة فكان من الضرورة ارسال العديد منهم لتلك الجزر لهداية أهلها .

ومن الواضح ان كولبوس قد لاحظ نتيجة احتكاكه بقبائل التينوان حاجات تلك القبائل قليلة سهلة التأمين فلم يكن يتوقع منهم التوافد الى الشاطئ لبيع ذهبهم كما كان مواطنو افريقيا يفعلون ، وربما كان على الاسبانيين ان يعملوا داخل اراضي اسبانيولا وان يزوروا جزراً اخرى لأعمال التجارة . إلا انه كان يتطلب من كل مستعمر ان يراجع شركة التجارة على الساحل وان تقتصر المواصلات عبر المحيط من والى قادس ، لتأمين الرقابة على الرسوم المالية .

وبعد ان ارسل تقريره هذا مع رسول رسمي ابتاع الاميرال ثيابا تليق برتبته

الجديدة وشكل موكباً من نفسه وبعض ضباطه وبعض الخدم الذين استأجرهم لهذه الغاية وستة من الهنود المتعبين من السفر وقد لبسوا زيهم الوطني الكامل المصنوع من الريش بالدرجة الاولى مع عظام السمك والحلي الذهبية ، وكانوا يحملون ببغاوات داخل أقفاص . طار خبر هذا الموكب فتوافد كل من استطاع مشاهدته ، واثارت رؤية أولئك الرجال وسحنهم الغربية دهشة الناس إذ لم يكن لهم بها عهد في رجال أوروبا . وبعد ان اجتاز موكب كولبوس بلاد الاندلس الجميلة دخل قرطبة حيث اقام له مجلس البلدة استقبلاً حافلاً ، وهناك التقى بعشيقته وضم اليه ولديه . وحوالي العشرين من نيسان وصل هذا الموكب الى برشلونة حيث هبت المدينة والبلاط الملكي بأسره لاستقبال الرجل العظيم !

بلغ كولبوس ذروة المجد الآن ، وعندما دخل قاعة العرش حيث عقد البلاط الملكي جلسة خاصة وهو يسير بقامته المديدة وشعره الابيض ، وبشرته المهيبة التي لوحتها اشعة الشمس طوال ثمانية اشهر في البحر ، بدا رائعاً بما حمل علماء البلاط على مقارنته باحد شيوخ روما .

ولما تقدم من العرش الملكي حيث جلس العاهل فرديناند وزوجته ايزابيلا ليقدم ولاءه نهضاً عن عرشها احتراماً ، واذ جثا على ركبتيه ليقبل يديها رجواه النهوض والجلوس الى يمين الملكة . ثم تقدم الهنود وعرضوا على مرأى من الجميع كما فحصت الزخارف الذهبية وعينات البهارات التي قيل انها من النوع النادر ، وأخذت الاسئلة تنهال كالسيل على كولبوس ورفاقه الذين ردوا عليها بالتفصيل . ثم انصرف الجميع الى كنيسة الكازار حيث رنموا صلاة الشكر . وعندما وصلت الترنيمة الى السطر الأخير القائل « الهى لقد اتكلت عليك فلا تتركني في حيرة من امري » لوحظت الدموع تنهمر بغزارة فوق وجنتي الاميرال !

كان باستطاعة كولبوس في تلك اللحظة ان ينال كل ما يصبو اليه : لقباً رفيعاً وقلعة في اسبانيا وراتباً تقاعدياً لمدى الحياة او وقفاً يجري عليه خيره . ربما كان من الخير له آئذ لو رضي بذلك الظفر وأخلد الى الراحة متوجهاً بالشرف والكرامة تاركاً للغير مهام التعمير والاستيطان الا انه لم يكن من تلك

الجبلة من الرجال ، ولو انه كان كذلك لما اكتشف اميركا . كان لا بد له من ان يرى الجزر التي اكتشفها تعمر ، وتجارة الذهب تزدهر وتتظم والاهلين يتنصرون . وكان يريد ان يتصل بالخان الاعظم أو بأحد ملوك الشرق العظام ممن هم اعظم من غواكنغاري ... وشعر بأن الحقوق التي منحها بالاضافة الى مهام منصبه كنائب ملك وأميرال البحر تحمل في طياتها (كما بدا له) شيئاً أكثر ربحاً وفائدة مما لو أعطي أي عقار في اسبانيا . زد على ذلك انه كان يتمتع بصحة جيدة ويفور نشاطاً وفي ربيع عمره (٤١ عاماً) وكان يرى ان المهمة التي اختارها الله لها ما تzáلى في بدايتها . ويتضح شعوره برسالته المقدسة هذه من توقيعها اللاتيني الاغريقي الذي اختاره لنفسه آنذاك ، والذي لا نجد له تفسيراً الآن . فحيثما وقع كان يكتب حرف *X* (ولعله عني بها حرف *Chi* اليوناني ووضع عليه حرف *S* يعلوها حرف *M* وفوقها حرف *S* وفوق ذلك وضع *Y* متوجاً بحرف *S* اليوناني محتفظاً بالوقت ذاته بالنسب بين الخطوط والنقاط . وها كم الطريقة التي كان يقع بها :

U. S.A.S X.M.Y :Xpo Ferens

لقد قامت محاولات عديدة لحل هذا اللغز واعتقادي الشخصي ان الأحرف الاولى ترمز الى عبارة لاتينية معناها :

« انني خدام المخلص الاعلى ، المسيح ابن مريم » ، والسطر الاخير يشكل صورة لاتينية يونانية من اسمه مؤكداً دوره كحاميل لمشعل المسيحية الى البلاد التي لم تعرف المسيح ! وحتى في اوامره القصيرة ومذكراته التي بقيت سليمة الى الآن كان يقع كما يلي : Xpo Ferens

حضر كولمبوس حفلات البلاط ومناسبات عيد العنصرة ... وأحد الثالوث وعيد الجسد (القربان) الا انه يرجح ان تكون حفلة عماد الهنود الستة هي اكثر ما شاقه منها ، وفي تلك الحفلة قبل كل من الملك والملكة والطفل دون جوان ان يكونوا آباء في الروح لهؤلاء المعمدين الجدد وقد سمي اكبرهم قدراً وهو قريب غواكنغاري ، فرديناند الاراغوني ، وسمي هندي آخر بدون جوان

القاشتيلى ، اما الترجمان البارع بينهم فقد سموه : دون ديحو . وقد بقي دون جوان في خدمة بلاط الملك الى ان مات بعد عامين من تعميده ، اما الخمسة الآخرون فقد عادوا مع الاميرال الى العالم الجديد .

وإذا كانت حفلات التعميد هذه قد عبرت عن نوايا الملك الطيبة ، ولدرجة ما عن نوايا كولمبوس الحسنة تجاه الهنود فما لا تحمد معرفته ان تعلم ان التنصير والمعاملة المسيحية في الجزر الهندية لم ينجحاً بالتغلب على الشهوة والطمع وظل الجشع الانساني مسيطرأ الى ان شبع . وفي غضون نصف قرن ايبد تقريباً كل افراد شعب التاينو . وقد يقال ان التاينويين قد انتقموا بالمقابل لانفسهم من الاوروبيين وان هذا الانتقام لا زال يأخذ مجراه حتى اليوم وذلك بما جلبوا معهم لاسبانيا ، ولو عن حسن نية ، من جراثيم السفلس (مرض الزهري) التي كانت عالقة بدمائهم ، وظهر اول وباء للزهري في اوروبا عام ١٤٩٤ اذ انتشر بين جنود الجيش الفرنسي الذي زحف على نابولي وارتد عنها ، وكان الاسقف كاساس المعجب بكولمبوس وصديق الهنود والذي قضى شطراً كبيراً من حياته وهو يحاول عبثاً حمايتهم من استغلال الآخرين قد أكد بشكل جازم في كتابه « نبذ تاريخية » الذي صدر حوالي عام ١٥٣٠ ان هذا المرض انتقل الى جنود الجيش الفرنسي من نساء اسبانيات أصبن به من الهنود الذين جلبهم كولمبوس معه الى برشلونة . وأضاف انه اقتنع بعيد الاستفسار مرات عديدة من المواطنين في اسبانيولا ان هذا المرض كان معروفاً من القديم في العالم الجديد وكان متفشياً منذ زمن طويل حتى ان الاهالي اعتادوا عليه بدون كبير ضرر . . أما الاوروبيون فقد نالهم منه أكبر ضرر إذ أصابهم بأبشع الصور واشدها هولا ورعباً ، وادى الى الكثير من الوفيات ، تماماً كما فعل الجدري والحصباء بالهنود حينما نقلها اليهم الاوروبيون . ومهما يكن هذا القول موضع جدل كبير يبدو لي ان ما قاله لاس كاساس هو الصحيح إذ ان ملاحى الباخرة نينالم يكونوا مصابين بالزهري اثناء عودتهم بل ظلوا جميعاً بصحة جيدة واستطاعوا ان يصلوا ببaxterهم الى الشاطئ ، ولاحظ كولمبوس نفسه هذا

الامر وأبدى دهشته اكثر من مرة لاحتفاظ جميع تجارته بصحة جيدة خلال الرحلة كلها . ولقد قال لي الراسخون في الطب انه ليس بوسع انسان ان يصاب بالزهري ان يقوم برحلة شاقة تستغرق شهرين من الزمن دون ان يستبد به الداء بشكل يقعه عن العمل !

هذا وليس لدينا تقرير صحيح مشابه عن السفينة بنتا إلا ان جراحاً اسبانياً اسمه روي ديازدي إسلا ... ذكر في كتاب طبع عام ١٥٣٩ انه فيما عدا الوباء الذي انتشر في برشلونة ، فان بحاراً من بالوس اسمه بنزون اصيب بالداء وعالجه هو بنفسه . ومما يجدر ذكره ان ما لا يقل عن ثلاثة من آل بنزون كانوا على السفينة « بنتا » وان قبطانها مارتين الونسومات بعد وقت قصير من وصولها . ومن المحتمل جداً ان يكون اولئك الهنود الذين اتى بهم كولبوس الى برشلونة قد لقوا حفاوة بالغة من نساء المدينة فاصبن بجراثيم المرض التي تجري في دماء جميع مواطني اسبانيولا ، وان تكون بعض تلك النسوة قد نقلن الداء بدورهن الى بعض المتطوعين الاسبان في جيش تشارلز الثامن او أنهم رافقن الجيش أثناء تنقلاته .

ومع ان كولبوس اقام عدة اسابيع في برشلونة الا أنه لم يكن يرتع في أشعة الابهة الملكية او يسلخ وقته في عشرة الاشراف وكبار رجال الكهنوت فحسب ، بل كانت مصالحه الشخصية اول ما يسعى لتحقيقه . ومنحته الارادة الملكية الصادرة بكتب رسمية شعاراً خاصاً وهبه امتيازاً فريداً بأن يقيم في قلعة قشتالة الملكية وقلعة الأسد في مدينة ليون ومجموعة من الجزر ومراسي خمس ، بالاضافة الى شعار الاميرالية !

كما ثبتت الان جميع الحقوق والامتيازات المشروطة التي كان قد منحها في غرناطة في شهر نيسان السابق ، فأصبح هو وورثته من بعده والى الابد يحملون لقب اميرال البحر المحيط والحاكم العام ونائب الملك في الجزر المذكورة وفي داخل البلاد التي اكتشفها . وبوصفه نائباً للملك كان بإمكانه ان يعين كافة الموظفين في جزر الهند ويقيلمهم ، وان يمارس بحقهم كافة السلطات المدنية

والجزائية بدون استثناء . زد على ذلك انه كان ، بوصفه أميرال المحيط يملك السلطة على كل من البحر في المحيط غرباً وجنوباً من خط وهمي يمتد من جزر الازور الى رأس فيردى . وكانت السلطة الاميرالية تعني ان له ولاقربائه ووكلائه الحق في معالجة أي خلاف بين الصيادين أو البحارة التجار في المياه الاميركية وان ينظر في كافة قضايا العصيان والتمرد في البحر واعمال القرصنة وما شابه ذلك !

ولم يكن لأحد آنذاك أدنى فكرة عما ستؤول اليه عائلة كولبوس من الثراء فيما لو روعيت تلك الامتيازات كلها حرفياً . فكلما الملك والمكتشف كانا ينويان اقامة مركز تجاري في مجموعة جزر تبعد قليلاً عن شاطئ الصين . حتى ولو تم غرضها فان كولبوس كان سيصبح خلال عشرين عاماً أحد كبار الاثرياء في اوروبا . ولكن الذي حدث هو ان فرديناند وايزابيلا شرعا دون أي احترام لوعودهما في نقض امتيازاته ولما يكن قد جنى منها الشيء الكثير بعد !

هذا بالاضافة الى ان كولبوس كان يعمل للعاملين الى جانب عمله لنفسه . وكان تقريره عن رحلته (وهو التقرير المعروف عادة باسم رسالة كولبوس) قد طبع في كراسة بالحبر من اربع صفحات في برشلونة قبل أو بعد وصوله اليها بقليل ، ووصلت صورة عن هذا الكراس الى روما قبل الثامن عشر من شهر نيسان وظهرت منها ترجمة باللغة اللاتينية مؤرخة في ٢٩ نيسان . ولم تكن الغاية من هذه النشرة السريعة اذاعة خبر الاكتشاف بل الحصول على التأكيد البابوي لهذا الاكتشاف الجديد عملاً بأحكام القوانين العامة المرعية في اوروبا آنذاك اذ كان يترتب على كولبوس ان يبرهن ان ما اكتشفه من الاراضي يقع خارج نطاق البراءة الممنوحة سابقاً الى ملك البرتغال . وعليه فقد سمح البابا الكسندر السادس لفرديناند وايزابيلا (وكان اسبانياً مديناً لهما بانتخابه للكرسي الرسولي) بأن « يبلغاما يصبوان اليه » في سلسلة من البلاغات البابوية ، التي كان اهمها البلاغ الثالث المؤرخ في ١٤ ايار عام ١٤٩٣ والذي رسم خطأ فاصلاً للحدود بموازاة خط الزوال الشمسي ، يبعد ١٣٠ فرسخاً غربي الازور .

واكد ان أية ارض غير مكتشفة شرقي هذا الخط تدخل في ملكية البرتغال اما ما يقع الى الغرب منه فيعود لاسبانيا !

ومما لا شك فيه ان كولمبوس هو الذي اقترح هذا الخط الفاصل اعتقاداً منه ان البوصلة كانت تتغير من الشرق الى الغرب وان الرياح العاصفة في اوربا تختفي هناك لتحل محلها الرياح الموسمية الناعمة على طول ذلك الخط الهاجري أو بقربه . اما الأسقف كاساس ... فقد رأى في هذا الخط الفاصل « حِداً للحشرات » ايضاً فقد لاحظ أن البحارة والمسافرين بجرأً من اسبانيا يتعرضون لمضايقة البراغيث والقمل ، الى ان يصبحوا على بعد مائة فرسخ غربي الأזור حيث تأخذ تلك الحشرات بالاختفاء ، ولكنها ما تلبث اثناء العودة ، ان تبرز من مخابئها في أسراب هائلة . وقد وصفت هذه الاسطورة حياة الحشرات بأنها تختفي عند خط الاستواء ، ولا شك ان قراء كتاب دون كيشوت يذكرون كيف ان فارس « المحيا الحزين » في تلك السفرة المشهورة في القارب المسحور... امر سانشو بانزا أن يفتش نفسه بحثاً عن الحشرات والديدان لكي يتأكد ما اذا كانوا قد تجاوزوا الخط الفاصل بين نشاط الحشرات واختفائها . ومع هذا فان ذلك الخط الفاصل الذي أقامه البابا بقي دون تنفيذ اذ احتجت البرتغال ولما كانت عداوة جون الثامن لفرديناند وايزابيلا وحروبه معها مما يهدد طرق مواصلاتها مع جزر الهند الغربية فانها قبلت في معاهدة تورديسيلاس عام ١٤٩٤ بأن يبعد الخط الفاصل بما يعادل ٣٧٠ فرسخاً غرباً أي الى بعد ١١٧٥ ميلاً غربي رأس جزر فيردي . ومن ذلك التقسيم الجديد للعالم استمدت البرتغال حقوقها باستملاك البرازيل والادعاء بملكية نيو فاوند لاند (الارض الجديدة) .

وخلال الاشهر الثلاثة التي قضاها كولمبوس في برشلونة كانت اخبار اكتشافاته تنتشر بواسطة رسل من الطليان المقيمين في اسبانيا وبواسطة الكتاب المطبوع الذي كانت ترجمته اللاتينية قد طبعت ثلاث مرات في روما عام ١٤٩٣ ، وسبعة عشر مرة اخرى في روما وباريس وانتورب قبل اوائل عام ١٥٠٠ ، اما الى ما وراء جبال الالب فكانت الاخبار تنتقل بطيئة جداً ، ذلك ان العلماء

في نورمبرغ وهي البلدة التي كانت تعد مركز العلوم الجغرافية في اوروبا الشمالية، كانوا حتى عام ١٤٩٣ يجهلون ما حدث ، وكذلك الاخ بارثوليميو المقيم في احدى ضواحي باريس لم يبلغه النبأ في الوقت المناسب ليلتحق بالاميرال في رحلته الثانية. واعتماداً على ما تذكره الرسائل وسجلات التاريخ نجد ان أهم ما أثار الانتباه من اخبار الرحلة كان الذهب وسكان الجزر العراة وفرصة التبشير بالدين المسيحي . وقد أكد كولبوس هذه النقاط الثلاث في رسالته المطبوعة كما أشار ايضاً الى أهمية افتتاح طريق تجاري جديد الى الصين وكذلك الى المناظر الخلابة والمناخ الهاديء في الجزر التي اكتشفها . إلا أن أحداً لم يهتم بمثل هذه الأمور إذ كانت اوروبا حينذاك تفتقر كثيراً الى المسكوكات والنقود بحيث أن اكتشاف أي مصدر جديد للذهب كان يثير اهتمام الرأي العام قاطبة ... تماماً كما يحدث اليوم ! وكانت الازياء في عام ١٤٩٣ تتطلب من المرأة ان تتدثر بالثياب من أعلى الرأس حتى أخمص القدم فكيف إذا اناك من يقول ان هنالك مجتمعاً يرتدي افراده غلالة رقيقة شبيهة بلباس الحمام البكيني عوضاً عن اللباس الكامل؟! خل عنك ما في هذا الخبر من الاشارة الى حالة الطهر التي كان رافلا بها جدنا آدم قبل سقوطه !

ولما كانت اوروبا تعاني تأنيب الضمير لتركها المسيحية تتقهقر أمام الأتراك فان هذه الفرصة الجديدة لهدي النفوس واجتذابها لتعاليم المسيحية وبالتالي اصلاح ما اعوج من توازن ، كل هذا أثار الآمال العراض . أما عن حقيقة أهمية الاكتشاف بالنسبة لمستقبل اوروبا فلم نجد من علق على ذلك آنذاك بقليل او بكثير !!

كما ولم يجرؤ أحد على القول أن نبوءة سينكا عن وجود قارة شاسعة قد تحققت !

ولو افترضنا وجود صحافة شعبية على الطراز الاميركي ، عام ١٤٩٣ لكنا .قرأنا خبر اكتشاف كولبوس على صفحات كبرى كصحف جنوى مكتوباً على الشكل الآتي :

« رجل جنوبي يشاهد مواطنين عراة ويعثر على الذهب في رمال النهر !
يا لها من ضربة كبرى لصالح ملك اسبانيا » .
« وصل كولمبوس ومراكبه الثلاثة الى الجزر الذهبية المخاذية للهند حيث
الرجال بدؤن سلاح والنساء طليقات من كل ثوب !

برشاونة ٢٠ آذار

سمع مراسلنا بقصة غريبة مفادها ان اكتشافاً رائعاً قد تم لحساب الملك.
قرديناند ذلك ان الربان كريستوفر كولمبوس ، الذي يقال انه جنوبي قد وصل.
الى جزر جديدة مجاورة للهند بعد ان أبحر ٣٣ يوماً في عرض البحر ابتداء من
جزر الكناري ، في اسطول يضم ثلاث سفن شراعية .

وتفيد التقارير الواردة عن الطقس هناك ان الشتاء في تلك الجزر يشبه
الضيف . وان السكان الوطنيين يختلفون عن سكان افريقيا وانهم لا يزالون في
حالة بدائية فالرجال لا يلبسون شيئاً سوى ريش الطيور ليحلوا بها شعورهم ،
والحلى الذهبية على سواعدهم وسيقانهم . اما النساء فلا يعرفن الخجل ولا
يتسترن بشيء سوى اوراق الشجر الرقيقة . وقد استقبل المسيحيون هنالك
وكأنهم آلهة هبطت عليهم من السماء فأكرموا وفادهم في جزيرتهم التي تزيد
مساحتها على مساحة اسبانيا كثيراً ، كما يقول كولمبوس وكذلك قدموا لهم كل
ما احتاجوا اليه . وليس لدى هؤلاء السكان كهنة أو محامون ، وهم لا يدينون
بدين أو يهتدون بقاتون ، وسلاحهم الوحيد حراب من الخشب أما قواربهم
فمصنوعة من شجرة واحدة تحمل ما بين ٧٠ الى ٨٠ رجلاً .

اما عن الانهر في تلك الجزيرة فحدّث عنها ولا حرج. إذ هي ملاء بالذهب ،
كما يؤكد القبطان الذي أمّ أشبيلية على ان يعود قريباً الى تلك الجزيرة ، النبأ
الذي أذاعته غرفة التجارة المحلية . ويرفض مكتب الصحافة الملكية تأكيد
هذا الخبر أو نفيه !

ولما سئل روفائيل ج . سانشز امين وزارة المالية عن رأيه في الموضوع.

قال انها لأخبار طيبة ان صحت ، فهي تبرر الثقة الهامة في الادارة كما يمكن اعتبارها نصراً في حربنا الباردة مع الاتراك . اما المحترم جوزيه فاغارتيز ، المدعي العام في اسبانيا فقد صرح بما يلي :

انه أمر طيب شريطة ألا تتسلل اليها افكار شرقية هدامة ! وكان لازماً على القبطان كولون ان يأخذ موافقتي قبل جلب هؤلاء الهنود اليها وسأتولى التحقيق معهم حالما يصلون . اما الدكتور ستيفين غوميز ، استاذ الجغرافيا المشهور في جامعة سلمنكة فقد عبّر عن شكه حينما بلغه الخبر وقال انه عرف السيد كولون منذ اعوام عديدة ويعتبره مدعياً محتملاً فنجزر الهند لا يمكن الوصول اليها في ثلاثة وثلاثين يوماً . ويقال ان طلاب الاستاذ الآنف الذكر ازدروا به بعد ان أفضى بهذا التصريح ! ومع ذلك فهناك أشخاص كثيرون يرون ان هذه القصة صحيحة وقد أعدت حفلة استقبال رائعة في قاعة البلاط للقبطان كولون بانتظار وصوله الى برشلونة !

هذا وبعد ان بحث مراسلنا في كتب الدليل القديمة في المدينة تمكن من ان يعرف شخصية المكتشف فهو كريستوفر كولبوس ابن دومينيكو كولبو من سكان هذه المدينة . اما الأب لويشي وهو معلم سابق للمكتشف فقد راجع سجلات المدرسة بحضور مراسلنا وقال انه لا يزال يذكر كولبوس الذي كان تلميذاً طيباً يواظب على القيام بواجباته الدينية ، الا انه فشل في الحصول على الشهادة نظراً لضعف معلوماته في الجغرافية ! أما والد مواطننا فهو حائك صوف متقاعد عن العمل يقيم الآن في حي القديس يوحنا . ولما اتصلنا به في بيته قال « انني لا أجد أي غرابة في الامر ذلك ان ابني كان دوماً فتى لا يبالي بشيء سوى النساء والذهب . ولقد قلت عنه انه لا يصلح لشيء بعد ان ترك جنوى ويتم شطر البحر » !

أما تأكيد كولبوس بأنه وصل جزر الهند فعلاً فقد صدقه العاهلان الاسبانيان والبابا على علاته ، بينما لم يقبل به الكثيرون . أما بيترمارتير الأنفيرياني وهو عالم ايطالي يعمل في البلاط الاسباني فقد كتب الى احد المراسلين يقول ان

حجم كرة الارض يشير الى ان كولبوس ما كان ليستطيع ان يصل الى آسيا . ولكنه عاد في تشرين الثاني من عام ١٤٩٣ ووصف الاميرال ، في كتاب ارسله للكاردينال سفورزا بأنه « مكتشف العالم الجديد . وتشير رسائل لاحقة لمارتير ، انه قصد بالعالم الجديد مجموعة من الجزر ، لم يصفها بطليموس وتقنع بمحاذات ارض الذهب (شبه جزيرة الملايو) وكان هذا الاستنتاج هو عينه الذي توصل إليه كولبوس عام ١٤٩٨ والذي توصل اليه بعد ذلك بقليل – امير كو فيسبوتشي !:

الفصل العاشر

الرحلة الثانية الى اميركا

ما من رحلة أبداً باستثناء رحلة ماجلان ، يمكن ان تعدل رحلة كولمبوس الاولى بأهميتها وبما أثارته . ومع هذا فيجب ألا ننسى ان المكتشف قام برحلات ثلاث أخرى الى اميركا ، كانت كل منها كافية لأن تضعه في المرتبة الأولى بين ملاحي العالم . خصوصاً الرحلة الثانية الهائلة التي اصطحب فيها أعظم اسطول ، واكتشف اثناءها جزر الانتيل الصغرى وجميكا ، وبورتوريكو ، كما جاب ساحل كوبا الجنوبي وأتم أول عملية استيطان اوروبي دائم في العالم الجديد .

وقد أعدت الرحلة الثانية في قادس . ويقول توملنسون « انك في البحر عندما تكون في قادس ، اذ تسند مرفقيك الى سور المدينة البيضاء العائنة في زرقة المياه والشاخمة كل الشموخ في الفضاء . ووراءك الخليج الكبير الذي أحكت اغلاقه الاراضي المحيطة به وخارج أسوار المدينة التي يحكي بياضها بياض الأمواج المكسوة بالزبد في بحر أشرقت الشمس عليه ، يقع مرسى مفتوح حيث ترسو السفن عندما تكون الريح ملائمة . أما الميناء الداخلي الواقع وراء السد حيث رسونا عام ١٩٣٩ ، ونحن في « بعثة كولمبوس » من هارفرد ، فقد أنشئ بعد عهد كولمبوس بزمان طويل .

وبينما كان الامر سنة ١٤٩٢ يتطلب قوة اقناع فائقة لاغراء أي انسان ، ما عدا الأحداث والمغامرين ، بالاجار مع كولبوس ، وقع القائد هذه المرة في حيرة من أمره لكثرة المتطوعين إذ ان شهرته واماله الذهبية من جراء اكتشافه كانت قد بلغت أوجها فتشوق الوف الرجال والفتيان لمرافقته والحصول على الثروة !

وكان العاملان بعضدان اقتراحه بانشاء مستعمرة تجارية في اسبانيولا فمنحاه عملياً صلاحيات مطلقة فيما يختص باختيار الوسائل. وفي التاسع والعشرين من شهر ايار عام ١٤٩٣ ، اصدرت تعليماتها بذلك. ولما كان الهدف الاول للرحلة الثانية هداية السكان الاصليين لذلك وعين ستة كهنة في الاسطول لهذه الغاية ، وأنيط بالاميرال الاهتمام بوجود معاملة الهنود بحب وحنان . واذا كان ذلك الهدف حقاً ، فمن الغرابة ألا يعين كهنة أكثر عدداً واقتداراً ، اذ ان الستة الذين رافقوا الرحلة لم يتمكنوا خلال ثلاث سنوات كاملة من ان يهدوا هندياً واحداً ! وعلى كل حال ، كان عدد العلمانيين الذين جندوا من اجل الهدف الثاني المعلن عنه ، وهو انشاء مستعمرة تجارية ، يفوق عدد الكهنة بنسبة مائتين لواحد ! وكلف قائد الاسطول بالدرجة الثالثة ان يرتاد كوبا ويتأكد مما اذا كانت هي الارض الآسيوية المؤدية الى مدن كاتاي^(١) الذهبية ام لا ؟

واتبعت كل دولة استعمارية في اميركا طوال القرن السابع عشر ، هذه السابقة الاسبانية ، فكانت تصرخ بصوت مرتفع وتكرر القول ان غايتها الاولى هي هداية الهنود الى النصرانية ، وانني ادع الى علماء النفس الحكم فيما اذا كانت هذه الدول تعني ما تقول اصلاً ام انها كانت تقوم بهذه التظاهرة للحصول على مرضاة الله ! وقد نكل الجميع بهذا الوعد باستثناء الفرنسيين في كندا .

ومع ان كولبوس عين « قائداً عاماً لاسطول الارمادا » فان امر تنظيم

(١) اي بلاد الصين .

الاسطول قد عهد به الى صديقه « دون جوان دى فونيسكا » رئيس اساقفة اشبيلية ، ليتسنى للقائد العام ان يتم عمله الديبلوماسي في البلاط ، ويوفي بقية وعوده ونذوره التي تعهد بها في الرحلة الاولى . وفي شهر حزيران تحرك كولمبوس من برشلونة بصحبة الهنود الخمسة المتنصرين وشقيقه الصغير ديجو . وبعد ان مر بمدريد وطليلة سلك طريق الحججاج الى غوادلوب في جزر الاسترمدوره . واجتاز تروجيلو حيث كان الفتى فرنسيسكو بزاروا الذي فتح بيرو فيما بعد ، يرى آنذاك قطيعاً من الخنازير لحساب والده وهو ما يزال في الثالثة عشرة من عمره .

وفما كان كولمبوس يصلي بجمرة وخشوع امام تمثال العذراء في غوادلوب طلب اليه الرهبان ان يسمي احدى الجزر باسم مزارها . وفي طريقه الى اشبيلية مر في بلدة مدلين الصغيرة حيث يبدو ان ولداً صغيراً اسمه هرنان كورتيس^(١) قد شاهده وهو يخترق شوارع البلدة .

وفي اوائل شهر تموز بلغ كولمبوس قادس . وبهذا يكون فونيسكا ، حسب مقاييس ذلك العصر قد اجاد كل الاجادة في تنظيم هذه الرحلة التي كانت اعظم حملة استعمارية عبر البحار تسيرها دولة اوروبية . فقد اشترى او استأجر سبع عشرة سفينة شراعية زودها بما يكفي لرحلة تستغرق ستة أشهر ذهاباً واياباً ، وجند على الاقل ١٢٠٠ بحار وجندي ومستعمر وجمع البذور والنباتات والحيوانات الداجنة والأدوات والآلات اللازمة لانشاء مستعمرة ، واصدر العاهلان أوامرها لجميع موظفي الافندلس ليقدّموا لفونيسكا كل التسهيلات اللازمة لاقتناء المؤن بالاسعار القانونية وقد وصلت اليها حسابات تبين ما دفع لخمس وعشرين شخصاً مختلفاً من اهالي جزيرة جيريز باعوا الخنطة بمعدل ٧٣ مارافديس للبوشل الواحد أي حوالي ١٥ سنتاً بالعملة الذهبية . كما دفعت لأناس آخرين اجور طحنها وخبزها بقسماطا - والبقسماط هو المادة القاسية التي تشكل غذاء البحارة الاساسي حتى يومنا هذا تقريباً . وكانت الأبقار والخنازير تجمع وتذبح

(١) وهو مكتشف المكسيك فيما بعد .

وتكبس بماء الملح . بينما كان يجري شراء الخمرة بالمكايل الخاصة بها وتحفظ في دنان من خشب السنديان تستطيع تحمل السفر . وقد أظهر كولبوس تدمراً مشروعا من هذا الامر لأن الخمر كان يتسرب خارج عدد كبير من الدنان العتيقة مما جعل الاسبانيين في اسبانيولا يعانون صعوبة لا تصدق في الحصول على شراب غير الماء خلال شهور طويلة ! وكان من أظرف عناصر الحملة فرقة خيالة تتألف من عشرين رماحا باعوا خيولهم العربية الجميلة في قادس واشتروا عوضا عنها كدشا كثيبة المنظر وعاشوا عيشة بذخ من فرق الثمنين ، وقد نجحت هذه الكدش بنشر الذعر والهلح بين أهالي اسبانيولا .

ولا نعرف سوى اسماء بضعة سفن من بين سفن الاسطول السبع عشرة . وكانت اكبرها سفينة سميت « سانتا ماريا » باسم سفينة القيادة في الرحلة الأولى ، وكانت كبيرة عرفت بالبطولة ولقبت « بماريا غالانتي » أي بماريا الشجاعة . وكانت هناك سفينتان أخريان تعدان من فئة السفن الصالحة تدعى احدهما كولينا والاخرى لاغالينا . وكان هناك ما يقارب العشر سفن من ذوات الاشرعة المربعة ، لا نعرف منها سوى نينا الشجاعة ! ثم سفينتان شراعتان من ذوات الاشرعة المثلثة كما ضم الاسطول قوارب صغيرة استعملت لارتداد المياه القليلة النور .

اما من حيث الرجال ، فقد اتضح مجلاء غياب أفراد آل بنزون بينما اشترك في الحملة أربعة من أعضاء عائلة نينو من بلدة موغور وكانت أغلب البحارة ، شأنهم في الرحلة الأولى ، من المنطقة المجاورة لهويلفا . ولم يكن هناك نساء قط . وكان الجميع يتقاضون اجورهم بموجب مرسوم ملكي ما عدا مائتين من المتطوعين .

ومن المؤسف الا يكون قد بقي أي سجل او دفتر مذكرات عن هذه الرحلة ، ولكن لدينا تقارير مفصلة نظمها ثلاثة ممن أسهموا فيها وهم : الدكتور ديجو تشانكا جراح الاسطول ، ميشال دي كونييو من ساقونا قرب جنوى ، واحد اصدقاء كولبوس في حديثه وكذلك ملكيور مالدونادو وهو دبلوماسي.

اسباني سابق . الذي اعتمد الكاتب بيتر مارتير تقريره أساساً لكتابه « عقود العالم الجديد » . وفضلاً عن ذلك فقد روى كولمبوس لاندريه برنالدز ، المؤرخ الاسباني الذي ساكنه عند انتهاء الرحلة تفاصيل كثيرة دونها برنالدز في مؤلفه التاريخي .

وفي الخامس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٤٩٣ ، وكان يوماً خريفيًا مشرقاً ذا نسيم ساحلي لطيف ، أقلع « هذا الاسطول » المتحد الجميل كما كان يدعو كولمبوس ، من قادس وكانت كل سفينة ترفع راية قشتيلية^(١) الملكية على الصارية الرئيسية فوق مؤخرتها العالية . وقد زين كل ربان سفينته بأعلام العهد الزاهية الالوان كما مدت احزمة البحارة ما بين مقدمة السفن ومؤخرتها وعليها اسلحة المتطوعين بترتيب جميل . وواكب الاسطول حتى عرض البحر على انغام الابواق والقيثارات وطلقات المدافع اسطول من سفن التجديف التابع للبندقية الذي صادف وجوده آنذاك في الميناء .

وفي الثاني من تشرين الاول بلغ الاسطول جزيرة الكناري الكبرى ، وفي الخامس منه وصل الى غوميرا المدينة التي كانت تحكمها الدونا بياتريز دي بوباديللا . وكان كولمبوس خلال الرحلة السابقة قد تدله بحبها حسب رواية صديقه كونيو بيد أن استقبلها اسطوله بطلقات المدافع والنيران الموقدة قد لايعني شيئاً – أما اذا كانت الدونا بياتريز قد توقعت ان تمثل معه دور « سيرسي »^(٢) مع « يوليسس » فقد خاب املها لان كولمبوس لم يمكث سوى بضعة ايام قضى معظمها في تأمين المزيد من المؤن والمواشي لسفنه .

ولا ندري فيما اذا كان كولمبوس قد اسرع بالرحيل لان السيدة قد نبذته ، او انه خلف وراءه سيدة باكية تأبى ان تتعري ، أو ربما كان حبها قد خبا اواره . لسنا ندري !

وكان من الممكن ان تصبح الدونا بياتريز الزوجة الملائمة لصاحب العظمة....

(١) ملكة صغيرة كانت تقوم داخل اسبانيا وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي .

(٢) في اساطير هيروودنس ، ساحرة كانت تحول الرجال الى خنازير .

دون كريستوفر كولون ، اميرال اسطول المحيط المتجه الى الهند الآن وربما انها لم تشأ ، بوصفها ارملة شابة ذات خبرة ، ان يكون زواجها الثاني من بحار أيضاً ، وان تكون رغبت برجل مقيم يعنى بها وبولدها الصغير ! وحدث انها وجدت ذلك الزوج في شخص فاتح جزيرة كناري الكبرى وعاشت معه سعيدة هائلة !

لا يتفق مؤرخان على تحديد التاريخ الصحيح لموعد ابجار الاسطول من غوميرا . ولكن المعروف انه تحرك في موعد سكون الريح في جزر الكناري وأقلع نهائياً من جزيرة فيرو ، أما في ايام الذكرى الاولى لاكتشاف اميركا أو في الثالث عشر من تشرين الاول . وعين القائد اتجاه السير غرباً جنوباً ومع ان وجهته كانت نافيداد إلا انه لم يشأ ان يسلك طريق الرحلة الاولى ، بل اراد ان يختصر عبور المحيط ويقوم باكتشاف جديد في جزر الانتيل الصغرى . والجدير بالذكر ان الهنود كانوا قد افهموه ان ماتينينو (المارتنيك) جزيرة النساء الشهيرة ، هي اقرب الجزر الى اسبانيا وان شاريس (دومينيكا) تليها من جهة الشمال . وكان الاتجاه الغربي الجنوبي اذن هو الخط الصحيح من غوميرا الى المارتنيك . فكيف تمثل كولبوس هذا الاتجاه !. في الواقع انه بلغ الجزيرة التالية التي كانت الطريق اليها غرباً ونصف جنوب . وربما حدث ذلك لان بوصلة سفينة القيادة كانت قد ضبطت على نصف نقطة ابعد لجهة الشرق .

لم يكن عبور المحيط هذه المرة ذا حدث يذكر ، فيما عدا عاصفة رعديّة هبت ليلة عيد القديس سمعان (٢٦ تشرين الاول) ومزقت عدداً من الأشرعة وأشعلت نيراناً رهيبة على رؤوس الصواري والأعواد المثبتة في أعالي الأشرعة . أما فيما تبقى من الرحلة فقد كانت الريح ملائمة ، فقطعت السفن ٢٦٠٠ ميل بحري في فيرو الى دومينيكا في واحد وعشرين او اثنين وعشرين يوماً أي بمعدل ١٠ عقد في الساعة !

وينبغي ان يكون مثل هذا الابجار السهل قريباً جداً من حلم البحارة في الحياة الهائلة في عرض البحر . فالاقلاع قبل موعد الرياح الموسمية وفي سفينة

مربعة الأشرعة هو في نظر أي بحار في المحيط شيء سماوي أكثر منه شيء آخر، إذ تستقر حياتك على نمط تقليدي بهيج، لا تزعجك تقلبات الريح أو تغيرات الطقس. وأمامك بصورة مستديمة ، تمثيلية الألوان والاضواء على الأشرعة المربعة المنتفخة (فضية في ضياء القمر سوداء في ضوء النجوم، ذهبية عند الغروب، بيضاء كالسحب نفسها ظهراً ! وزرقة الماء الغامقة البديعة ، منقوشة بالأمواج المكسوة بالزبد الأبيض ، ولذة رؤية النجوم الجديدة الطالعة ، والبرق الفضي المنبعث من سرب الأسماك الطائرة الذي يقفز من بين طيات موجة المقدمة واللونان الفضي والاخضر تحدثهما جماعة الدلفين في وثباتها !

وكانت سبع عشرة سفينة تترافق في رحلة كولبوس هذه بحيث يمكن للناظر من سفينة القيادة ذات المؤخرة المرتفعة ان يرى أشرعة بيضاء تحيط بالافق من جميع الانحاء . وكانت السفن الأكثر سرعة تتقدم في كل يوم لعوبة مرحة ، وهي تتسابق حتى اذا ما أزف وقت الغروب ، ودنت ساعة انشاد « السالفي روجينا » تجمعت السفن حول « ماريا غلانتى » ! ولك ان تتصور المشهد وما كان يتطلبه هذا الالتفاف من مهارة في القيادة إذ كان القائد يلح بأن تكون كل سفينة على مسافة سماع النداء منه بحيث يستطيع ان يصدر كل مساء او امره وثنائه وتأنيبه . واذا ما أقبل الليل أضاءت كل سفينة مصباح مؤخرتها أو أوقدت حطباً يابساً ، أو خرقة ملوثة بالزيت في مشعل حديدي ، وطوال ساعات الظلام ، التي تهب فيها الريح الملائمة بقوة وثبات ، كان الجميع يحاولون المحافظة على مواقعهم المعينة ، كما هي الحال في قافلة عصرية . وكانت أصوات غلمان السفن تعلن كل نصف ساعة دوران الساعة الرحلية . وكان تبدل الحفريات في الحادية عشرة والثالثة والسابعة . وتاماً قبل نوبة خفر الصباح كان الكاهن يقيم ما كانوا يسمونه « قداساً جافاً » على ظهر سفينة القيادة حيث تتم جميع الطقوس عدا تكريس الخبز والخمر خشية ان يسبب تأرجح السفينة تسربها أو انسكابها على الارض . وعلى ظهور السفن الاخرى كان الرجال ينتظرون رفع كأس القربان المقدس ليركعوا ويرسموا إشارة الصليب ثم

ينشدون ترونية يتبعها اعلان اشارة تبديل الخقر . وعندئذ ينطلق بحارة كل سفينة نحو نشر الأشرعة للبدء في مسابقة السفن الأخرى خلال ساعات النهار .

وفي يوم عيد جميع القديسين ، وكان القائد واثقاً بأنه سيبلغ اليابسة بعد ٧٢ ساعة لذلك اصدر امراً باعطاء علاوة استثنائية من ماء الشرب ، وعند غروب الشمس في ٢ تشرين الثاني عرف ان اليابسة اصبحت قريبة ، شأن الملاح المحرب ، وذلك من تجمع الغيوم في الافق وتحليق الطيور . فأمر بتقصير الأشرعة تلك الليلة خشية الاصطدام باليابسة في الظلام – إذ لم يكن من المتوقع ان يظهر القمر إلا قبل الفجر بقليل . كان ذلك الليل ولا ريب مفعماً بالقلق . فكان يخيل للشبان انهم رأوا انواراً وسمعوا صوت تكسر الأمواج على البر ، وكان الادلاء يقومون بعملهم المعتاد في المياه العميقة وهم ينشدون « لا قعر » وكان الضباط في حالة توتر وتهيج . وفي الساعة الخامسة من صباح يوم الأحد المصادف ٣ تشرين الثاني ، وقبل ان يبدو في الشرق أول ضياء مادي خافت من أضواء الفجر ، لاحظ أحد مراقبي ماريا غالانتي شكلاً مخروطياً قائماً ضارباً على رقعة صغيرة من الافق المرصع بالنجوم فهتف : « المكافأة ! ها هي الأرض » وانتقل هتاف الأرض . . . الأرض « من سفينة الى أخرى واشتد اللغط والهياج فدعا القائد الجميع الى اقامة الصلاة على ظهور السفن حيث اخذوا بانشاد ترتيلة « سالفى » (الشكر) وترانيم أخرى . ورفع الحمد لله بنخشوع تام على هذه الرحلة القصيرة الآمنة !

الفصل الحادي عشر

ارتياح ساحل جزر الكريب

كانت الجزيرة الكبيرة العالية التي شاهدوها هي جزيرة دومينيكا كما سماها كولمبوس منذ ساعة نزوله الى البر نهار الأحد وما تزال تحمل هذا الاسم حتى اليوم . وكان الحدث المدهش في هذه الرحلة أن كولمبوس اصاب جزر الانتيل الصغرى تماماً في المكان الذي ظلت تحددته كافة تعاليم الملاحة خلال القرون الاربعة التي تلت ... وفي تلك النقطة بالذات يوجس ممر واضح بين الجزر لا تتخلله صخور متشعبة خطيرة ، فحالما تصبح داخل سلسلة الجزر تستطيع ان تشق بتوفر الرياح المعتدلة سواء كنت متجهاً الى فنزويلا او الى البر الاسباني - الاميريكي أو الى فيراكروز وجزر الكريب الغربية ، او الى جزائر ليوارد : بورتوريكو وسانتو دومينغو ، وكوبا . وقد استعملت الغواصات الألمانية هذا الممر في الحرب العالمية الثانية .

وفيما ازداد ضوء النهار في الثالث من تشرين ثاني اسرع الاسطول غرباً ، واكتشف جزيرة اخرى مستديرة مسطحة سماها كولمبوس سانتا ماريا غالانتي وفاء منه لسفينة القيادة . كما عثر أيضاً على مجموعة جزر سماها « تودوس لوس سانتوس » تكريماً لعيد جميع القديسين الذي كان قد انقضى لتوه . وما تزال

هذه الجزر تدعى ماريا غالانتي وليسانتي . ونظراً لجهل كولبوس بوجود موانئـ على الجانب الواقع باتجاه الريح من جزر الانتيل الصغرى اندفع يبحث عبثاً عن مخرج طول شاطئء دومينيكا الشرقي ، وأخيراً ألقى مراسي السفينة على الجانب المحجوب عن الريح من جزيرة .ماريا غالانتي . وهناك نزل الى الشاطئء في ظل العلم الاسباني واستولى عليها باسم اسبانيا بينما كان أمين سر الاسطول يسجل كل شيء بشكل قانوني صحيح .

وفي وضح النهار شوهدت جزيرة شاهقة على بعد بضعة فراسخ الى الجهة الغربية . ولما لم يعثروا في جزيرة ماريا غالانتي على أي شيء ذي قيمة او أهمية ، أمر كولبوس برفع المراسي واتجه حيث الجزيرة الجديدة الكبيرة التي تشبه الكلية في شكلها والتي سماها « سانتا ماريا دي غوادلوت » كما سبق ووعد . وتعتبر هذه الجزيرة الآن اقدم مستعمرة فرنسية ، وقد أصبحت فيما بعد منتجة للسكر وبلغت حداً من الاهمية جعلت البريطانيين يفكرون جددا عام ١٧٦٣ بمقايضتها بكندا ؟!

وحينما اقترب اسطول كولبوس من غوادلوب ، شاهد البحارة منظر شلالات المياه العالية الجميلة ينحيطها الفضية الرقيقة والتي بدت كأنها تتساقط من بين الغيوم المرتعة المعلقة فوق قمم الجبال ! ألقت السفن مراسيها جنوبي سفح بركان الجزيرة الذي يبلغ ارتفاعه خمسة آلاف قدم ، وذلك في خليج مأمون يدعى اليوم غراند انسي (الخليج الكبير) حيث مكثوا خمسة أو ستة ايام .

ولم يكن بنية كولبوس البقاء لأكثر من ليلة واحدة لولا أن ديجو ماركوس الذي ذهب على رأس فريق من البحارة الى الشاطئء ضل طريقه في الادغال . ولم يكن ذلك غريباً اذ كانت هذه أول غابة استوائية كثيفة الامطار يصادفها الاسبانيون . وكذلك لم يجرؤ الأميرال على تركهم ليعود ويلتقطهم فيما بعد فقد لا يجد عندها الا عظاماً بالية إذ كان السكان هنا اشنع أكلة لحوم البشر في مجموعة جزر الكريب . وأخيراً اهتدت احدى الفرق التفتيشية الأربع التي هبطت الى الشاطئء وكل منها يتألف من خمسين رجلاً ، الى ديجو ورجاله . وتعلم

الاسبان اثناء طوافهم وتفتيشهم مقداراً كبيراً من عادات وأساليب حياة أهالي الكريب ، ذلك الجنس البشري الذي اشتقت منه كلمة « كنبال » (أي أكلة لحوم البشر) ففي الأكواخ التي هجرها الاهالي عثر الاسبان على أطراف بشرية وبقايا قطع منتقاة من لحم الانسان مهترئة جزئياً ، وجدوا صبياناً مخصيين يجري تسمينهم لكي يصبحوا الوجبة الاساسية في الولائم والحفلات كما عثروا أيضاً على رهائن من البنات كن يستخدمن بقصد انتاج الأطفال لتوفير المقبلات قبل الطعام . وقد حمل الاسبان معهم ولدين واثني عشرة فتاة جميلة ممتلآت الجسم تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشر والسادسة عشر سنة !

وقد استخدمت تلك الفتيات وأفراد التينو الذين جرى أسرهم في غارة على اسبانيولا في عملية الترجمة ، ولأمر أخرى بدون شك ! وبعد جزيرة غوادلوب تتمتع الاسطول بسفرة مليئة بالمشاهد الخلابة فيما كانت الريح المحلية الصافية تهب على طول شواطئ جزر الانتيل الصغرى الواقعة تحت الريح . والواقع ان مياه تلك المنطقة توفر أجمل الرحلات البحرية الشتوية في العالم . فكل جزيرة تشكل بذاتها جبلاً عالياً يتراوح ارتفاعه بين الثلاثة والخمسة آلاف قدم عن سطح البحر الكريبي الذي تبدو مياهه العميقة على بعد مئات الياردات عن الشاطئ زرقاء بزرقة الياقوت الغامق ، بينما تختلف ألوان مياهه القليلة الغور بين اللون الزمردى المشمع واللون الذهبي الوضاء المائل الى الصفرة . وعند الفجر تبدو الجزيرة التالية كطيف غامض أو شبح مقيم يسبح في وجه خيمة السماء الزرقاء . ومع ازدياد الضوء ولدى الاقتراب بسرعة من الجزيرة ، تأخذ اليابسة بالاتضح شكلاً وجوهراً ولونا . وبوسع الانسان مشاهدة الشمس وهي تشعل قمم الجبال لهيباً بينما تتغير ألوان الغابات على السفوح من اللون الرمادي الى الأخضر وأخيراً الى زرقة أفصح من زرقة اليم بقليل . وعند الظهيرة تتجمع الرياح وتشكل غيوماً فوق كل جزيرة ، واذا تمكنت من اجتياز الشاطئ الواقع تحت الريح في هذا الوقت شعرت بالهدوء يغمر نفسك في ظل المرتفعات ، وذلك ما حصل لكولمبوس في غوادلوب ! ثم يصبح سطح البحر متواجاً كالمرآة ، عاكساً

ألوان اليابسة ولا تعكسها سوى فرار الاسماك الطائرة ووثبات الدرافيل . ولكن الهدوء لا يدوم طويلاً ، اذ تهب الرياح فجأة فتغادر الجزيرة متراجعا لتحملق فيها مأخوذاً اذ تهطل زخات المطر بقوة على السفوح المشجرة وتنقلب الغيوم الى ألوان برتقالية مع أفول الشمس . واذا كان الأفق الغربي صافياً بعثت الشمس ، وهي تغيب وراء الأفق ، ومضات زمردية مشعة من طيفها .

وكان كولبوس متعلقاً بالعذراء حامية البحارة أكثر من أي بحار آخر ، فظل لعدة أيام يسمي كل جزيرة يصادفها تقريباً باسم أحد مزاراتها .

وفيما بعد نقلت بعض الأسماء التي أطلقها الى جزر أخرى بسبب صعوبة حفظ مثل هذه السلسلة الطويلة من الاسماء في الذاكرة . وكذلك بدت الخارطة الشهيرة التي وضعها جون دي لا كوزا ، مساعد الأميرال ، عن الرحلة ، مربكة لكثرة ما حوت من أسماء ، ومع هذا فان بإمكاننا تتبع خط سير الاسطول بثقة تامة .

وهكذا بعد مغادرته جزيرة غواد لوب مر الاسطول على جزيرة اطلق عليها كولبوس اسم سانتا ماريا دي مونسيراتي نسبة الى دير يقع بالقرب من برشلونة ، ولا زالت تدعى كذلك ، ثم وصل الى جزيرة مستديرة صغيرة تبين أنها لم تكن مأهولة ابداً فسمها كولبوس سانتا ماريا لاردندا . وشاهد منها على بعد عدة فراسخ جزيرة كبيرة في اتجاه الريح لكنه لم يقم بزيارتها وسمها سانتا ماريا لا انتيغوا ، نسبة الى صورة مشهورة للعذراء في اشبيلية . وبات الاسطول ، خلال ليلة ١١ - ١٢ تشرين الثاني امام جزيرة محجوبة عن الريح سماها الأميرال جزيرة القديس مارتين نظراً لحلول عيد القديس مارتين شفيح الجوالين في تلك الليلة . وربما كانت هذه غير الجزيرة الفرنسية الهولندية المعروفة باسم القديس مارتين حالياً ، بل جزيرة نيغز ، الاسم الذي يبدو ان كولبوس اطلقه على جزيرة سابا التي كانت تعرف بالاصل باسم جزيرة « سانتا ماريا دي لانيف » أي سيدة الثلوج . وقد استوحى هذا الاسم من القصة الجميلة التي تقول أن كنيسة القديسة « ماريا ماغيوري » ثاني أقدم كنيسة في روما شيدت على

« الاسكولين » لان العذراء اشارت الى تلك البقعة يجعل الثلوج تتساقط عليها .
في شهر آب . وبالقرب من نيفز هذه تقع جزيرة سانت « كيتس » الحالية التي
سمها كولبوس حسب العادة باسم شفيعه الخاص نظراً لان شكل الجبل كان
يشبه شكل مارد يحمل شخصاً على ظهره . وبعد ذلك تأتي جزيرة سانت
استاتوس ، وربما كان اسمها تحويراً لاسم سانت انستاسيا . اما البحارة فيسمونها
« ستاتيا » الى يومنا هذا .

قضى الاسطول ليلة ١٢ - ١٣ تشرين ثاني بالسير متثاقلاً بالقرب من جزيرة
سابا العالية المخروطية الشكل . وكان منظر الاسطول مهيباً اذ كانت السبع
عشرة سفينة تسير متمهلة تنحرف ببطء الى الجهة المحجوبة عن الريح وقد
انعكست الانوار المنبعثة من الفوانيس المعلقة على مؤخرة السفن الكبيرة
ومشاعل السفن الصغيرة ، على سطح المياه . وكان الصباح يشهد تفرق الاسطول .
ولكن ما ان انبلج النهار حتى اسرعت جميع السفن نحو سفينة القيادة لتلقي
الأوامر . ثم عين الاميرال وجهة السير غرباً باتجاه جزيرة عينها الادلاء الهنود
وقالوا بأن اسمها « آياي » .

وقد أصبحت هذه الجزيرة التي دعاها كولبوس سانتا كروز والتي ندعوها
الآن باللفظ الافرنسي « سان كروا » ، اول ولاية من الولايات المتحدة التي
اكتشفها كولبوس ، وكانت سان كروا هذه بخلاف الجزر المثقلة بالاحراش
التي مروا بها ، متقدمة يزرعها سكانها الكريبيون على نطاق واسع بحيث تراءت
للاسطول وهو يدلف بالقرب من شاطئها الشمالي كحديقة شاسعة غناء . وبالنظر
الى حاجز الصخور الخارجية ، فقد ضل الركب ميناء كريستنستد ، وألقى
مراسيه بالقرب من رافد صغير يعرف الآن بخليج نهر الملح . وهنا اشترك
الاسبان في اول معركة لهم مع أهالي اميركا الأصليين :

أرسل كولبوس ، عند ظهيرة الرابع عشر من تشرين ثاني ، زورقاً مسلحاً
عليه خمسة وعشرون رجلاً الى رأس الميناء حيث تقوم قرية صغيرة كان الناس
قد فروا منها ، ولكن بينما كان الزورق يعود الى سفينة القيادة فوجيء بظهور

قارب كريبي صغير يدور حول رأس الميناء . انذهل الهنود في البدء من رؤية السفن الكبيرة ، ولكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم وتناول كل منهم القوس والنشاب وأخذ بالرشق ، ومع ان عددهم لم يكن يتجاوز أربعة رجال وامرأتين فقد أصابوا اثنين من الاسبان بجروح كانت جراح أحدهما مميتة .. واندفع الزورق الاسباني نحو القارب الصغير وصدمة صدمة قلبته على من فيه ولكن الكريبيين سبحوا الى صخرة نائمة واستأنفوا المقاومة كالشياطين الى ان قهرهم الاسبان وأسروهم . وقد أصيب أحد الكريبيين بطلقة تدلت معها امعاؤه . خارجاً ، فقذف به الاسبان الى البحر ، ولكنه اندفع باتجاه الشاطئ وهو يمسك مصارينه باحدى يديه ويضرب الماء بالآخرى . فعاد الاسبان وقبضوا عليه ثم اوثقوه يداً برجل وقذفوا به ثانية الى البحر . واستطاع « هذا البربري العنيد » كما وصفه بيترمارتين ان يفك وثاقه ويندفع ساجداً ، وعندها أخذ الاسبان يرشقونه بالسهم على جميع أنحاء بدنه حتى مات ! وعندئذ هرولت زمرة من الكريبيين الى الشاطئ متحمسين للثأر ، وقد طلوا أجسامهم بألوان متعددة بث الرعب في قلوب الاسبان ، ولكن لم يكن بجوزتهم أسلحة . تستطيع أن تطلال السفن

أوجد هذا الاشتباك عند خليج الملح ، في قلوب الاسبان ، احتراماً عظيماً للكريبيين جعلهم يتركونهم وشأنهم ويتحاشون زيارة جزرهم الا بحماية فرق مسلحة قوية ، كما لم يحاولوا إقامة مستعمرات هناك لسنين عديدة . ولعل اول كريبي امكن التغلب عليه كان فتاة جميلة جداً هي احدى فتاتي القارب الصغير الذي اسره ميشيل دي كونيوف في المعركة السالفة الذكر .. وكان الاميرال قد منحها لميشيل كجارية وقد كتب هذا يقول عنها : « بعد ان اخذتها الى غرفتي وكانت عارية كعادة قومها ، اغرتني الشهوة للاستمتاع بها ، لكنها سببت لي خدوشاً مؤلمة بأظافرها فضربت بها ضرباً مبرحاً بطرف حبله مما جعلها تزعق زعيقاً لم اسمع به من قبل ولكننا توصلنا في النهاية الى اتفاق لدرجة استطيع معها ان تؤكد لكم بانها بدت كما لو كانت قد نشأت في مدرسة للمومسات » .

لم يبد كولمبوس أية رغبة للتريث في جزيرة « سان كروا » خشية ان يجلب
الاهالي الكريب الامدادات ويشنوا معركة حقيقية . ولما كان قد لاحظ القمم
المستديرة لعدد من الجزر فوق الأفق الشمالي ، لذلك قرر استقصاء امرها .
وبينا كانت السفن تقترب كانت جزر اكثر فأكثر تظهر للعيان . وقد دعاها
الاميرال بلباقة : « لاس انس ميل فرجينز » - باسم الأحد عشرة ألف عذراء من
كورنول اللواتي قتلن كما تروي الاساطير على يد رجال قبائل الهون قرب
كولونيا بعد ان عدن من جولة مرحة في البحار استغرقت اكثر من عام .

استعمل كولمبوس في ارتياد جزر العذارى هذه السفن الصغيرة والزوارق
الشراعية وأرسلها عبر الممر الشرقي للتطلع الى جزيرة انغادا . وبعد ذلك انسابت
على طول القناة التي دعيت فيما بعد باسم السير « فرنسيس دريك » حيث تقوم
على كلا الجانبين جزر عالية انيقة . واعجب البحارة برؤية الالوان الباهرة
لبعض الصخور والشواطىء التي كانت بلون الزمرد الاحمر . وفي هذه الاثناء
اجبرت ماريا غالانتي والسفن الكبيرة في المياه العميقة جنوبي جزيرتي القديس
جون والقديس توماس الكبيرتين ثم عاد الاسطول وتجمع في صباح الثامن عشر
من تشرين ثاني غربي جزيرة القديس توماس ، اليوم الذي اكتشفوا خلاله جزيرة
سمها كولمبوس « غرتيوزا » باسم السيدة النبيلة التقية والدة صديقه إلساندرو
جيرالديني الذي سبق واستضافته وأكرمت وفاده في ايام فقره . ولسوء الحظ
استبدل ذلك الاسم الذي يرمز الى بر البنوة والصداقة العميقة باسم فيكوس أي
« جزيرة السلاطين » .

وبعد قضاء ليلة أخرى قطع الاسطول الشاطئ الجنوبي لجزيرة كبيرة يسميها
الاهالي بوركوين ، ولكن الاميرال سماها باسم القديس يوحنا المعمدان . بينما
قرر بونس دى ليون أحد معاوني كولمبوس في هذه الرحلة ، بان بوركوين هذه
تصلح له وفعلا أسس عليها في مستهل القرن التالي مدينة سان جوان دى
بورتوريكو . وهكذا اقتبست هذه الجزيرة اسمها الحديث من تلك المدينة .

ظل الاسطول مبحراً طول اليوم التاسع عشر من تشرين الثاني على طول

شاطيء بورتوريكو الجنوبي الشديد الانحدار ، وفي صباح العشرين منه دخل .
خليج بوكويرون الفسيح عند طرفه الجنوبي الغربي . حيث ذهب جميع الرجال
لصيد السمك وتزودوا بالمياه العذبة وزاروا قرية كريبية كبيرة أخلاها سكانها
لدى اقترابهم .

ومن بورتوريكو عبر الاسطول مرمونا في عشية الثاني والعشرين من تشرين .
ثاني ورسا على رأس انجانيو في اسبانيولا وهي الجزيرة العظيمة التي اكتشفها في
الرحلة الاولى . وقد عرفها أحد الهنود الذين التقطهم كولبوس من خليج سامانا
في شهر كانون اول فوجه الاسطول صوب قريته . وهناك انزل الى الشاطئ
مزوداً باصناف لاثقة من البضائع على أمل ان يخفف من مخاوف الهنود المرتابين .
ويبدو ان الخطة قد نجحت إذ قام عدد من الاهالي بزيارة السفن وتقايسوا معها
بعض البضائع . وهنا ايضاً تم دفن البحار الذي جرح في معركة جزيرة سانت
كروا حسب المراسيم المسيحية .

وبعد ذلك راح كولبوس يحوب الشاطئ الذي كان قد اكتشفه . وبالرغم
من أنه كان يتوق للاتصال برجاله في نافيداد ، فقد رسا خلف جزيرة مونتي
كريستي كما يبحث عن مركز مناسب لاقامة مستعمرته . وهناك شاهد افراد
فرقة كانت تجوب الشاطئ ، أول اشارة الى ما حدث لحامية نافيداد فعلى
ضفاف نهر ريو ياكوديل نورتي وقعت انظارهم على جثتين عاريتين لرجلين ميتين
وقد تأكلتا بصورة لا يمكن معها التعرف على هويتهما ، ولكن كان الميتان
ملتحيين ، والهنود لا يطلقون لحام !

وفي مساء السابع والعشرين من تشرين أول رسا الاسطول خارج الممر
المؤدي الى ميناء رأس هيتيان وخليج كاراكول ، وبالنظر الى ما سبق وحدث
في عشية عيد الميلاد رفض الاميرال الدخول في الظلام ، فأشعلت نيران عالية
وابلقت نيران المدافع ، إلا انه لم يأت اي جواب من الشاطئ . وفي ساعة
متأخرة من الليل تقدم قارب يعج بالهنود الذين كانوا ينادون « الميراتي » وعندما
تحققوا من كولبوس قدموا له بعض الهدايا من رئيسهم غواكنغاري وأكدوا له .

ان الاسبان الموجودين في نافيداد يعيشون بسلام إلا ان عدداً ضئيلاً منهم قد توفي .

يا له من تضليل فظيع ! ولكن ديجو كولون ، الترجمان الهندي ، استخرج الحقيقة منهم وكانت شيئاً فظيماً رفض كولبوس ان يصدقه بادية الامر .

لقد تصرف الاسبان في نافيداد دون أي تعقل او رادع . فقد شكل اثنان من القادة ، وأحدهما بدروجوتيريز ، ممثل التجار ، عصابة ، أخذت تطوف الجزيرة بحثاً عن ذهب ونساء اكثر مما كان باستطاعة غواكنغاري ان يقدمه أو يرضى بتقديمه . فأخذوا يشددون الوطأة على كاوناو ، رئيس قبيلة ماغوانا في اسبانيولا ، وكان كاوناو أصلب عوداً وأكثر خشونة من رئيس قبيلة المارين اللطيف الضعيف . فقبض على عصابة جويتيريز وقتك بأفرادها ثم هاجم نافيداد ليقتضي على مصدر المتاعب . ولكن معظم الاسبان كانوا آنذاك في جولة خلفين وراءهم عشرة اشخاص فقط لحراسة القلعة بقيادة صديق كولبوس القرطجني ، ديجو دي هارانا . ولما كان كل فرد من هؤلاء يعيش منفرداً مع عدة نساء فقد انشغل عن الحراسة ، مما سهل لكاوناو مهمة القضاء عليهم بسرعة بالرغم من محاولات غواكنغاري المستكنة لمنع . وبعد ان قضى على كل من في القلعة طارد الذين هربوا الى الغابات وذبهم .

وضع هذا العمل حداً للعلاقات الطيبة بين المسيحيين والاهالي الوطنيين كما اضعف احترام الاسبان لكولبوس ، الذي كان يفاخر باستكانة رجال التينو ونقص اسلحتهم الحربية . وقد اوصى فراي بويل ، رئيس فرقة رجال الكليروس ان يعدم غواكنغاري ليكون اعدامه امثلة للآخرين ، ولكن الاميرال رفض اقتراحه وظل غواكنغاري حليفاً مخلصاً للاسبان .

وكانت القضية المستعجلة امام كولبوس الآن هي البحث عن مكان مناسب لإقامة محطته التجارية . وقد رفض الدكتور شانكا ، طبيب الاسطول الموافقة على اختيار شواطئ خليج كاراكول المليئة بالمستنقعات بالرغم من

لطف ومعشر سكانها ، كما قال بأن رأس هيتيان بعيد جداً عن سيباو حيث
يحتمل العثور على الذهب ! وهكذا قرر الاميرال الابجار شرقاً للمرة الثانية
للبحث عن ميناء مناسب . وكانت التجربة شاقة وطويلة بسبب السير بوجه
الرياح الموسمية والتيار الغربي الجارف ، وقضى الاسطول خمسة وعشرين يوماً
قطع خلالها حوالي اثنين وثلاثين ميلاً فقط وانهاك تبديل الأشرعة باستمرار
والتبلل برذاذ المياه المالحة قوى البحارة وأثار غضب المستعمرين كما قضى على عدد
كبير من المواشي . وهكذا قرر كولبوس في الثاني من كانون ثاني عام ١٤٩٤
عندما رسا الاسطول بالقرب من شبه جزيرة محجوبة عن الرياح توفر الحماية ضد
الرياح الشرقية ، أن يقيم مدينته هناك وفي الحال . وهكذا نشأت هذه المستعمرة
في ساعة شؤم رغم انها سميت ايزابيلا باسم الملكة .

وهنا انتهى عهد الاكتشاف مؤقتاً كما غاض السرور من قلب كولبوس
للمصير الذي آلت اليه نافيداد . ومع ذلك فلا بد انه قد رضي كثيراً عن
رحلته هذه الى اسبانيولا . فقد قاد عبر الاقيانوس سبع عشرة سفينة كان
الكثير منها صغيراً جداً وبلغ اليابسة بدقة واتقان ، ثم تابع السير عبر سلسلة
من الجزر غير المرسومة على الخارطة ، كل ذلك دون التعرض لأي حادث خطير
يستحق التسجيل . كما اكتشف عشرين جزيرة كبيرة واكثر من اربعين جزيرة
صغيرة لم يسبق لأي اوروبي ان وقع نظره عليها . هذا بالاضافة الى انه حفظ
النظام في اضخم اسطول عبر خضم المحيطات حتى الان ، فقد كانت سفنه تحمل
على ظهرها ١٢٠٠ رجل من بحارة ومستعمرين وجنود خلال رحلة استغرقت
اربعة عشر اسبوعاً . كما تحاشى اي اشتباك في منطقة مأهولة بأكلة اللحوم
البشرية ، الكريبيين ، اللهم سوى اشتباك قصير كلفه حياة شخص واحد .
وكانت متاعب كثيرة تنتظر الاميرال عندما غادر ظهر سفينته « ماريغالانتي »
متوجهاً الى اليابسة ليستبدل مهام منصبه كقائد عام بمهام نائب الملك .

كان انقلاب طالعه حاداً كما جاء بسرعة مذهلة . اذ ظل كولبوس في
السنوات التالية ، يتعرق كلما اعتراه الألم من التهاب المفاصل او ثار عقله ضد

عقول الأمراء ، بذكرى تلك الايام البهيجة من تشرين ثاني عام ١٤٩٣ حينما كان
الاسطول ينتشر على طول شواطئ جزر الأنتيل المتعالية والمكسوة بالحضرة ،
وقد تراكت غيوم الرياح الموسمية فوق القمم بينما راحت أقواس القرح تنصب
جسوراً فوق الوديان السحيقة بصخورها المشققة ، وكذلك الليالي كانت تنقضي
متثاقلة وسفنه المقدمة تحيط به من كل جانب وقد انتشرت النجوم فوقها
تبعث بريقاً لا يوصف فيما كانت الأصوات القلبية تشترك في المساء بترنيم
التسابيح للعدراء المباركة .

الفصل الثاني عشر

المستعمرة الاولى

عزم كولمبوس ، وقد خبر ماهية المحطات التجارية من خلال رحلاته الى الوكالة الجنوبية في تشيوس والوكالة البرتغالية في ساو جورج دامينيا في افريقيا ، ان يؤسس محطة مماثلة في اسبانيولا لاعتقاده انه سيتعامل مع شعب شرقي غني ، يملك كميات وافرة من المعادن الثمينة والدرر والبهارات التي يسره كثيراً مقايضتها بالبضائع الاوروبية . كان الرأي سليماً ، اولعله سيكون كذلك لو كانت فرضيته صحيحة كما اثبت الاسبان والبرتغاليون ذلك بواسطة المؤسسات التي اقاموها فيما بعد في جاوا في الهند وماكاو في الصين ومانيلا في الفلبين .

ولكن لسوء حظ كولمبوس كان فرضه خاطئاً . وكان قد لاحظ ببعض الامتعاض اثناء رحلته الاولى ان ليس لدى الهنود سوى القليل الصالح للبيع كما ان حاجياتهم كانت اقل ، لكنهم ظلوا يغرونه بحكاياتهم عن الذهب الوفير في سيباو . وعلى كل حال ، ألم تكن جزيرة كاتاي الذهبية على بعد خطوات فقط؟!

وهكذا اسست ايزابيلا كمحطة تجارية ، وحتى لهذه الغاية كان اختيارها خاطئاً . بل ان معظم المحطات التجارية الاوروبية الاولى في اميركا شيدت على مواقع غير مناسبة ، كجزيرة رونوك مثلاً وجزيرة دوشيت الواقعة بالقرب من

نهر « سان كروا » ولم تكن ايزابيلا مستثناة من ذلك إذ تنذر فيها مياه الشرب كما لم يكن هناك ميناء مناسب اللهم إلا ممراً بحرياً مكشوفاً يمتد باتجاه الشمال والغرب ، وكانت المنطقة تعج بالبعوض الناقل لوباء الملاريا . ولكن كولبوس كان يتعجل انزال رجاله الى الشاطئء واعادة السفن الى الوطن بعد ان اضاع شهراً كاملاً بالبحث عن مركز كان من واجب افراد حامية نافيداد ان يجدوه قبل وصوله ، كما ان البرميل الذي كان عليهم ان يملأوه بقطع الذهب لم يكن هناك ! لذلك وجد ان عليه ان يباشر التجارة بسرعة وينتج شيئاً ثميناً يسر به عاهليه .

وهكذا هبط جميع المستعمرين وبعض البحارة الى البر في ايزابيلا ، حيث وضعوا مخططاً لمدينة على نمط كلاسيكي (إذ لم يكن هناك ما يرضي الأميرال أقل من قادس مصغره) مدينة تضم كنيسة وقصراً للحاكم يشيد بمواجهة ساحة كبيرة مربعة ! وشرع الرجال بالعمل وراحوا يقطعون الاشجار والحجارة الزمردية ويحفرون قناة لجلب الماء من أقرب نهر ، كما شيدوا حوالي مائتي كوخ من غصون الشجر للسكنى المؤقتة . ولكن كميات النبيذ والمؤن التي جلبوها معهم لم تكن كافية . وبالرغم من أن الدكتور شانكا كان يجرب كل صنف جديد من الاطعمة على كلب ، قبل ان يسمح لاي مسيحي بمسه او تذوقه ، أصيب الرجال بالملاريا بسبب شرب مياه الآبار او أكل لحوم السمك الغريب !

وكان كولبوس ، بسبب تعجله بإنجاز الأعمال ، يدفع بالسادة المتطوعين الى القيام بأعمال مرهقة مما أثار في نفوسهم سخطاً عظيماً ، فقد جاءوا معه للقتال او للحصول على الذهب وليس للقيام بأشغال حقيرة ! وكانوا لا يحصلون على حصتهم من الطعام إذا رفضوا القيام بالعمل ، الأمر الذي اعتبر طريقة سيئة في معاملة سيد من قشقبلة .

ومها كان الأمر ، فان سخط الكثيرين منهم قد هدأ عندما سنحت فرصة مبكرة لجمع الذهب ! إذ لم يمض أربعة أيام على تأسيس ايزابيلا حتى جهز الأميرال فرقة مسلحة لارتياح سيباو والعثور على المنجم المزعوم ! وكانت الفرصة بقيادة

الأندلسي الرشيق الصلب ، الونسو دى هوجيدا الشاب الأنيق الذي لفت انظار الملكة ونال منها قيادة إحدى السفن بمأثرة فريدة إذ دار على نفسه فوق دعامة بارزة من برج يعلو مائتي قدم فوق احد شوارع أشبيلية .

توغل هوجيدا مع عشرين شخصاً او أكثر من الاسبان وعدد من الادلاء الوطنيين في وادي اسبانيولا العظيم حتى وصل الى سفوح التلال في سلسلة جبال كورديلارا الوسطى في سيباو وهناك عثر على دلائل كثيرة عن وجود الذهب وحصل على ثلاث كتل كبيرة كانت احداها كافية لسك خمسين دولاراً ذهبياً .

وفي غضون اسبوعين عاد الى ايزابيلا في العشرين من كانون الثاني حاملاً معه أول اخبار سارة خلال عدة اسابيع ، اخباراً وصفها كونيو بقوله... « جعلتنا جميعاً نشعر بالمرح ولم نعد نهتم بالبهارات بل بذلك الذهب المبارك » .

وكان الأميرال يخشى ان يتلفظ الملك ، اذا هو أرسل السفن الى الوطن بدون ان تحمل اكثر مما جلبه هوجيدا ، بملاحظات ساخرة عن نوع العينات التي يرسلها اليه . ومع ذلك فقد كان لا بد له من ان يخاطر ويتحمل النتائج اذ كانت رواتب بحارة سبع عشرة سفينة تتراكم وكاد الرجال يستنفذون المواد الغذائية ، كما أصيب عدة مئات منهم بالمرض ونفذت عقاقير الدكتور شانكا ولم يبق من مؤن الاسطول اكثر مما يكفي للعودة الى الوطن . وهكذا استبقى لديه ، ماريلا غالانتي وغاليا ونينا وسفینتين صغيرتين وأرسل الاثنتي عشرة سفينة الباقية بقيادة انطونيو دى توريز ، قبطان سفينته الخاصة . وان سخر موظفو الملك من ألوان البضائع التي حملتها السفن بقولهم : « ما هذه القرفة التي طعمها كطعم الزنجبيل الرديء ، وما هذا الفلفل الحار الذي ليس له نكهة بهار الملايو ؟ وهذا الخشب الذي يدّعون بأنه خشب السنديان وليس هو كذلك » . فان كمية لا بأس بها من الذهب بقيمة ٣٠ ألف دوكات ^(١) كانت تتوج بالحقيقة تلك الاصناف بالاضافة الى ستين ببغاء وستة عشر هندياً . والحقيقة انها كانت حمولة لا بأس بها !

(١) دوكات . تعادل تقريباً قيمة ١٤ ليرة ذهبية .

وبعد خمسة وعشرين يوماً من مغادرة اسبانيولا وصل الاسطول الى قانس في السابع من آذار ، وبذلك يكون توريز قد قام برحلة سريعة موفقة الى الوطن . وبما انه كان شقيق مربية دون جوان الصغير ، فقد كان من السهل عليه الاتصال بالعاقلين ، ولذلك أودعه كولبوس خلاصة تقرير شفهي ليقدمه الى العاقلين . وكانت « مذكرة توريز » كما عرفت ، مشوقة جداً لما تضمنته من نتائج اختبارات كولبوس الاستعمارية في الأسابيع الاربعة الاولى من رحلته ، وبالتالي لتعقيبات الملك فرديناندو الملكة ايزابيلا عليها .

خول كولبوس توريز ان يخبر العاقلين بكل ما يتعلق بالذهب ، لا سيما عن طريقة استخراجها من رمال النهر . وانه يعتذر لعدم إرسال كميات اكثر من الذهب بسبب مرض العديد من رجاله ، واضطراره لإبقاء حامية قوية في ايزابيلا ، واخيراً لعدم توفر الدواب القوية التي تستطيع حمل المعدن الثقيل ، ذلك المعدن الذي يتطلب نقل حمولة سفينة واحدة منه وقتاً طويلاً جداً . أبدى العاقلان موافقتها الملكية على هذه الملاحظات مع « الشكر العظيم الى الله » لاكتشاف الذهب !

وكان توريز يحمل توصية من الاميرال لأن يخبر جلالتيها أن أسباب تفشي الامراض تعود الى اختلاف الماء والهواء ... وان صحة الجميع تتوقف على مدى ما سيقدم لهم من الاطعمة التي اعتادوا تناولها في اسبانيا . (ولان وقتاً طويلاً سيمضي قبل ان يغل القمح والشعير الذي زرعه ، وتنتج الكروم عناقيد العنب وتصبح عقد القصب صالحة لاستخراج السكر منها ، فهو يرى من الضروري تزويدهم بالطعام من اسبانيا خاصة بالخبز والبسكويت ولحم الخنزير المقدد ولحم البقر المحفوظ في الخل . وبما أن عدداً قليلاً من المواشي التي حملها معه ، بقيت على قيد الحياة ، فهو بحاجة الى ابقار واغنام وحمير وخيل لتوليد البغال . وكذلك فهو يتمنى عليها إرسال بعض « الكماليات » التي تساعد على الترفيه من المرض كالسكر والزبيب والرز واللوز والعسل . وهناك مشكلة الملابس أيضاً ، إذ كان الاسبان يستهلكون الثياب والاحذية بسرعة في تلك المنطقة

الحجارة الخشنة . فطلب كولبوس كميات من كل صنف منها بالإضافة الى كميات
الاقمشة والجلود ليجري بيعها بأسعار معقولة . كما أكد حاجته الى مئة قطعة
إضافية من الاسلحة النارية ومئة قوس ، ومائتي درع للوقاية من السهام السامة
وكمية من مسحوق البارود والرصاص !

وكانت قضية تموين وايواء الرجال المشكلة الرئيسية لجميع الرواد الاوروبيين ،
فلن تنسى ابداً قصة هلاك المستوطنين الانجليز الاوائل في فرجينيا وكيف قضوا
جوعاً لعدم توفر الخبز البلدي ولحم البقر والجمعة في بلد تكثر فيه الذرة والصيد
والمياه الصالحة ! وكيف كان آباء هؤلاء المغتربين يغرقون بالديون بسبب شحنات
الألبسة والاحذية التي كانوا لا يملكون الوسائل لصنعها بأنفسهم .

شعر كل من فرديناند وايزابيلا أن طلبات نائبها معقولة فأمر رئيس الاساقفة
فونيسكا الذي أشرف على تنظيم شؤون الاسطول ، ان يقوم بترتيبات سريعة
لارسال كميات إضافية من البذور والحدود والماشية وان يهيئ جميع المواد
الأخرى التي طلبها الاميرال ، غير انها لم يوافقا على اقتراحه المتعلق بالألبسة
الرسمية وكمية الأحذية .

وقال كولبوس ايضاً انه مرسل الى الوطن بعض آكلي لحوم البشر الذين
قبض عليهم في سان كروا لكي يصار الى تنصيرهم وتخليصهم من شهيتهم الوحشية
وتعليمهم اللغة الاسبانية للافادة منهم كترجمين . ثم اوضح فكرته - التي سبق
وأشار اليها في رسالته عن رحلته الأولى - بأن أهالي الكريب او أي عبيد
آخرين من الهنود يشكلون مادة دسمة للتصدير من اسبانيولا ، ولذلك فانه يرى
تجنيد بعض الرجال للهجوم على جزر الكريب بقصد تحقيق ذلك الغرض .
كانت العبودية من الأمور المسلم بها في تلك الأيام عند الاوروبيين والمسلمين على
السواء (وهؤلاء ما زالوا يمارسونها) ، لذلك لم يكثر كولبوس كثيراً
لِلناحية الخلقية لمشروعه ، حتى ولو فعل ذلك لكان قد وجد مبرراً ، بدون
شك ، في ان الهنود كانوا يستعبدون بعضهم البعض ، فلماذا نستعبدهم نحن ؟!
وخصوصاً بأننا سننصرهم ايضاً وننقذ أرواحهم وهم احياء ! ولكن العاملين لم

يرحبا بمشروع تجارة العبيد وأجابا بأنها سيحتفظان باعطاء رأيها فيه الى ان يتمكننا من الاحاطة بتفاصيل اوسع عنه . ولقد حرمت ايزابيلا تجارة العبيد فيما بعد ولكن ليس قبل اقتناعها بأن العملية غير مربحة تجاريا !

واختتم الاميرال مذكرته باسداء المديح للدكتور شانكا وبعض المعاونين الآخرين طالباً رفع رواتبهم ، كما أوصى بأن تقيد أسماء المائتي سيد المتطوعين على بيان الرواتب الملكي لكي يصبح بالامكان مراقبتهم والتحكم بتصرفاتهم . والواقع ان هذه المذكرة تبين في معظمها عن تمتع المكتشف بإدراك سليم وليونة لم يكن يتحلى بها عادة . اما فكرته عن المحطة التجارية كانت تسير في طريق التصفية ذلك ان هنود اسبانيولا لم يكونوا تجاراً كما تضاعل اهتمامهم بالبضائع الاوروبية بعد ان اشبعوا فضولهم منها . ولم تعد محطة تلك التي يريد ها كولمبوس بل رأس جسر وممر للغزو ! واقترح كولمبوس على العاهلين على هامش تقريره تزويده بفرقة من عمال مناجم الفضة في استرمدوره . فقد أدرك سلفاً بان جمع أية كمية من الذهب كان يتطلب من الاسبان الذهاب لجلبه بانفسهم ، وقد سببت هذه الطريقة التعاسة للمواطنين الهنود !

وبعد مضي شهر على إرسال الاسطول الى الوطن بقيادة توريث نظم كولمبوس حملة استكشاف كاملة العدة وقادها بنفسه الى داخل الجزيرة . وكان هذا اول زحف مسلح يشنه الاسبان على البر . حيث تبع ذلك زحف كل من بالبوا وكورتيز وبيزارو ، وكورونادو على التوالي .

كان انطلاق الحملة من ايزابيلا في الثاني عشر من آذار عام ١٤٩٤ إذ بدأ عدة مئات من الرجال بالسير جنوباً في صفوف عسكرية ، تحت ظل الاعلام وبين قرع الطبول ونفخ الابواق ، وبعد ان عبر كولمبوس سلسلة جبال كورديليرا الوسطى عن طريق ممر سمياه كولمبوس البورتو دى لوس هيدلغوس - خلف رجال الطليعة ، وجد نفسه على مرأى واد فسيح وصفه كاساس بقوله كان « غاية في الازدهار والاختراع وتعدد الألوان كما كان غارقاً كله بالجمال » و اضاف : « حتى ان الاميرال الذي تأثر جداً بما رأى قام بتلاوة

الشكر الى الله ، ثم سماه فيجارياىل « أي السهل الملكي » . ومشى الاسبان بين حقول الذرة ، وتحت اشجار الماهو كوني والآبنوس وشجيرات القطن والحريز ، ومروا بقرى قدم لهم سكانها رزماً صغيرة مملوءة بالتبر . وبعد ان عبروا نهر ريوياكوديلنورتي بواسطة القوارب الخشبية الصغيرة او الطوافات او محولين على ظهور اصدقائهم الهنود اندفعوا فوق منحدرات جبال كورديللرا الشمالية باتجاه ارض فسيحة تطل على منعطف يؤدي الى اليريجانيكو حيث ترك كولبوس خمسين رجلاً لبناء قلعة بسيطة من التراب . وعين أحد أقدر معاونيه بدرو مارغرت قائداً لها وسماها قلعة سانت توماس ، دعابة وهزءاً بأحد مرافقيه من عليه القوم ، الذي اكثر التشكك بوجود الذهب في اسبانيولا . وبينما بقي البعض منهم هناك ، تسلق الآخرون الجبال سعياً وراء الذهب وجمعوا منه كمية حسنة ! وكتب كونيوا عن هذه الرحلة القصيرة يقول : « كان الطقس فظيماً خلال التسعة والعشرين يوماً التي قضيناها في تلك السفرة القصيرة وكنا نأكل طعاماً رديئاً ونشرب ماء ملوثاً ، ومع ذلك احتفظنا بقوانا وعافيتنا في سبيل جشعنا للحصول على الذهب ! »

اما اولئك الذين تركوا في ايزابيلا ، فلم يكونوا اقوياء أو جشعين . ولم يعثروا على الذهب للتعويض عن الحياة والعمل الشاق في تلك المنطقة الوبيلة ، لا سيما وانهم قد استهلكوا آخر كمية من المؤن الاسبانية . فتفشى الملل بينهم ، وأخذت عوامل التمرد تغلي في نفوسهم ، فقيّد كولبوس العديد من المشاغبين منهم بالحديد ، ووضع من باب الاحتراس ، جميع الأسلحة والذخيرة على ظهر سفينة القيادة وعين أخاه دييجو حارساً عليها . كما وضع ، لإعادة الثقة الى النفوس والتخلص من المشاغبين خطة لحملة مسلحة ثانية بقيادة هوجيدا قوامها اربعمئة رجل وزودها بأوامر للزحف الى قلعة سانت توماس لنجدة الحامية التي يقودها بدرومارغرت والتي كانت تعاني اخطار الهجوم عليها ، ثم لارتياح المنطقة والعيش هناك بعيداً عن الأهالي . وكان هذا أسوأ قرار اتخذته كولبوس . فمع انه امر هوجيدا بالألا يلحق الأذى بالهنود وذكره بأن رغبة العاهلين بتخليص

أرواح العبيد تفوق رغبتها بالحصول على ذهب بلادهم ، إلا ان أول عمل قام به هوجيدا هو ان اقدم على قطع اذني احد الهنود لأنه سرق بعض الثياب الاسبانية البالية ، وكبل رئيس القبيلة بصفته مسؤولاً ، حسب رأيه ، وأرسله مقيداً بالسلاسل الى ايزابيلا .

وبعد ذلك أنجد هوجيدا بدرومارغرت الذي كان يحوب الفيجارياي – السهل الملكي – على رأس حملة يتراوح عدد افرادها بين الثلاثمائة وخمسين رجلاً والأربعمائة أخذت تسلب الأهالي ذهبهم وتستنفذ مؤنهم من الطعام وتقبض على الأولاد كعبيد وعلى الفتيات لاستخدامهن كعشيقات .

وقبل ان يتسنى لكولبوس معرفة هذه الأعمال ، أبحر بقصد ارتياد كوبا ، فاركأ ايزابيلا بمسؤولية اخيه الصغير . ووصف لاس كاساس ، ديجو الذي كان يرغب بان يصبح مطراناً بقوله ، انه : « شخص فاضل كتوم ، مسالم ، وبسيط لم يستطع رفع معنويات المستعمرين ، اكثر مما كان يستطيع كبت جماح الأنانيين من أمثال هوجيدا ومارغرت ولكن لم يكن باستطاعة كولبوس ان يثق بأحد سواه » .

الفصل الثالث عشر

اكتشاف كوبا

كان يستحيل على كولبوس تقريباً عندما يعتنق نظرية جغرافية ما ، ان يتخلى عنها . لقد ارتاد من اسبانيولا حتى الآن ، ما يكفي لاقتناعه بأنها لا تشبه اليابان التي وصفها ماركو بولو . ولكن اذا كانت سيباو هي غير سيبانجو ، أفلا يجوز ان تكون سبأ مملكة الذهب التي جاءت ملكتها الشهيرة مثقلة بالهدايا للملك سليمان ؟؟ وكيفما كان الحال ، أليست كوبا بمثابة الرأس لآسيا ؟ وكان ذلك أحد الأمور التي أمره العاهلان باستقصاء حقيقتها ، وقد اشار كولبوس في كتابه الشهير عن الرحلة الأولى إلى أن كوبا جزيرة ومقاطعة من أعمال الصين ولكنه خلال رحلتيه الاخيرين كان قد قرر في نفسه ان كوبا كانت ولاية مانجي الصينية . ومانجي هو الاسم الذي اطلقه ماركو بولو على جميع مناطق الصين الجنوبية !

وهكذا بعد ان أرسل هوجيدا الى سيباو ، عاد الاميرال يمارس دوره الطبيعي كمكتشف فجعل نينا ، السفينة البحرية الامينة ، سفينة القيادة ، إذ كانت سفينتا الاسطول الكوبي سان جوان وكارديرا ، من الطراز الذي يستعمل الأشرعة المثلثة ، وقد وصفتا بانها أصغر حجماً من نينا وتحمل كل منهما على ظهرها

من ١٤ الى ١٦ بحاراً بالمقارنة مع نينا التي كانت تستوعب من ٢٨ الى ٣٠ بحاراً .
وبما ان حمولة نينا كانت تقدر بين ٥٥ الى ٦٠ طناً ، ولم يزد طولها عن ٧٠ قدماً ،
فمن المعقول جداً ان تكون حمولة كل من السفينتين الصغيرتين أقل من ٤٠ طناً
وان لا يزيد طول الواحدة عن ٥٠ قدماً . أما عن الضباط فكان يصحب معه
واحداً من افراد عائلة تينو المخلصين وبدرو دى تيريروس ، وعدداً آخر من
المحاربين القدماء الذين رافقوه في رحلته الاولى . ومن حسن حظ التاريخ ان
ميشيل دى كونيو صديق كولبوس الثرثار ، رافقهم كمسافر ، كما انضم اليهم
جون دى لاكوزا ، واضع الخرائط بصفة بحاراً كفؤاً . أما ديجو كولون الذي
يعتبر من أفضل افراد قبيلة التينو المتنصرين ، فقد التحق بهم كترجمان كما رافقهم
كاهن لا نعرف اسمه .

أبحرت السفن الثلاث من ايزابيلا في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٤٩٤ .
وكان ذلك أنسب فصل للبحار حول جزر الانتيل الكبرى ، حيث يمكن
الاعتماد على الرياح الموسمية اثناء النهار وعلى النسيم الذي يهب من الشاطئ في
الليل ، كان الهواء لا يزال بارداً ولم يكن ثمة خطر من الاعصار . وفي التاسع
والعشرين عبرت السفن الممر الواقع باتجاه الرياح والمؤدي الى رأس ماسي الذي
سماه كولبوس رأس الفا وأومينا وذلك في رحلته الأولى . وهناك نزل إلى البر
ونصب عاموداً علق عليه صليباً ، وأعلن الاستيلاء على كوبا رسمياً باسم اسبانيا .
ثم قرر ان يعمل بنصيحة ضباطه بأن يطوف الساحل الجنوبي بدلاً من الشمالي ،
وذلك لأنه اذا كان ثمة شيء حسن فسيكون بالاحرى في الاتجاه الجنوبي بدلاً من
الشمالي . وكانت هذه نظرية أرسطو طاليس القديمة التي أيدتها خبرة البرتغاليين
في افريقيا ، والقائلة : « كلما ابحر المرء بعيداً الى الجنوب ، كلما وجد كميات
أكثر من الذهب والاشياء الاخرى الثمينة » .

وبعد رأس ماسي اكتشف الاسبان اراضي جديدة . ثم اتجهوا غرباً -
جنوباً على طول شاطئ محاط بالصخور لمسافة خمسين ميلاً متمتعين بالاربع الطيب
المنبعث من اليابسة والذي كان مزيجاً من روائح عشب البحر والصبير والنباتات

ذات الرائحة الذكية (كما حدث لنا نحن البحارة المعاصرين ، على ظهر سفينتنا ماري أوتس التي كانت بحجم السفينة كارديرا تقريباً) .

وعندما أقبل مساء اليوم الاخير من نيسان دخلوا في ميناء عظيم يشبه المنجل سماه كولبوس بورتوغراند (الميناء العظيم) . وهو خليج غوانتانامو حيث تقوم الآن في القرن العشرين قاعدة بحرية اميركية هامة . ووجدت الفرقة التي نزلت الى الشاطئ أن الاهالي كانوا قد هربوا رغم انهم كانوا منهمكين بطبخ وجبة غداء هائلة من السمك والسقايات لرئيسهم الذي كان على وشك ان يقيم وليمة لتكريم رئيس قبيلة قادم لزيارته . غير أن ديجو كولون نجح باقناع الطباقين بالعودة والاشراك بالوليمة مع الاسبان الذين كافأوهم بهدايا من اجراس الصقور وبعض الادوات الأخرى التافهة عما تكبدوه من مشقة في صيد كمية اخرى من السمك لتكريم رئيس القبيلة . واغتبط الهنود لان ضيوفهم غير المدعويين رفضوا ان يلمسوا لحم السقايات المحمر التي يعتبرونها الوجبة الوطنية المحببة ، كما لاحظ الاسبان من جهتهم أنهم يفضلون أكل لحم التماسيح عليها !

وفي صباح اليوم الاول من أيار انطلق الاسطول مع نسيم البر . وتناقل هنود غوانتانامو نبأ الاسبان بواسطة جذوع الكرمة ، وهكذا ، بينما كانت السفن تبخر قريبة من الشاطئ الوعر هرعت جماعات من الهنود الى حافة المياه ، ومنهم من جثف بقاربه الصغير حاملاً للبحارة خبز الكاسافا والمياه العذبة . متوسلاً الى « الرجال الذين جاءوا من السماء » ان ينزلوا بضياقته . والجدير بالذكر انه لم تقع اية حوادث مشؤومة بين الاسبان وأهالي كوبا ، كما وان العلاقات بين الأجناس المختلفة لا زالت هناك ، كما كانت منذ العصر الذهبي ، ويكفي كولبوس فخراً انه حافظ عليها الى نهاية رحلته .

وعلى بعد اربعين ميلاً غربي غوانتانامو ، شاهد الأميرال ثلثة في سلسلة الجبال الوعرة فأبحر في بوغاز الصخور الشاهقة ، ولا يزيد عرضه عن ١٨٠ ياردة ، حتى وصل الى الخليج العظيم حيث شيد السيد فيلاسكويز ، بعد عشرين عاماً ، مدينة « سنتياغو دي كوبا » . وهناك ايضاً ظلت العلاقات بين الاسبان والأهالي

الذين كانوا ينعمون « بأروع الجنائن في العالم » مثالية جداً . وعندما أفلح الأسطول في فجر الثاني من ايار مر بالمياه التي شهدت معركة سنتياغو بعد أربعة قرون ، تلك المعركة التي انتهت الاستعمار الاسباني في كوبا .

وبعد انطلاقة سريعة نزل كولمبوس الى رأس سماه « كابو دي كروز » أي رأس الصليب (كما لا يزال يسمى) لأن تاريخ بلوغه وافق التاريخ المعترف به لاكتشاف الصليب الحقيقي . وهناك ، بدلاً من ان يدور ليلج خليج غواكتايابو ، قرر الاميرال السفر الى جميعا التي اخبره عن وجودها ، هنود سنتياغو . وكان وقع اسمها المحلي - جيكاو - على الاذن يشبه وقع اسم جزيرة - بابيكو - الذهبية التي كان قد سمع عنها في رحلته الاولى ، ولذلك امل ان يجد ذهباً فيها بعد ان بدا له ان لا أثر للذهب في كوبا .

قضى الأسطول يومين وهو يسير متايلاً في بحر هائج بسبب اشتداد الرياح الموسمية . وبعد ان أمضى البحارة وقتاً طويلاً وهم على ظهر السفن ، سمح كولمبوس لربان نينا ، الونسو ميديل ان يأذن لهم جميعاً بالنزول الى الغابرات للاستراحة الضرورية حالماً تهدأ السفينة . وبعد قليل لاحظ الاميرال ان الطقس اخذ يميل الى الاعتدال ، فصعد بنفسه الى ظهر السفينة لينشر الأشرعة لكي لا يزعج نوتية الحراسة المتعبين . ولا أتصور بأنه استطاع ان يقوم باكثر من نزع حبال شراع المؤخرة وترتيب دعامات القلع الأمامي الصغير قبل ان استفاق البحارة على صوت الأشرعة وتبدل السرعة ! بيد ان الحادث أوضح مدى التقدير الذي كان يبدية كولمبوس لبحارته ، كما أنه ساعد على تفسير ولائهم له بالرغم من المشقات العديدة التي زجهم فيها والاثاثات القليلة التي جنوها من رحلاته .

وفي الخامس من ايار رسا الأسطول في خليج القديسة حنة في جيكا الذي سماه كولمبوس خليج سانتا غلوريا . وقد وصف الاميرال هذه الجزيرة بقوله : « أجمل ما وقعت عليه العين واكثر كثافة بالسكان من جزر الأنتيل الكبرى » . وخرج ستون أو سبعون محارباً هندياً بقواربهم الخشبية الصغيرة لمجابهة الأسطول ،

مظهرين عزمهم على القتال ! ولكن طلقة مدفع واحدة أعادتهم الى الشاطئ .
ولما كان كولبوس يريد خشباً وماء وفرصة لسد شقوق إحدى سفنه ، تابع
سيره الى ميناء ريوبينو الواقع لجهة الغرب . وهناك قام الهنود بتظاهرة عدائية
اخرى ، ولكنه في هذه المرة ، أنزل قواربه خلفهم ، وعليها بحارة مسلحون
بالقوس والنشاب قاموا برميهم وقتلوا البعض منهم . وعندما نزلوا الى الشاطئ
اطلق كولبوس خلف الهنود كلباً هائلاً نهش بعضهم بوحشية وراح يطارد
الآخرين . وقد استمر العمل بتكتيك ازعاج الهنود بالكلاب الوحشية في
اسبانيولا كما كان قد عمل بها في جزر غوافشي الواقعة بين جزر الكناري ،
ولكن أهالي ريوبينو ، وهم من قبيلة التينو عمدوا الى تهدة الاسبان بتقديم
المؤن لهم فوراً ، ولكنهم عجزوا عن تقديم الذهب . وهكذا قام الاميرال
بزيارة أخرى لجميكا في خليج مونتيفو ثم عاد وأبحر الى رأس الصليب
بموافقة الريح .

استأنف الاسطول الان جولاته على شاطئ كوبا الجنوبي متيقظاً للبحث
عن المدينة الصينية . فأبحر حول خليج غواكتايابو ومع بزوغ شمس الخامس عشر
من ايار شاهد مجموعة من الجزر الصغيرة (أرخيل) قرب شاطئ
لابرينتو دي دوزي ليناس فسماه كولبوس أرخيل « الجاردن دي لارينا »
- أي جنينة الملكة - وقد وصف كولبوس هذه المجموعة من الجزر الصغيرة
بقوله انها كانت جميلة جداً ، وكان الاهالي يستثمرون بعضها في الزراعة بينما
كانت أشجار النخيل الباسقة وأشجار القرع تزين بعضها الاخر . واعجب الاسبان
بمشاهدة الطيور الضخمة التي تشبه طيور ابو لهب وطيور الكركي لكن بلون
أحمر زاه ، كما شاهدوا الاهالي وهم يصطادون « السلاحف » بواسطة طعم من
الاسماك الأليفة . فكان الهندي يصطاد سمكة بحرية مدربة واضعاً الشفطات
على رأسه ثم يقذف بها في الماء ويطيل لها الخيط عند اقتراب السلاحف منه .
وكانت السمكة تتعلق بالسلاحفة فلا يبقى على الهندي إلا ان يشدها اليه .
وكانت هذه إحدى قصص كولبوس التي وجد الاوروبيون صعوبة عظمى في

تصديقها ، ولكنها كانت صحيحة ، وما زال أهالي كوبا يمارسون صيد الترسات بنفس الطريقة !

لقد وجدنا ارخبيل « جنينة الملكة » في عام ١٩٤٠ . مخيباً للآمال . فقد فتكت الاحراج بمعظم النباتات الأخرى فيها ، كما يبست هذه الاحراج نفسها . غير ان قنوات المياه بين تلك الجزر كانت معقدة وضحلة بحيث جعلتنا نشعر أن كولبوس كان ملاحاً ماهراً في المياه القليلة الغور كما هو فوق مياه المحيط .

أبحرت السفن الثلاث عبر بوكا غراندي ، ثم جددت سيرها باتجاه سلسلة جبال ترينيداد . وفيما كان الاسطول يبحر المياه بموازاة هذا الساحل الوعر القريب من سلسلة جبال ترينيداد ، كان الاهالي يهرعون الى الشاطئ وهم يحملون الهدايا ويرحبون بالاسبان « الهابطين من السماء » . ولكن ، وحق القديس فرناندو ، لم تظهر أمامهم أية سفينة صينية او قارب او معبد او جسر ! أيمن ان تكون حضارة كاتاي^(١) لم تصل بعد الى الاجزاء النائية من املاك الخان العظيم ؟! أم ترى ان هذه ليست سوى جزيرة أخرى كبيرة ؟!

اخطأ كولبوس الممر الضيق المؤدي الى الخليج حيث شيدت مدينة سينفوغس فيما بعد واكتفى بارتياح خليج كوشينوش حيث لاحظ جداول المياه الجوفية المتدفقة من تحت مياه البحر الى أعلى والتي تمكن البحارة من ان يملأوا منها براميل الشرب دونما حاجة للنزول الى الشاطئ . وقد ذكر كولبوس ان تلك المياه كانت « بالغة البرودة والعذوبة بشكل ليس له نظير في العالم » . ثم هبط هو وفرقة من البحارة الى الشاطئ حيث « استرحنا على العشب الأخضر قرب الينابيع المتدفقة وسط عير الزهور الرائعة وعذوبة تغاريد العصافير الصغيرة الكثيرة المبهجة ، وفي ظل اشجار النخيل الباسقة والجميلة بشكل يجعل الناظر يلتذ برؤيتها كلها » . وقد دون اندري بيرنالديز هذه الكلمات كما وردت على شفتي كولبوس نفسه .

(١) الصين .

ولسنا بحاجة الى كبير جهد لأثبت ان تقدير كولمبوس لجمال الطبيعة كان شبيهاً بتقدير مثالي القرن الثامن عشر، وفريدا بين رواد ذلك العصر الاكتشافي.

دخل الاسطول الصغير الآن خليج بتبانو ، حيث شاهد الأميرال ظاهرة غريبة أربكت العديد من الملاحين بعده ، وهي اصطباغ المياه بلون ابيض كالحليب ثم تحولها الى لون اسود كالحبر . وكان اللون الابيض ينجم عن التراب الأبيض الناعم الذي كانت تحركه الأمواج في تلك المياه القليلة الغور ، والاسود من تحريك الرمل الاسود بنفس الطريقة .

وذكر كولمبوس بأسلوب بليغ حي ان شواطئ هذا الخليج كانت كثيفة بأعشاب الغابات الى درجة كبيرة بحيث لا تستطيع قطة عبورها الى الشاطئ ! وفي السابع والعشرين من ايار وصل كولمبوس الى الطرف النهائي من شبه جزيرة زباتا التي دعاها بونتاديل سرافيم ^(١) لموافقة يوم وصوله يوم عيد جميع الملائكة ، ثم عبر اسينادا بروا حيث ألقى مراسيه بالقرب من مدينة بتبانو الحالية .

ومع ذلك لم تظهر في الافق أية دلالة عن الصين ! وقال الهنود القاطنون قرب ترينيداد ، إما بدافع إرضاء الأميرال ، أو لانهم كانوا لا يعرفون افضل من ذلك ، ان الشاطئ يمتد غرباً الى ما لا نهاية ، وان المنطقة الغربية كانت تدعى ماغون ، التي فسرهما كولمبوس بأنها مقاطعة مانجي ! وصرح أحد الصيادين الهنود أيضاً بأنه رأى ، وهو يصطاد في الغابة القريبة من بتبانو بعض الأهالي من ذوي البشرة الفاتحة وهم يتجلبون بأثواب بيضاء طويلة حتى ركبهم . وسر كولمبوس باستنتاجه أن هؤلاء الناس مسيحيون فلا بد ان يكون قد تخطى الصين اذن ، ووصل الى الحبشة ولكن تلك الفكرة لم تدم طويلاً .

وبينا السفن تسير غرباً على طول شاطئ مقاطعة « بينارد ديل ريو » الجنوبي تورطت في منطقة مياه ضحلة كانت أسوأ ما تعرضت له حتى الآن .

« ١ » عيد جميع الملائكة

ولم تستطع السفن عبور تلك الأقنية الا بواسطة الطريقة الشاقة بسحبها بالمرساة وكانت هذه العملية تقضي بان يجذفوا اماماً الى طول مرمى المرساة ثم يسحبون السفينة اليها بالملونية بينما تحتك قاعدتها بالوحل ، ثم تخطوا في سيرهم حدود حضارة قبائل التينو ودخلوا في آخر معقل لقبائل سيوني ، حيث لم يكن باستطاعة ديجو كولون ان يفهم من لغتهم شيئاً .

ويقول القبطان ليكي في مقدمة كتابه الشهير « تعقيدات في الملاحة العملية » :
« ونجد بالمقارنة ان قلة من البحارة يجيدون الرياضيات ومن حسن الحظ ان تكون الحال كذلك إذ يندر ان تجمع الطبيعة بين نبوغ أحد تلاميذ كبردج في العلوم الرياضية وبين تلك اللباقة العملية والقدرة على مراقبة الاشياء السطحية والتأهب في الأحوال الطارئة التي تبدو في غاية الضرورة لربان ناجح في البحر .
كم ينطبق هذا الوصف على كولبوس ! فقد قرر الآن اعتماداً على الرياضيات ، بأنه قطع على الأقل نصف الطريق حول العالم ، بينما لم يقطع في الحقيقة سوى أقل من ربعها ، أي ٨٤ درجة من خطوط العرض غربي غرينتش . وبينما كان كولبوس في بهايا كورتيس حيث تنحرف أراضي كوبا جنوباً ، توهم انه اصبح في خليج سيام وظن انه لن يحتاج لاكثر من يوم واحد ليدور حول شبه جزيرة الملايو ثم يدخل بعدها في مضيق ملقه . اذن فلماذا لا يعود الى اسبانيا بالدوران حول العالم متتبعاً آثار بارثوليميو دياس وفاسكودى غاما ؟ !

ولكن من حسن الطالع ان عاد الادراك السليم الذي يتحلى به البحار الماهر لانقاذ الموقف . فقد كانت المياه تتسرب الى السفن بسبب الارتطامات المتتالية بالأرض ، كما اوشكت أشرعتها على ان تتمزق كلها وتصبح خرقاً بالية ، وقلت المؤن ، كما شرع البحارة يزجرون ويتذمرون . وهكذا قرر الاميرال ان يعكس اتجاهه ، ورأى ان يتبع السابقة التي وضعها دياس عندما اضطر للعودة . عام ١٤٨٨ وهو على أبواب الهند تماماً ، فانتزع من كل بحار تقريباً اعترافاً بمعنى ان كوبا لا بد ان تكون جزءاً من قارة وبأن من العبث الابحار الى أبعد مما وصل اليه اذ لا يمكن أن يكون هناك جزيرة بمثل هذا الطول . والحقيقة انهم

كانوا على بعد خمسين ميلاً فقط من رأس كوبا الغربي . ولكن هذا الادعاء لم يقنع حتى جون دي لا كوزا الذي أظهر كوبا على خريطته الشهيرة كشریط ضيق من اليابسة محاطة بالمياه من كل جانب . وقد ظل رسامو الخرائط في أوروبا لسنين عديدة يرسمون صورتين مختلفتين عن كوبا ، الاولى تمثل الجزيرة الحقيقية والأخرى تمثل جزيرة قارية تشبه الصورة الذهنية التي تخيلها ماركو بولو عن مقاطعة مانجي والتي أصر كولبوس على انها صحيحة !

بدأت رحلة العودة الى جزيرة ايزابيلا في الثالث عشر من حزيران عام ١٤٩٤ . وكانت التجربة في معظمها شاقة جداً لأنها كانت ضد الريح وضمن الجزر الصغيرة نفسها كما كان الحال في رحلة القدوم وذلك لأن كولبوس لم يستطع التقدم في المياه العميقة بوجه الرياح الموسمية والتيار المتدفق غرباً . وقد كتب عن ذلك يقول : اذا كانت السفن تسير في جزر الهند والريح تضربها من العرض باتجاه المؤخرة فان ذلك ليس بسبب التصميم الخاطيء وجهل القيادة بل لأن التيارات الهائلة التي تسير هناك بنفس اتجاه الريح ، تجعل من العسير على أي انسان ان يحاول مقاومة الشد لأنه في هذه الحالة سيخسر في يوم واحد ما أحرزه من التقدم في سبعة أيام ، ولا استثنى من ذلك السفن الكبيرة أو حتى السفن البرتغالية ذات الأشرعة المثلثة !

أما سجله الرائع بالإبحار باتجاه الريح مع نينا وبتنا عام ١٤٩٣ فقد أحرزه يوم كان يبحر في مياه عميقة خالية من التيارات . والحقيقة ان السفن الشراعية لم تستطع مواجهة الحالات التي وصفها كولبوس الى ان تم بناء يخوت السباق الحديثة . وحتى هذه اليخوت نفسها كثيراً ما تجبر على مواجهة تلك الحالات بالدوران على نفسها . ويخبرنا وليام هيكي وهو يكتب في بلدة القديسة ماري في جميعا في السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر عن سفينة راحت تحاول مقاومة الريح من كينغستون الى مرفأ مورانت ، أي لمسافة لا تزيد عن العشرة أميال فيقول : « كانت السفينة تقاوم البحر يومياً ، ففي الصباح تسير وأشرعتها مشدودة الى أقصى ناحية اليسار ، وفي المساء وأشرعتها مشدودة الى أقصى

ناحية اليمين ، ومع ذلك كانت تتقهقر الى النقطة التي تنطلق منها . وظلت تقوم بذلك لمدة ثمانية ايام متتالية بدون ان تتقدم ميلاً واحداً الى الامام !

وتعلم كولبوس من تجاربه عام ١٤٩٤ ان الطريقة الوحيدة لاحتراز بعض التقدم باتجاه الرياح تنحصر في البقاء في المياه الهادئة وتلافي التيار ، ثم الاستفادة من هبوب النسيم في الليل . وقد احتاج كولبوس الى خمسة وعشرين يوماً كي يقطع حوالي مائتي ميل . وفي الوقت الذي وصل فيه الى اربخيل « جنينة الملكة » لم يعد يطبق الابحار في المياه الموحلة فغير وجهة السير خارج جزر لابرينتو دي دوزي ليناس ليصل الى المياه الزرقاء حيث قضى عشرة ايام قطع فيها مسافة مائة وثمانين ميلاً قبل ان استطاع الابحار باتجاه الرياح وأصبح من الواجب تحديد حصّة البحارة من البسكويت المتعفن الى رطل انكليزي ، ونصف لتر من النبيذ المربوياً بينما كان البحارة يتدمرون ابدأ . وأخيراً وصل الأسطول الى رأس الصليب في الثامن عشر من تموز حيث رحب به اصداقائه الهنود وأكرموا وفاده . قرر الأميرال مراجعة خرائطه ليحصل على معلومات أكثر عن جيكا لئلا يتعرض لرحلة طويلة اخرى ضد الرياح بموازاة ساحل المقاطعة الشرقية المكتنف بالصخور .

دخل الاسطول خليج مونتيفو ثمانية في الواحد والعشرين من تموز . ومن ذلك المشهد الذي كتبت له الشهرة فيما بعد ، أبحر حول الطرف الغربي من جيكا . وانطلق الى الشاطئ الجنوبي الذي ظلت السفن تسير بمحاذاته ملقبة مراسيها في الليل ، كان الهنود لطفاء مسالمين ، وبالغ أحد رؤسائهم بكرمه لدرجة مربكة ، فقد خرج الى سفينه القيادة برفقة اسطول من القوارب الخشبية الصغيرة حمل أفراد عائلته وحاشيته وهم يغطون رؤوسهم بريش الببغاوات الرائعة الالوان وبعض الاشياء الصغيرة الاخرى . وكان رئيس القبيلة يضع على رأسه اكليلاً مرصعاً ببعض الاحجار الكريمة المصقولة وأقراص الذهب والنحاس التي لا بد ان يكون قد حصل عليها من أميركا الوسطى . وكان يقف على مقدمة قاربه مناد يرتدي ثوباً مصنوعاً من الريش الأحمر ويحمل بيده شعاراً أبيض .

وكانت زوجته تتحلى مثله بجواهر محلية بالرغم من انها لم تكن ترتدي شيئاً
نستطيع ان نسميه ثياباً اللهم إلا قطعة قطنية صغيرة بحجم قشرة
البرتقالة ! أما ابنتاه البالغتان الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمرهما فقد
كانتا عاريتين تماماً وجميلتين جداً . وفيما اقترب هذا « الموكب من الروعة
البدائية » من السفينة ، لم يدر كولمبوس بما كان يدور خارجاً ، إلا عندما
صعد الجميع الى ظهر السفينة فقد كان منهمكاً بتحضير مهام الحراسة في غرفته .
واقترح رئيس القبيلة بواسطة الترجمان الهندي ديجو كولون ان يبحر هو وأفراد
عائلته مع الاميرال الى اسبانيا لزيارة العاهلين الكاثوليكين ولمشاهدة عجائب
قشتيلة . وكانت هذه فرصة ذهبية لكولمبوس كي يصيب منالاً من البلاط ،
ولكن انسانيته تغلبت عليه . وتذكر الطقس البارد الذي سيرافقهم في رحلة
العودة ومدى الاهانات التي ستعرض لها البناتان الجميلتان من البحارة وما
سيكون للتغيير الحياتي الكامل من تأثير في نفوس هؤلاء الابرياء . وبعد أن
تقبل كولمبوس ولاء الطاعة والاخلاص من رئيس القبيلة نحو الملك فرديناند
والملكة ايزابيلا ، أعادهم الى الشاطئ مزودين بالهدايا .

وفي التاسع من آب جلا الاسطول عن مورانت بوينت ، رأس جميكا الشرقي ،
وعبر الممر الواقع فوق الريح حيث شاهد رأس تيبورون في هايتي . ومع نهاية
الشهر وصل الاسطول الى صخرة ألتافيللا التي تشبه الشراع والواقعة في اقصى
نقطة جنوبية من اسبانيولا . وهناك جاءت حشود كبيرة من الهنود وأخبرت
الاميرال أن كل شيء في ايزابيلا يسير على ما يرام ، ولكن قولهم هذا كان بعيداً
عن الحقيقة . وبالقرب من موقع سانتو دومينكو أنزل كولمبوس فرقة مؤلفة
من تسعة رجال وأرسلهم عبر الجزيرة ليعلنوا نبأ قدومه .

سمى كولمبوس جزيرة ساوونا التي رست خلفها السفن الثلاث تفاديا لأعصار
هائل باسم بلد ضيفه المرح ميشيل دي كونيو .

وبينما السفن هناك ، حصل خسوف كلي للقمر في الرابع عشر من أيلول
وكان لدى كولمبوس تقويم يبين الوقت الذي حصل فيه الخسوف في نورومبرغ ،

فأخذ يسعى لمعرفة خطوط الطول من توقيت الخسوف في ساوونا . وهي عملية حسابية بسيطة اذا عرفنا ان كل ساعة من الوقت تعادل خمس عشرة درجة على الخارطة ، ولكن خطأ ما حدث ! فحسب الاميرال خط الطول بما يعادل احدى وتسعين درجة وثلاثين دقيقة غربي غرنيتش ، اكثر من المسافة الحقيقية بثلاث وعشرين درجة غربا ، أي بالقرب من شاطئ غواتيمالا على المحيط الباسفيكي . وكان من السهل على كولمبوس ان يقنع نفسه بعد اعتماده على هذه الغلطة الفظيعة ، بأنه كان يسير سيرا حسناً في طريقه حول العالم منذ ان ارتد عن كوبا .

وعزم الاميرال على القيام برحلة خاطفة الى بورتوريكو ، لكنه أصيب بمرض شديد بينما كان يعبر ممر مونا ودلت عوارضه على انه انهيار عصبي نتيجة قلة النوم والتبلل المتواصل بمياه البحر ورداءة الطعام ، وربما ظهرت عليه أيضاً بوادر اصابته بداء المقاصل ، الذي ضايقه جداً في السنوات العشر الاخيرة من حياته . وعندئذ عقد الضباط اجتماعاً قرروا فيه الانسحاق مع الريح الى ايزابيلا حيث لقت السفن الثلاث مراسيها في التاسع والعشرين من ايلول عام ١٤٩٤ . وهناك نزل الاميرال الى الشاطئ محمولا على اذرع بحارته .

ومع ان كولمبوس لم يعثر على امبراطورية الختان العظيم ، فانه حقق عملاً كبيراً خلال رحلة الخمسة شهور هذه من والى ايزابيلا . فقد اكتشف الجزر التي ظهر فيما بعد أنها أئن ما ملكته اسبانيا ، وكذلك اكتشف جيكا التي تعتبر أبهى جوهرة في تاج الامبراطورية البريطانية القديمة . كما أثبت بأنه لم يكن أقل اقتداراً في ارشاد السفن على السواحل والتنقل بين الجزر ، منه في رسم خطط السير عبر المحيط وقيادة الأسطول فوق المياه الزرقاء . كما ان معاونيه لم يكلوا من تعظيم مآثره في الملاحة وشدة حنوه عليهم وكذلك شهامته تجاه الاهالي المحليين !

الفصل الرابع عشر

الجحيم في اسبانيولا

كان النبأ الأول التي تلقاه الاميرال لدى نزوله الى البر في ايزابيلا نبأ طيباً . لقد وصل اليها اخوه بارثوليو الذي لم يره منذ ست سنوات . لم يكن بارثوليو قد تسلم الرسالة التي بعث بها كريستوفر اليه في فرنسا وأخبره فيها عن نجاح رحلته الأولى كما انه وصل متأخراً الى اسبانيا فلم يتمكن من الاشتراك بالرحلة الثانية ولكن الملك فرديناند والملكة ايزابيلا تأثراً جداً « بالدون بارثوليو » كما كانا يناديانه ، فوضعا تحت قيادته ثلاث سفن كبيرة لنقل المؤن الى اسبانيولا تلبية لطلب كولبوس .

طرب كولبوس لرؤية أخيه الذي كان شريكه في تنمية هذا المشروع العظيم كما كانت شخصيته متممة لشخصية كولبوس . فلم يكن بارثوليو رساماً ماهراً للخرائط فحسب ، بل رجل اعمال وإداري فذ يستطيع تنفيذ افكار أخيه العبقري . كان ذكياً دون ان يكون مثقفاً ، كان لغوياً ماهراً كما كان يمتاز باستعداد فطري للقيادة . كان مقل الكلام ، شديداً إزاء معاونيه ، ولكنه يفتقر الى « الرقة والرافة » التي لمسها لاس كاساس في تصرفات كريستوفر وفوق ذلك كله كان بارثوليو من النوع الذي يمكن الاعتماد عليه فلم يفقد رباطة جأشه أبداً ولا شعر مرة بالمرض ، بل جابه مواقف كثيرة غير منتظرة ، في البر والبحر

بحزم وثبات .

ومن المؤسف حقاً ان بارثوليو اخفق بالوصول الى السفن قبل اقلعها في الرحلة الثانية . لأنه ، لو كان باستطاعة أحد ان يتلافى الوضع المخيف في اسبانيولا ذلك الوضع الذي ساعد الاخ الأصغر ديجو الضعيف على تطوره بتصرفاته ، فلا شك أن ذلك الشخص كان بارثوليو . ومما يجدر ذكره القول بان الاخوان الثلاثة تعرضوا منذ البداية لعقبتين اثنتين الأولى انهم كانوا جنوبيين بينما كان المستعمرون اسبان . وكانت اسبانيا في ذلك الحين ، وربما لا تزال ، أشد الشعوب الاوروبية تمسكاً بالقومية ، كما لم يكن الاسبان الذين ذهبوا الى أميركا للبحث عن المجد والثروة غلاظاً فحسب بل غاية في الجشع وقلة الاعتدال . وقد كتب اوفيدو في « تاريخ جزر الهند » الصادر عام ١٥٣٥ يقول : « كان على كل حاكم من حكام اسبانيولا الاوائل ان يكون خارقاً وفوق مستوى الطبيعة البشرية ، لكي ينجح » . والثانية ان كريستوفر كان قد ارتكب غلطتين فادحتين سلفاً ، احدهما بتعيينه ديجو نائباً عنه والاخرى اطلاقه يد هوجيدا وبدرو مارغرت في داخل البلاد .

سمع ديجو اثناء غياب الاميرال عن القسوة والفظاعة التي يستعملها بدرو مارغرت فأرسل يأمره باصلاح أمره وما ان سمع الاسباني بهذا الامر حتى اغتاظ واندفع الى ايزابيلا مزجراً يطالب بسحب الامر والا ... وعندما لم يتلق جواباً انضم الى صفوف الساخطين الآخرين الذين استولوا على السفن الثلاث التي جاءت مع بارثوليو من اسبانيا ، وعادوا بها الى الوطن . وكان من بين زعماء العصاة ، الكاهن فراي بويل ، المسؤول عن اعمال التنصير ، والذي لم يفر بعملية تنصير واحدة بين شعب التينو بل كان دائم المعارضة لكل ما يفعله الاخوات كولمبوس .. ولما وصلت السفن الثلاث المسروقة الى اسبانيا في أواخر عام ١٤٩٤ ، ذهب فراي بويل تواً الى البلاط ليكيل الافتراءات ضد كولمبوس واخويه ، بينما أخذ صائغ من أشبيلية يصرح علناً أن جميع الذهب الموجود في اسبانيولا ليس ذهباً اصيلاً . وربما كان الغرض من هذه القصة تغطية موقف

العصاة الذين باعوا مسروقاتهم خلسة وبدون ان يسددوا نسبة العشرين بالمئة حصة التاج او حصة كولمبوس البالغة عشرة بالمئة .

وفي غضون شهر او شهرين من عودة كولمبوس الى ايزابيلا وصلت الى المرفأ أربع سفن تحمل كميات إضافية من الزاد والمؤن بقيادة انطونيو دى توريز الذي سلم الاميرال رسالة ودية من الملك والملكة الحا عليه فيها بالحضور الى إسبانيا لمساعدتها في مباحثاتها مع البرتغال بعد ان يعين أخاه أو أي شخص آخر حاكماً لاسبانيولا .

وكانت هذه فرصة كولمبوس ليدحض افتراءات بويل ومارغرت . لكنه لم يتحرك من مكانه ! إما لأنه كان يخشى الرحلة عبر المحيط بسبب مرضه او لرغبته بالسيطرة تماماً على الموقف المحلي قبل سفره ، وفوق ذلك ، فمن أجل أن يصدر كمية رابحة من البضائع الى الوطن ، وخصوصاً ان كمية الذهب المجموعة للتاج كانت ما تزال اقل مما يجب ! اتبع كولمبوس الآن السياسة المشدودة بحكمتها في جمع واستعباد الهنود الذين قاوموا رجال بدرو مارغرت . وكان كولمبوس قد أكد مراراً وتكراراً بان شعب التينو كان الطيف واساس وادبم شعب في العالم وان العاهلين قد اوصياه بصورة خاصة بان « يعاملهم بالمثابة » إذا تمردوا ... فيعاملون بقسوة ويخبرون بين الموت والعبودية .

وفي أواخر شباط ١٤٩٥ ، عندما كان توريز مستعداً للعودة الى ايزابيلا ، كان الاخوان كولمبوس قد حشدوا ألفاً وخمسمائة أسير هندي في ايزابيلا . ولم تستطع سفن توريز الأربع استيعاب اكثر من خمسمائة أسير منهم . فسمح الاميرال للاسبان في ايزابيلا بأن يختار كل منهم العدد الذي يريد من الباقين ، وصرف الباقي . وقد ذكر كونيو كيف انطلق هؤلاء الاسرى المتعساء من ايزابيلا الاسبان عندما أطلق سراحهم « حتى ان النساء تركن أطفالهن » هن بنهن وقنوطاً وخلاصاً من عذاب اكثر . لقد أصبحوا على الأقل أحراراً ، اسرى العبيد الذين ارسلوا لاسبانيا فقد ساءت حالتهم ، ومات منهم ماقتاً شخصاً في الرحلة وأصيب نصف الباقين بالمرض لدى وصولهم . وهناك انجازاً آخر

اشبيلية حيث شاهدتهم اندري بيرنالدين كاتب الاحداث يعرضون للبيع « عراة كما ولدتهم أمهاتهم » . وأضاف يقول انهم لم يكونوا صفقة رابحة إذ مات معظمهم بسبب عدم ملاءمة الحياة الجديدة لهم .

وكان من بين الأسرى الذين سيقوا الى ايزابيلا رئيس قبيلة يدعى غواتغوانا الذي تمكن من الهرب بقطع وثاقه قرضاً . وراح يسعى لتوحيد الهنود في اسبانيولا الذين كان يقدر عددهم بحوالي ٢٥٠ ألفاً ، ضد الاسبان . ومع ان جميع سكان الجزيرة كانوا من نفس الجنس والثقافة الا انهم عجزوا عن القيام بعمل موحد . اما الزعيم غواكنغاري في الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة فقد ظل مخلصاً لتحالفه غير المكتوب مع كولبوس . كما ان رئيسي قبيلتي كراغوا وهييجوي في أطراف الجزيرة الأخرى فقد اقنعا نفسيهما ان باستطاعتها البقاء على الحياد ، ومع ذلك ، فقد استطاع غواتغوانا ان يحشد جيشاً عرمرماً في فيجاربال للزحف على ايزابيلا . وقد أحسن الاسبان التصرف بأخذهم زمام المبادرة بالهجوم قبل ان يحاصروا ويؤخذوا على حين غرة . إذ زحف الاميرال وبارثولميو ومعها هوجيدا الى بورتودي لوس هيدا لغوس على رأس جيش قوامه عشرون خيالا وعشرون كلباً وحشياً ومائتا رجل من المشاة نصفهم مسلح بالبنادق .

ولقد أفرغت نيران هذه البنادق رجال التينو أكثر مما أوقعت فيهم من اصابات . ولكن عندما انقض هوجيدا على رأس فرقة الفرسان وسط الجموع المتراصة من الهنود ، وأفلت بينهم الكلاب المتوحشة انتهت المعركة بهزيمة كاملة للهنود . وكانت هذه أول معركة دامية بين البيض والهنود ، وقد وقعت في أواخر اذار عام ١٤٩٥ .

وتوج هوجيدا انتصاراته بالقبض على كاوتابو أشد رؤساء القبائل بأساً والمسؤول عن إبادة حامية نافيداد . وقد دعي هذا لزيارة ايزابيلا بصفة رسمية ، وأقنعه هوجيدا الذي قاده الى هناك بان يضع طقماً من الأصفاد والأغلال حول يديه باعتبار انها من الحللى الدارجة في اسبانيا . وعندئذ ألقى بالهندي التعيس في سجن ايزابيلا حيث كان يزجر ويصر على اسنانه « مثل الأسد » . وبعد ذلك

تقهر هوجيدا صهر كاوناو ، رئيس قبيلة كراغوا الذي كان يجهز جيشاً بقصد
التأثر لقريبه .

اتسع رأس الجسر الاساسي في ايزابيلا حتى شمل الجزيرة بأسرها . وقام
الأميرال نفسه بزحف مظفر عبر اسبانيولا التي استسلمت تماماً عام ١٤٩٦
وصار بوسع أي اسباني الذهاب الى حيث شاء والاستئثار بطعام الهنود ونسائهم
وذهبهم .

وقد أصبحت طريقة الاستيلاء على اسبانيولا نموذجاً احتذت به شعوب
اوروبية مختلفة للاستيلاء على المناطق الاميركية . والحقيقة ان هذا الاحتلال لم
يتم بسبب تفوق اسلحة البيض فحسب إذ كانت قوة النار في البنادق ومدافع
الميدان التي بلغ عددها حوالي الألف وخمسمائة ، ضعيفة كما لم يكن لتأثيرها أي
مفعول أكثر من السهام وقد استطاع بعض الهنود الذين يستعملون السهام
المسممة ان يبقوا البيض بعيداً عن معاقلم حتى الى ايامنا هذه . صحيح ان
الحيول والكلاب ساعدت المهاجمين على احتلال سلطنات الاهالي ، ولكن هذه
ليست القصة بكاملها - بل يعود السبب الأساسي الى ان الأوروبيين وجدوا
لأنفسهم حلفاء من بين السكان المحليين في كل اصطدام وقع ، بينما عجز الهنود من
الجهة الاخرى عن تحقيق وحدتهم . أما بالنسبة الى اولئك الذين كانوا أقرب الى
الشاطئ ، فقد قضى عليهم بالهزيمة فقدانهم لاية قوة بحرية . وكانت باستطاعة
الاوروبيين دائماً ان يؤلبوا قبيلة ضد اخرى ، حتى ان كولمبوس استخدم بعض
رعايا غوا كنغاري في صراعه مع غواتغوانا . وكان الاهالي الهنود احياناً - كما
حدث في نافيداد وبيلين - يتغلبون على حامية اوروبية بتفوق عددهم او يطبقون
على سفينة بأسطول من قواربهم الخشبية الصغيرة ، ولكن البيض كانوا يعودون
دوماً على ظهر المحيط - وريد الحياة بالنسبة اليهم .

انهمك الاخوان كولبوس طوال سنة تقريباً في اخضاع وتنظيم اسبانيولا سعياً
للحصول على أقصى ما يستطيعون من الذهب . فبنوا عدة حصون في الداخل ،
وأرسلوا الرجال المسلحين لارغام الهنود على تقديم أتاوة من الذهب بدلاً عن

تعرضهم للقتل . فكان على كل هندي بلغ الرابعة عشرة وما فوق ان يقدم ملء-
أربعة أجراس للصقور من التبر سنويا وكان على رؤساء القبائل أن يدفعوا ما
يعادل ٢٢٥ ، أو خمسة وأربعين جنيهاً من الذهب كل شهر . وكتب لاس كاساس
عن هذا المشروع فقال انه سخيف ، وممقوت ولا يطاق .

وبعد ان سلم الهنود جميع الحلى الذهبية التي تجمعت لديهم خلال عدة أجيال.
أصبحت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون بواسطتها تقديم الجزية هي الكد
المتواصل لاستخراج حبات الذهب من بين الحصى التي تجرفها الجداول أو
بتطهير الأرض من الاشجار وكسحها . حتى وبعد ان خفضت الأتاوة الى النصف
كان من المستحيل على معظم الهنود تنفيذ القانون ، فالتجأوا الى الجبال وراح
الاسبان يطاردونهم بواسطة الكلاب الضارية ، فمات الذين نجوا من التعذيب
جوعاً ، وتناول البعض الآخر سم الكاسافا ليضعوا حداً لمآسيهم وعذابهم .
وأخيراً كما سنروي ، استبدلت الأتاوة بنظام التعويض لكن الاستغلال استمر
بشكل آخر . ودل احصاء عام ١٥٠٨ ان ستين الف شخص ظلوا أحياء في عام
١٤٩٢ . هذا بالاضافة الى قيام الاسبان بغارات أخرى على جزر البهاما وكوبا
للحصول على عدد أكبر من العبيد . وبعد مضي خمسين عاماً لم يبق من الأهالي
الاصليين اكثر من ٥٠٠ شخص على قيد الحياة . وهكذا كان من نتيجة السياسة
البربرية التي دشنها كولمبوس واتبعها خلفاؤه من بعده ، انقراض جنس
السكان المحليين .

أثرت الوشايات التي نقلها فراي بويل ومارغرت وغيرهم ضد كولمبوس على
العاھلين فأرسلوا جون اغوادو أحد المستعمرين الذين عادوا الى اسبانيا برفقة توريز ،
للتحقيق في التهم ورفع تقرير عنها اليهما . فوصل الى ايزابيلا في شهر تشرين
الاول عام ١٤٩٥ على رأس اربع سفن محملة بالمؤن ، وبدأ فوراً بنشاط
ملحوظ . وعندئذ تأكد كولمبوس من انه كان من الأفضل له ان يعود
الى الوطن لرتق اخطائه السياسية . وكان عدد سكان الجزيرة الاسبان
قد تضاعف بعد ان احتشد معظمهم في ايزابيلا ، الى ٣٦٠ شخصاً ،

وذلك بسبب موت بعضهم بالأوبئة وعودة الكثيرين منهم الى الوطن . كما وقع عدد كبير من الذين تخلفوا فريسة المرض . بينما كان الجميع متذمرين ، ففي هذه الأرض الغنية الخصبة ، وهذا المناخ الجميل ظل الاسبان يعتمدون على المؤن المستوردة . ولم يكن واحد منهم ليكلف نفسه مشقة زرع الحبوب الا بالضغط وذلك ، كما قال كونيو « لان أحداً منهم لا يرغب بالعيش في هذه البلاد » ، وكان القسم الفعال الاعظم الذي يردد في ايزابيلا هو : « يشهد الله الذي سيوصلني الى قشتالة بانني أقول الحقيقة » .

مضى بعض الوقت قبل ان يتمكن كولبوس من الرحيل . واخيراً عين بارثوليو قائداً أثناء غيابه وامره بهجر ايزابيلا والبحث عن عاصمة جديدة على الشاطئ الجنوبي وقفل عائداً الى اسبانيا في العاشر من آذار عام ١٤٩٦ على ظهر السفينة نينا .

كانت هذه العودة من الرحلة الثانية تعيسة اذا قورنت بمظاهر الروعة والعظمة وضخامة المعدات التي تميزت بها عودة رحلة الانطلاق عام ١٤٩٣ . وكانت رفيقة نينا الوحيدة في هذه الرحلة سفينة تزن خمسين طناً تدعى إنديا - الهند - بنيت في ايزابيلا من حطام السفينتين سان جوان وكارديرا اللتين دمرهما الاعصار . كانت السفينتان مكتظتين بشكل خطر إذ احتشد عليهما ٢٢ إسبانياً وثلاثون عبداً هندياً بما فيهم رئيس قبيلة كاوناو الذي قضى نحبه في عرض البحر . بينما لم يزد عدد بحارتها على الخمسين .

وكان كولبوس تواقاً لأن يصل بأقصى سرعة الى الوطن ، ولكن عدد رحلات العودة التي تمت حتى الآن لم تكن كافية ليعرف الانسان أي السبل أسرع . وبسبب تأخره في الرحلة الطويلة شمالاً في عام ١٤٩٣ قرر الآن ان يتخطى الجزر الواقعة تحت الريح وكانت تلك أقصر الطرق على الخط اللوننجي ، ولكن ، ظهر بانها اطولها من حيث الوقت وذلك لاضطرار السفن الى مقاومة الريح الامامية معظم الطريق .

استغرقت السفن ١٢ يوماً لقطع اقليم مياه اسبانيولا واسبوعين للوصول الى

غواد لوب ، حيث قرر الاميرال لحسن الحظ تزويد السفن بالمؤن المحلية . وهنا التقت الفرقة الأولى التي هبطت الى الشاطئ بجيش من النساء الكريبيات مسلحات بالاقواس والسهام فاستنتج الجميع أن هذا المكان لم يكن سوى جزيرة الامازون وقد فهموا ذلك من أقوال امرأة القوا القبض عليها وادعت ، كما سجل فرديناند كولبوس ، ان الجزيرة مأهولة بالنساء فقط ما عدا أربعة رجال من جزيرة أخرى حدث وكانوا هناك الآن بطريق الصدقة ، وانهم - أي الرجال - يأتون الى الجزيرة في وقت معين من السنة بقصد القنص والاضطجاع معهن . ولكن لم يكن شيء مما قيل صحيحاً سوى ان النسوة كن ماكرات حاذقات إذ كان أزواجهن يصطادون في مكان آخر من الجزيرة ! ولم ينجح الاسبان بإرغام الرجال على تزويدهم بجذور الكاسافا إلا بعد ان قبضوا على ثلاثة اولاد وعشر نساء كرهائن ، كانت إحداهن زوجة رئيس القبيلة . وهذه الجذور لو أعدت كما يجب ، وأزيل السم منها كما أوضح الهنود للاسبان لغدت صالحة لصنع خبز مغذ ولذيذ الطعم أفضل بكثير من وجبة الذرة الهندية . وقد صرح كولبوس ان زوجة رئيس القبيلة وابنتها تطوعتا لمرافقته الى اسبانيا ، وأنه وافق على ذلك .

غادرت السفينتان نينا وانديا (الهند) غوادلوب في العشرين من نيسان عام ١٤٩٦ . ولم تصلنا أية ايضاحات عن تفاصيل الرحلة خلال الشهر الذي تلا سوى انها كانت بطيئة جداً انقضى معظمها في مقارعة الريح . وبعد مرور شهر في عرض البحر خفضت الجعالة لجميع البحارة الى ست أونسات من خبز الكاسافا وقدر من الماء في اليوم . وفي ذلك الوقت ، شاءت لهم العناية الالهية الا يدركوا هبوب النسيم الغربي جنوبي جزر الازور ، ولكن جوعهم كان يزداد يوماً . فاقترح بعض الاسبان ان يأكلوا الهنود مبتدئين بالكريبيين الذين كانوا انفسهم من اكلة لحوم البشر ، مدعين بانهم لا يرتكبون أية خطيئة بمعاملتهم بالمثل ، (اذا دفعوا لهم من نفس العملة) . واقترح آخرون ان يلقوا بجميع الهنود في البحر توفيراً لما يستهلكونه من مؤن . ورد كولبوس في احدى لحظاته

الانسانية بان الكريبيين بشر ويجب معاملتهم على أساس ذلك ، وقبل وصولهم الى اية نتيجة في مناقشتهم وجدوا أنفسهم في الثامن من حزيران على الشاطئ البرتغالي وعلى بعد ٣٥ ميلاً شمالي رأس القديس فينسنت حيث كان يقصد الأميرال . كان هناك العديد من المرشدين على ظهر السفينة وكانوا جميعهم يعتقدون بانهم ما زالوا بعيدين مئات الاميال عن الشاطئ ومئات الاميال شمالي مركزهم الحقيقي . ولكن نجاح كولمبوس باصابة اليابسة « على أنفها » تقريباً بعد اسابيع ستة في عرض البحر التزم طواهلها خطة متعرجة جعل جميع افراد عشيرة البحارين يعترفون بقدرته الخارقة على الملاحة الدقيقة الحاسمة . والغريب ان الشكوك الوحيدة التي تثار حول قدرته تلك ، تثار فقط من قبل اميرالات اليوم المترعين على الكراسي الوثيرة وملاحى الكتب الحديثة .

وفي اليوم الحادي عشر من حزيران عام ١٤٩٦ انتهت الخطوة الأخيرة من رحلة كولمبوس الثانية الى اميركا في خليج قادس . نشر الاسطول جميع الأعلام الموجودة لديه ورفع كافة الدريات المزخرفة لاضفاء أقصى ما يمكن من مظاهر الاقدام على السفن ولكن المشهد ظل كثيباً محزناً بمشهد الهنود البائسين والركاب الاسبان الذين وصفهم أحد المتفرجين بقوله : « تراءت أجسادهم هزيلة ووجوههم بلون الزعفران » .

مضت سنتان وتسعة شهور على مغادرة اسطول الأميرال العظيم المؤلف من سبع عشرة سفينة ، مدينة قادس بقلوب قوية وآمال عظيمة لانشاء محطة تجارية ولمعرفة مكان امبراطور الصين - وكان ذلك من وجهة نظر الاسباني العادي الذكي مجرد أوهم وبدا كولمبوس الآن في اعينهم كحالم لجوج غير عملي . فلم تكن كوبا جزء من الصين وكان باستطاعة كل من تحدث مع فرد من أفراد حملة الاستكشاف ان يتأكد من ذلك ، كما أضحت جزيرة ايزابيلا مستودعاً تنبعث منه رائحة العفونة ، هجره الاخوان كولمبوس أنفسهم بدلاً من محطة ميناء البرتغالية على الشاطئ الذهبي من افريقيا ، وعوضاً عن منجم الذهب الموعود في سيباو اكتشفوا وجود كميات ضئيلة منه مبعثرة هنا وهناك فوق

الجزيرة لا يمكن استخراجها الا بواسطة العمال العبيد . وبدلاً من بساطة العصر الذهبي وأمنه أخذ الاهالي يظهرون الرغبة بالقتال . حتى الأمل بقبول الهنود فكرة الخلاص والفوز بالحياة الابدية قبل الموت ، حتى هذا الأمل تلاشى ، إذ لم يجر تنصير أحد منهم سوى اولئك الذين أخذوا الى اسبانيا . وبلغ صراخ الاسبانيين العائدين الى الوطن واحتجاجهم على الاخوان كولمبوس مبلغاً كاد يغري العاهلين بالاطاحة بهم ، ونسيان كل شيء عن جزر الهند . وكانت من المحتمل ان يفعلوا ذلك لولا انها سمعان الملك البرتغالي على وشك تجهيز حملة جديدة الى الهند وان هنري السابع ملك انجلترا أخذ يبدى اهتماماً كبيراً باكتشاف طريق عبر المحيط الى كاتاي .

لذلك تقرر التمسك باسبانيولا ولو بقصد ابقاء الخصوم بعيداً فقط !

الفصل الخامس عشر

الرحلة الثالثة الى اميركا

ظل تقلب الظروف من سيء الى أسوأ بالنسبة لـ كوليوس أحجية مربكة له ! فقد كان يقوم بواجباته الدينية بانتظام ، وكان يناشد الله لا في لحظات التجلي فحسب بل وفي كل يوم — ومن المؤكد ان الله كان يريد لاسبانيا ان تهدي الهنود الى الدين الحقيقي !؟ لماذا اذن تعبس العناية الالهية في وجه مشاريعه ؟ لقد خدم العاهلين باخلاص واحترم كل ما كانا يريدانه وحافظ على مصالحهما وكسب لهما ملكاً جديداً فيما وراء البحار . لماذا اذن يصغيان « لفراي بويل » ويرسلان هذا الشاب اغوادولييهينه ؟! لقد قام بكافة الاستعدادات العملية فحافظ على متانة سفنه وحيوية بمارته وجفاف باروده ، ومع هذا يبدو الآن ان كل اسباني أصبح مناوئاً له لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لقد وجد العزاء في كتاب ايوب ، ولكنه لم يجد الحل . ربما كان ذلك بسبب إنزلاقه في أحضان خطيئة الكبرياء الشنيعة بعد رحلته الأولى إذ أخذ يرتدي الملابس التي تليق برتبة الاميرالية بصورة مفرطة — ويشعر بلذة كبيرة في رفقة الباذخين وتناول المأكولات الدسمة وشرب الخمر النادرة ؟ من المسلم به ان الكبرياء خطيئة مميتة ! وهكذا ، اتخذ لنفسه حال وصوله الى قادس ، وبصورة دائمة فيما بعد ، رداء بنياً خشناً كالذي يرتديه رهبان الفرنسيكان رمزاً لاثبات ندمه وتواضعه . وبدلاً من قبول الدعوات الى

القلاع والقصور ، ذهب للعيش في بيوت الدين بالرغم من مساكنها الفظة وطعامها الخشن . وبينما كان ينتظر أمراً ملكياً للمشول الى القصر ، اقام مع كاهن يدعى اندرى برنالدز ، الراعي الخاص لمطران مدينة اشبيلية . وربما كان كولمبوس بسيطاً في عاداته حباً بالتظاهر ، ولكنه كان يدرك تماماً أهمية الشهرة والظهور للتأثير على الاسبان . لا سيما وأنه لم ينفذ يديه بعد من العالم الجديد . وهكذا ، عندما تسلم دعوة لطيفة من العاهلين لزيارتها ، أقدم على تنظيم موكب مؤثر آخر . ورافق الاميرال ركوباً على ظهور البغال كل من شقيق كاوتابو الذي تنصر على يد برنالدز باسم دون ديجو وشخص آخر من افراد عائلة رئيس القبيلة . كما مشى الخدام في المقدمة يحملون الاقفاص وفيها عدد من الببغاوات الظرفية الالوان والتي كان لزعيقها دعاية ناجحة تليق بلقب بارونوم^(١) . وكانوا كلما اقتربوا من احدى المدن يتناولون من الاخراج عمرات الرأس المصنوعة من الريش وبعض الحلى الذهبية ليزينوا بها الهنود . وكان دون ديجو يضع حول عنقه طوقاً من الذهب يزن تقريباً ٩٠ نسراً^(٢) مزدوجاً أو ٣٦٠ جنيه ذهبياً ، ويضع على رأسه تاج كاوتابو . وقد وصف برنالدز ذلك التاج بأنه كان « كبيراً جداً وطويلاً ، مع أجنحة على جوانبه تشبه الدرع وعيون من الذهب بحجم فنانجين الفضة » وقد نحتت عليه صورة تشبه انساناً غاية في البشاعة جعلت برنالدز يقول بأنها صورة الشيطان . ومن سوء الحظ ان لا يبقى شيء من هذه الأشياء الثمينة التي أحضرها كولمبوس الى الوطن ، فقد صهرت جميعها . ولكن عدة نماذج عنها استخرجت من بعض البلدان الكريبية ويمكن مشاهدتها في متاحف اوروبا وأميركا .

وجد كولمبوس الملك والملكة في « فالادوليد » وبرفقتها ولداه ديجو وفرديناند ، وصيفي الملكة آنذاك وقد جاءا للترحيب به هناك . استقبل كولمبوس بلطف خصوصاً بعد ان قدم للعاهلين قبضة من حبات الذهب بحجم

(١) اسم عارض اميركي شهير ، يطلق الان على محي ومتكلمي المظهر .

(٢) عملة ذهبية اميركية تساوي ١٠ ريالات

بيض الحمام . وفي الحال قدم لها التماساً بتجهيزه لرحلة ثالثة . وطلب خمس سفن محملة بالمؤن لاسبانيولا ، وثلاث سفن لنفسه للبحث عن قارة جديدة قال : « ان ملك البرتغال يعتقد بوجودها في المحيط جنوبي أو شرقي جزر الانتيل ، وان وجودها ثبت من التلميحات التي حصل عليها من الهنود » .

كان جون الثاني ملك البرتغال الكثير المطالعة والحاذق في الشؤون الجغرافية قد تأثر ببعض المؤلفين أمثال فينسنت البوفاري وأسيدور الأشبيلي اللذين تكهننا بوجود جزء رابع من الدنيا (الانتيودس) جنوبي خط الاستواء لحفظ التوازن مع القارة الافريقية . مات جون ولكن اعتقاده بوجود مثل هذه القارة حفزا فرديناند وايزابيلا على التفكير بالوصول الى هناك اولا وخصوصاً بعد ان علما بأن مانويل المحظوظ ، خليفة جون ، كان دائماً على تجهيز حملة كبيرة عبر البحار .

والجدير بالذكر ان كولمبوس لم يستطع الحصول على شيء من العاهلين سوى الوعود الى أن جاءت الاخبار من البرتغال بأن فاسكودي غاما على وشك الرحيل وان وجهة سفره سرية . اذن ربما كان يعتزم البحث عن الجزء الرابع من الدنيا !

أكد فرديناند وايزابيلا ، في الفترة الواقعة بين آخر نيسان ومنتصف حزيران عام ١٤٩٧ جميع حقوق كولمبوس وألقابه وامتيازاته وأمره بتجنيد ثلاثمائة مستعمر للذهاب الى اسبانيولا على نفقة التاج . وكانت الرواتب تتراوح بين ١٤ سنتاً للعامل العادي أو الجندي وبين ٤٢ دولاراً ذهبياً في السنة اجرة المزارعين والبساتنة ، بالإضافة الى ٨ سنتات في اليوم بدل اغتراب . وسمح لكولمبوس ايضاً بتجنيد ثلاثين امرأة لمرافقة الحملة بدون راتب أو نفقات . وكان ينتظر منهن العمل في ما يخصهن ، ثم الزواج عند الوصول . ولولا أن توريز سبق وأحضر معه بعض النسوة الى اسبانيولا في عام ١٤٩٥ ، لكانت هذه المجموعة النسوية أول مجموعة نساء مسيحيات يذهبن الى العالم الجديد . وأصدر العاهلان أمراً عاماً بالعفو عن المجرمين السجناء عدا المدانين منهم بجرائم.

كبى كالحيانة والهرطقة ، وذلك مقابل مرافقة الاميرال الى جزر الهند والبقاء معه هناك لسنة أو سنتين . كانت سمعة اسبانيولا قد وصلت الى الحضيض بحيث كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لكسب مهاجرين جدد الى الارض الموعودة . وهكذا أرسل كولبوس هؤلاء رأساً الى اسبانيولا ، الأمر الذي جعله يشعر بالندم ، فيما بعد .

مضى اثنا عشر شهراً جديداً قبل ان تمكن كولبوس من إنجاز جميع ترتيباته وذلك بسبب وعود العاهلين العرقوبية وافتقارهما الى الأموال النقدية . ولأن أحداً غير السجناء لم يرض بالاشتراك في الحملة الى اسبانيولا قبل الحصول على راتب مقدم . وقد تم جمع قسم من المال من بيع شحنات من الهندو الذين جلبهم الونسو نينو لدى عودته عام ١٤٩٦ .

اقلعت السفينتان نينا وإنديا في كانون الثاني عام ١٤٩٨ متوجهتين الى اسبانيولا ، كما استؤجرت ثلاث سفن أخرى لا تعرف أسماءها ، للسفر الى اسبانيولا رأساً حاملة المؤن بقيادة الونسو دى كرفجال الذي كان قد ترك عمله كرئيس لبلدية بازا ليقود سفينته في الرحلة الثانية ثم أصبح أحد أخلص قباطنة كولبوس . اما السفن الثلاث التي ادخرها كولبوس لرحلته الاستكشافية فكانت سفينتين كبيرتين وسفينة القيادة التي بلغ حجمها حجم سانتا ماريا الأصلية تقريبا ولم يكن كولبوس يشير اليها باسمها أبداً ، بل اكتفى بتسميتها « لاناو » - السفينة - لكي يميزها عن السفينتين الاخرين . وكانت احدهما الكبرى تدعى لافكوينوس وتبلغ حمولتها ٧٠ طناً بينما دعيت الصغرى التي كانت أسرع ، إل كوريو . واجه الأميرال صعوبات جمة في تجهيز هذا الاسطول الصغير نظراً لان معظم هذه التجهيزات كان لا بد من استدانته . كما حدث بينه وبين فونيسكا ، المسؤول المباشر عن التجهيزات ، عدة منازعات ، وفي احدى المناسبات اغتاز كولبوس جداً من هذا الممون الماكر للسفن فضربه ضربة طرحته أرضاً .

تجمعت سفن كولبوس الثلاث مع السفن الاخرى بقيادة كرفجال في

أشبيلية وأبحرت في آخر اسبوع من أيار عام ١٤٩٨ أي في نفس الاسبوع الذي وصل فيه فاسكودى غاما الى كلكوتا في الهند . وبعد ان هبطت نهر غواد . لكويغر ألقت مراسيها في ميناء القديس لوسار دى باراميدا حيث صعد الاميرال الى ظهر سفينة القيادة ... وفي ٣٠ أيار ابتدأت الرحلة الثالثة الى اميركا .

قرر كولبوس هذه المرة أن ينحرف جنوبا اكثر من المرات السابقة وذلك بقصد اكتشاف القارة التي تحدث عنها الملك جون البرتغالي ثم البحث عن ذهب . اكثر ، فكما سبق ورأينا الاعتقاد السائد ، أن الأشياء الثمينة تكثر قرب خط الاستواء . وهكذا وضع خطته كي ينحدر الى خط العرض المزعوم المسمى « بسيراليون » حيث وجد البرتغاليون ذهب غينيا الأصيل ، ثم يتجه غربا . وكان الاميرال يعرف تمام المعرفة أن عليه ان يحقق شيئا مثيراً في هذه الرحلة أو ان ينتهي مشروع جزر الهند بأكماله الى الفشل والامهال . وكثيراً ما كان كولبوس يقارن نفسه بداوود الذي أمر بتحقيق المهام الجسام ، فكان كلما حقق المطلوب منه يزداد غضب شاول عليه .. لقد اكتشف طريقاً جديداً لجزر الهند ، ولكن ذلك لم يكن كافياً . لقد قاد اسطولا عظيماً الى اسبانيولا واقام مستعمرة واكتشف جزر الانتيل الصغرى وبورتوريكو ، وجميكا وارتاد كوبا .. ولكن ذلك لم يكن كافياً . وعليه الان ان يكتشف ذهباً اكثر وقارة كاملة ! (الامر الذي حققه - ولكن حتى ذلك لم يكن كافياً) ..

طبعاً لقد كان باستطاعة الاميرال ان يعتزل العمل بعد عودته من رحلته . الثانية في تقاعد بلقب وقلعة وراتب تاركاً بارثوليميو او غيره يحكم اسبانيولا ، ولكنه لم يكن من ذلك الطراز من الرجال الذين يتخلون عن العمل ، ولو كان كذلك لما سمعنا به ابداً .

كان اول ميناء وصل إليه في هذه الرحلة هو فونشال في جزر الماديرا حيث أقام زمناً وهو شاب ، وحيث استقبل الآن استقبال الابطال . ومن هناك أبحر في رحلة ٣ أيام الى مرفأ القديس سبستيان في غوميرا .. ويتضح من مجرى الأحداث ان غرامه بالدونا بياتريز قد انطفأ نهائياً اذ لم يذكر.

أحد ممن وصفوا تلك الزيارة لعاصمة الدونا شيئاً أكثر من القول : « وهناك تزودنا بالخبز » .

وفي غوميرا انفصلت سفن كرفجال الثلاثة المتجهة الى اسبانيولا عن باقي الاسطول . وكانت إحدى هذه السفن بقيادة غيانيتو كولمبو ابن عم الاميرال . وقد أصدر الاميرال تعليماته لهذه القافلة بالاجار غرباً جنوباً باتجاه دومينيكا التي وصلوها حسب الارشادات ، ولكنهم فيما بعد ، قابلوا بعض المشاكل كما سرى .

ومن جزر الكناري انطلق كولمبوس باتجاه جزر رأس فيردى قاطعاً ٧٥٠ ميلاً في ستة ايام ، وتوقف لفترة قصيرة في ميناء بوافيستا لتخليع لحوم الغنم - اللحم الوحيد الذي وجدوه في الجزيرة . وفي ١ تموز وصل الى « ساوتياغو » بأمل العثور على بعض المواشي الحية لتربيتها في اسبانيولا . وبعد اسبوع قضاه في طقس حار جداً سبب مرض الكثير من رجاله ، غادر الميناء بدون ماشية . هدأت السفن لفترة ثلاثة ايام على بعد النظر من فوغو بسبب هبوط الريح . ولكن ما كاد يحل اليوم السابع من تموز حتى هبت الرياح الموسمية . واتجه كولمبوس الى الغرب الجنوبي بحثاً عن خط سير مواز لخط سيراليون ولكن سرعان ما اخذت الريح بالهبوط تدريجياً حتى هدأت تماماً في ١٣ تموز ، ولم يكن الاسطول قد تجاوز خط العرض الواقع على الدرجة التاسعة والدقيقة الثلاثين شمالاً وخط الطول ٣٩ درجة غرباً . ووجد كولمبوس نفسه في منطقة هدوء الريح حيث اخذت سفن الاسطول تندفع مع تيارات منطقة خط الاستواء . طوال ثمانية ايام بينما ظل البحارة المساكين متدثرين بشياهم الصوفية الثقيلة . لا اعتقادهم ان خلع الثياب والتعرض لأشعة الشمس في تلك المنطقة ليس سوى عملية انتحار ! واستفاد الاميرال (حسبما اعتقد) من فترة الهدوء لمراقبة نجمة الشمال بمنظاره ، ولكنه ارتكب اخطاء كثيرة كعادته عند استعماله الملاحة الفلكية واستنتج أنه على الدرجة التاسعة شمالاً ، أي أبعد بمئتي وخمسين ميلاً الى جهة الجنوب من موقعه الحقيقي . وقد سر لا اعتقاده بأنه على الدرجة الخامسة لسبب غريب . فقد ذكر احد ملاحى الملك جون البرتغالي قبل عدة سنوات

تخلت بانه قاس خط العرض لجزر لوس قرب سواحل سيراليون ووجد نفسه على الدرجة الخامسة شمالاً . تماماً كما صدق كولمبوس نفسه الآن .

والغريب ان هذا الملاح البرتغالي وصل الى ذات النتيجة الخاطئة التي ارتكبها كولمبوس . اما موقع جزر لوس الحقيقي فعلى الدرجة التاسعة والدقيقة الثلاثين شمالا اي قريباً جداً من موقع الاسطول ... وهكذا كان الاميرال بالفعل حيث اراد ان يكون (ولكن لسبب آخر) وكانت النتيجة الوحيدة لحطئه باربع درجات ونصف ان عدلت حساباته اللاحقة المخطوءة عن خطوط العرض .

هبّت في ٢٢ تموز رياح موسمية جديدة من الشرق والشرق الجنوبي فاشتدت الحبال المرتخية وانتفخت الاشرعة المتدكية واندفعت السفن بسرعة بينما سقطت درجة الحرارة وعاد البحارة ، الذين ظنوا بانهم سيهلكون في وسط المحيط (إذ لم يسبق ان جرب احدهم مرور ايام طويلة على هبوط الريح) الى حديث الذهب الذي سيعثرون عليه . ورسم الاميرال خط السير باتجاه الغرب واندفع الاسطول طوال ٩ ايام قاطعاً ٦ عقد بحرية او اكثر في اليوم الواحد بمساعدة دفعات وافرة من الرياح الموسمية .

وكانت هذه المرحلة من الرحلة بهجة خالصة للاميرال ورجاله .. ولقد تحققنا من ذلك يوم تبعنا خط السير نفسه بسفينتنا كابيتانا . كان الاسطول يندفع بسرعة رائعة طوال الليل والنهار .. ومع ان السفن تمايل عادة كثيراً في الرياح الموسمية إلا ان الريح البديعة الثانية التي كانت تزغرد بين القلوع والبحر الزمردي المتوج بالزبد الأبيض ، وتدفق المياه على جوانب السفن وتتابع الغيوم الحقيقية تدفعها الرياح الموسمية ... كل ذلك يرفع من معنويات البحارة ويجعلهم يهتفون وينشدون .. وقد اطلق البحارة الاسبان القدامى على هذه المياه اسم « غولغو دي لادام » ، أي بحر السيدات ، لسهولة الملاحة فيه ولطف الطقس وأنسه ... وقد يصدق ان تظهر غيمة سوداء من مهب الريح ولكن مرعان ما تختفي بعد زخة مطر قصيرة دون ان تترك أثراً ضاراً . وقد تمضي ايام دون

أية حاجة للعناية بالحبال والأشرعة والواح المعدن الا بتغيير امكنة العقد لئلا تبلى من الاحتكاك . والسماك والدرافيل تلهو بالمياه من حولك بينما تحلق فوقك الطيور البحرية كطيور النوء وامثالها في زيارات قصيرة ، وفي الليالي التي يختفي فيها القمر كانت الاشرعة تبدو كأشباح سود تنتصب أمام السماء المرصعة بالنجوم وكلما ابتعد الاسطول جنوباً تتلأأل نجوم وأبراج جديدة في كبد السماء - سهيل والجدي وبرج السفينة بصليبيها الكاذب وبرج الصليب الحقيقي الى الجنوب منه .

وكان كولمبوس قد شاهد هذا البرج من اسبانيولا في شتاء العام الماضي غير ان معظم رجاله كانوا حديثي عهد بالمياه الجنوبية وباستطاعتنا تصورهم وهم يتكئون فوق حاجز السفينة مأخوذين دهشة ، يرون في مياه البحر المضيئة بريق الذهب في جزر الهند .

لا بد للبحارة من ان يجدوا شيئاً يتذمرون منه .. وكان هذا الشيء هذه المرة الرياح الطيبة التي كانت تدفعهم برفق وسرعة ، فأخذوا يقولون .. كيف يمكن ان نعود الى الوطن اذا استمر الأمر على هذا الحال ؟!

ومع ان حسابات الاميرال كانت تبعث على الأسى إلا أنه كان يسير بالاتجاه الذي اراده . ويعرف تقريباً أين هو بالضبط بالنسبة لاكتشافاته في الرحلة السابقة . وفي ٢١ تموز أعلن بانه على خط جزر الانتيل الصغرى .. وكان هذا الادعاء صحيحاً .. وبسبب النقص الكبير في المياه العذبة لدى الاسطول ، قرر الصعود شمالاً للتزود بالمياه من دومينيكا أو أي جزيرة أخرى من جزر الكريب ، وفعلاً غير الدفة باتجاه الشمال الشرقي .. ولو استمر على السير بهذا الاتجاه لوصل حتما الى جزيرة بربادوس أو توباكو .

وعند ظهر ذلك اليوم صاح خادم الاميرال ، ألسوبريز ، وكان قد صعد الى أعلى السفينة ، صاح قائلاً انه شاهد ارضا باتجاه الغرب على شكل ثلاث تلال . والحقيقة اننا شخصياً وصلنا على الكابيتانا الى بعد ميل أو ميلين من المكان الذي رسا بقربه كولمبوس وذلك بعد مسيرة ٢٠ يوما من جزر الكناري .. وقد صرخ المراقب من عل « امامنا ثلاث تلال يا سيدي » ثم اخفتهم عنا سحابة ثقيلة وبعد

ساعة واحدة ابتهجت انظارنا برؤية التلال ذاتها التي بدت في آخر يوم من شهر تموز عام ١٤٩٨ فألاً حسناً لكولمبوس الذي كان قد وضع رحلته هذه تحت حماية الثالوث المقدس ، وهكذا ودون تردد ، أطلق على الجزر الثلاث اسم « ترينداد » .

غير الأميرال خط سيره ليقترّب من اليابسة ، وبعد قليل شاهد الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة ، فسماه رأس لاغيرا اذ بدت قمم صخوره شبيهة بالأشعة المثلثة بينا الخطوط المنحرفة على الصخور كانت تشبه صفاً من المجاذيف . وفي الساعة التاسعة مساء وقد كاد القمر يكتمل بدرأ مرت السفن بهذا الرأس وانطلقت منه باتجاه الغرب طوال الليل .

استمر الأميرال مندفعاً بموازة الساحل الجنوبي ، طوال اليوم التالي أي اول يوم من آب باحثاً عن خليج يقع على مصب نهر .. ويعرف هذا الموقع اليوم باسم خليج إرين حيث ينساب نهر عذب بارد مخترقاً الشاطئ الى المحيط . واندفع الرجال الى الشاطئ حيث اغتسلوا بالمياه العذبة نافضين عن أجسامهم طبقات الملح والعرق المتراكمة وقضوا وقتاً جميلاً بالصراخ فرحاً والتراشق بالمياه ثم الزعيق في أرجاء الغابة عسى بعض الفتيات الجميلات يلين النداء .

وقبل دخول الاسطول خليج إرين شاهد كولمبوس ولأول مرة القارة الأميركية الجنوبية دون ان يعرف ذلك ، فقد شاهد رأساً منخفضاً عرفنا نحن انه كان رأس بومبيدور في فنزويلا بينا ظنه هو مجرد جزيرة أخرى .

كان خليج إرين لا يقدم حماية كافية ضد الرياح فرفع كولمبوس مراسيه في ٢ آب وأبحر عبر بوكادي دي سيرب الى خليج باريا العظيم الواقع بين ترينداد والبر الأميركي ولا بد انه أبحر هناك في مياه هادئة اذ لم يأت على ذكر التيارات التي تدور بشكل خطر حول الصخرة القائمة في وسط الممر والتي تربك وتعوق سير البواخر الآن . وأخيراً ألقى مراساته في موضع محجوب عن الريح في طرف ايكاكوس في ترينداد وأمر جميع البحارة بالنزول إلى البر بالتناوب لقضاء بضعة أيام بقصد الراحة . وهكذا متع البحارة انفسهم بالصيد وجمع القواقع بينما

انشغل الاميرال بسبر غور مياه بوكا مندهشاً لقوة وسرعة التيار عند اكتمال المد والجزر .

وكان الاتصال الوحيد الذي تم مع المواطنين هنا مثيراً للضحك والغم على السواء ... كان الاميرال يأمل ويرجو أن يجد هذه المرة المتمدين الصينيين أو زنجياً مقتدرين كسكان الساحل الذهبي على الأقل .. ولكن عندما دنا قارب محفور من جذوع الشجر من سفينته شاهد لحيبة أمل هنوداً ذكوراً عراة يشبهون تماماً هنود جزر الكريب الا انهم لحسن الحظ كانوا اكثر تهديباً وألطف اخلاقاً - وشعر بعزاء قليل عندما عرف انهم يرتدون خرقاً قطنية تشبه تلك التي حصل عليها البرتغاليون من سيراليون . وتبعاً لنظرية أرسطوطاليس القائلة بأن المناطق الواقعة على نفس خط العرض تنتج ذات الأشياء ، تأكد من العثور على ذهب غينيا على بعد خطوات منه ! وعلى أمل البدء بتجارة المقايضة أمر الاميرال بعرض بعض الحلل النحاسية وغيرها من الأواني البراقة على حواجز السفن .. ولكن الهنود لم يأبهوا بهذه الأواني العادية للبيت الأوروبي .. عندها حاول الاميرال ان يقيم مسرحاً للفت أنظارهم فأمر عازف « المنجيرة » بالعزف وضارب الدف بالهز والبحارة بالرقص . ولكن الهنود ظنوا أنها رقصة الحرب وأجابوا عليها بزخة سخية من السهام التي لم تصب أحداً .. وكانت هذه آخر مرة يرى فيها الاسبان أحداً من هنود ترينداد .

الفصل السادس عشر

عالم آخر

وفي الرابع من آب ، وبينما كان الاسبان يرفعون مراسي السفن تأهباً لارتداد الخليج اصابهم أعظم فزع اختبروه في حياتهم . فقد اندفعت موجة هائلة ناجمة عن انفجار بركاني ، تهدر عبر البوكا وقذفت بمرساة السفينة فكوينوس بعيداً ورفعت سفينة القيادة الى علو شاهق لتتركها تسقط في لجج اليم الى مسافة خيل للبحارة انهم رأوا فيه قعر المحيط .

قرر الاميرال ان المكان لا يصلح للبقاء فتركه بعد ان سماه « قم الثعبان » واندفع شمالاً يجذبه منظر الجبال في شبه جزيرة باريا .. وبينما كان يقترب من الطرف الآخر لشبه الجزيرة شاهد المنظر الرائع الذي يحيط بالبحار اليوم ... وخلف السفينة اضطجع الخليج الهادئ تراءى سواحله تحت خط الافق .. وباتجاه الغرب .. تحت الشمس الغاربة امتدت سلسلة من الجبال والرؤوس الوعرة والى جهة الشرق انتشرت الجزر العالية المتجزئة التي تفصل « البوكاس ديل دراغون » الشهيرة وخلفها بدت رؤوس جبال ترينداد سلسلة بعد سلسلة .. وفي أقصى الشمال الشرقي شاهد كولمبوس ، وقد كان المساء صافياً ، جزيرة ... لا بد أنها كانت توباكو . والحقيقة اننا استطعنا نحن أيضاً مشاهدتها في رحلتنا عام ١٩٤٠ من قمة سفينتنا كاييتانا وهي تتهادى قرب المكان الذي شاهدها منه

كولمبوس عام ١٤٩٨ . هذا بعد ان أكد لنا احد ربابنة المكاتب أن من المستحيل رؤيتها من ذلك البعد .

ألقي الاميرال مرساته تلك الليلة في باهيا سيلست بقرب طرف شبه الجزيرة . وفي صباح اليوم التالي بدأ ارتياد ساحلها الجنوبي على طول الخليج حيث تنتشر المرافق بكثرة ، ويبدو ان كولمبوس اختار اجملها كمرسى ، وهو موقع انسدادا باكو - فجوة صغيرة مستديرة بساحل رملي تحيط به أطراف صخرية . وهناك وجد بيتاً من قش وموقد نار . أما السكان فقد هربوا واحتلت بيوتهم قطعان من السعادين اخذت تثرثر بغضب لدى مشاهدة الاسبان .. وكان هذا اول مكان تطأه أقدام كولمبوس ورجاله من البر الاميركي ، بل اول مرة تطأه قدم أي اوروبي منذ أيام رحلات الفنلنديين الأولى ، اللهم إلا اذا كان جون كابوت قد وصل الى نوفاسكوشيا في الصيف السابق ! الأمر الممكن !.. وكعادة الاميرال لم يعرف ما اكتشفه... وظل يعتقد ان شبه جزيرة باريا عبارة عن جزيرة.. وكان ذلك في يوم الاحد الموافق ٥ آب ١٤٩٨ .

أما ولم يكن في المنطقة غير القردة فقد أجل كولمبوس مراسيم اعلان ملكية اسبانيا للاكتشاف الجديد الى يومين آخرين عندما ظهرت على مصب نهر ريو غوريا جماعة من المواطنين المسلمين .

وكان الاميرال نفسه يعاني ألماً في عينيه ظل بسببه على ظهر السفينة وارسل معاونه الاول القبطان بيدرو دي تيروس ، زميله القديم المجرب في الرحلتين السابقتين لاعلان امتلاك اسبانيا رسمياً لتلك « المقاطعة » التي أخبره الهنود انها تدعى باريا .

وبعد ان وزع الخبز والسكر وأجراس الصقور خرج الهنود في اسطول من القوارب حاملين فواكه البلاد وكمية من البيرة تعرف محلياً بالشيشا وتصنع من الذرة ولا تزال تخمر في فنزويلا حتى يومنا هذا . وكانوا يتزينون بطباق كبيرة مصقولة من خلائط النحاس والذهب ، يسمونها « غوانين » ويسمونها علماء العادات تومباغا . وكان صهر الذهب والنحاس يتطلب تخفيض درجة الحرارة .

من ١٠٠٠ سنتغراد الى ٢٠٠ درجة للمركب الامر الذي يعتبر ميزة عظيمة لمثل هؤلاء المعدنين البدائيين .. وبما انهم كانوا يضطرون لاستيراد النحاس من اواسط أميركا فقد قدروه اكثر من الذهب . وبما أفرح الاسبان ان هؤلاء الناس كانوا على استعداد لمقايضة أية قطعة يغلب فيها الذهب مقابل وزنها من النحاس او البرونز .

ولم يكن كولبوس قد وصل البر الاميريكي الشاسع فحسب بل دخل الى منطقة حضارية جديدة تمتد من غوانز الى هندوراس .

وفي الثامن من آب استأنف الاسطول ارضاده منطقة الخليج والتف حول النقطة الطويلة المستدقة الطرف ، بونتا الكترز (التي سماها كولبوس اغوجا أي الابر) وهناك وجد اراضي منبسطة غنية بحدائق وبساتين شاسعة مملوءة بأشجار الماهوكوني ذات الاوراق المصقولة ، وأشجار الفستق ، وقد اطلق كولبوس على هذه المنطقة اسم لوس جاردين — الحدائق — واتفق ان صعدت نساء إحدى القرى الى سفينة الاميرال وهن يتحلين بعقود اللآلئ البديعة . فأكد كولبوس انها مجلوبة من الجانب الآخر من شبه الجزيرة بما أثار الحماسة والهياج بين الاسبان ، لا جشعا الى اللآلئ فحسب بل لأن اللآلئ كانت تعني الشرق ! ابدى الهنود رغبتهم باستبدال اللآلئ ببضاعة الاسبان ايها . ولكن لسوء الحظ لم يكن لديهم ما يزيد عن حاجتهم فتوصل اليهم الاميرال بلبغة الاشارات أن يجمعوا له منها ما يستطيعون لحين عودته .. ولكنه لم يعد أبداً . كان الهنود في هذا المكان البهيج مسالمين لدرجة ان لبث فرقة من البحارة دعوة الى وليمة أقيمت لهم في بيت كبير من القش .. وفعلاً ذهبوا وعادوا منتفخي البطون سعداء .

وللمرة الثانية أبحر الاميرال باتجاه الغرب بحثاً عن مخرج الى المحيط وعندما لاحظ ان المياه أصبحت ضحلة ومالحة ثم عذبت وتعكرت أرسل السفينة كوريو لاستكشاف المنطقة فعادت لتقول ان هناك أقنية أربعة انهار تصب في البحر من جهة الغرب ، وكانت هذه مصبات نهر ريوغراندي الثلاثة ومصب نهر ارينكو على بعد أميال قليلة منها .

وبسبب عناد كولمبوس المعتاد بما يتعلق بآرائه الجغرافية لم يقتنع بأن هذه المياه آتية من نهر ، وأنه يرتاد الآن قارة ضخمة وليس جزيرة .. أخرى ... ولكنه توقف عن البحث عن مخرج ليس له وجود ، وعاد شرقاً عند طلوع القمر في اليوم الحادي عشر من آب .

واستمر نسيم البر طوال النهار ، وبمساعدة التيار المتدفق من الأنهر وصل الاميرال الى بوكاس في الليلة ذاتها والقى مراسيه في ميناء سماه غاتوس أي ميناء السعادين في جزيرة شاكا شاكار . وفي ساعات اليوم الثالث عشر رفع الاسطول مراسيه ووقف في خليج بوكاگراندي ، وهناك شاهدوا الصراع المعتاد بين المياه العذبة المتدفقة من الأنهر والمياه المالحة تزار متدفقة الى الامام . واعتقدوا بأن نهايتهم قد دنت عندما هبطت الريح وأخذت السفن تنجرف نحو الصخور . ولكن المياه العذبة تغلبت على المالحة فحملتهم ببطء خارج منطقة الخطر . سمى كولمبوس هذا البوغاز بوكاديل دراغون ، لأنهم فعلاً نجوا من فم التنين . وما يزال هذا الاسم يطلق على جميع الاقنية الاربعة التي تصل بين خليج باريا وجزر الكريب .. والتي لا تزال مياهها خطرة على السفن الصغيرة .

وشاهد كولمبوس في طريق خروجه وعلى بعد خمسين ميلاً الى الشمال جزيرة غرينادا وسماها أوسنثيون لمناسبة حلول أمسية عيد « الحبل بلا دنس » ، وعند فجر الخامس عشر من آب شاهد جزيرة سماها مارغريتا (وما تزال تدعى كذلك حتى اليوم) لكنه لم يعرج عليها للبحث عن اللؤلؤ الذي يكثر فيها ، فقد كان يتعجل الوصول الى سانتو دومينكو . ولقد ظهر خطأ قراره هذا فيما بعد ، فان اكتشاف ساحل اللؤلؤ كان خليقاً بأن يرفع من قدره في الوطن . . اذ كانت الأحوال في إسبانيا قد بلغت حدّاً من السوء ما كان ليزداد لو أنه تأخر شهراً آخر في ارتياد تلك المنطقة .. وهكذا كانت مهمته كمكتشف وكحاكم استعماري تتعارضان وتؤدي الواحدة منها الأخرى !

وفي يوم عيد « الحبل بلا دنس » خطرت للاميرال فجأة حقيقة باريا التي سبق وظنها جزيرة أخرى .. فكتب في يومياته « اعتقد ان هذه قارة عظيمة غير

معروفة حتى الآن . والمنطق يؤيد اعتقادي ، فهناك النهر الكبير ومياهه العذبة التي تتدفق الى البحر وهناك قول اسدراس .. ان ستة أسباع الدنيا يابسة والباقي ماء .. والذي أثبتته أيضاً القديس امبروز في كتابه « المدقق » والقديس أغسطين في مقالته حسب زعم فرانسيسكو دى مايرونز ، وكذلك يؤكد ظني ما سمعته من الهنود الكريبيين الذين أسرهم في اوقات سابقة عن وجود بر شاسع غني بالذهب الى الجنوب من مناطقهم .. فاذا كانت هذه فعلاً قارة فسيكون ذلك أمراً مذهشاً وسيعتبره كذلك كافة العقلاء .. طالما ان نهراً عظيماً يتدفق هكذا جاعلاً مياه البحر عذبة الى بعد ٤٨ فرسخاً .

ويؤكد لنا لاس كاساس ان هذه الفقرة « بكلماته ذاتها » نموذج عن طريقة تفكير كولمبوس . فقد ظل طوال اسبوعين يبحر على طول شواطئ قارة يبحث عنها ومع هذا رفض ان يصدق بأنها القارة التي ينشدها لجرارد انبالا تنطبق على فكرته عن القارة .. واخيراً وبسبب غزارة المياه العذبة المتدفقة الى البحر غير فكره .. واختلطت في ذهنه فوراً عبارة اسدراس « ستة اجزاء من سبعة » ، سخافات من العلوم الفكرية ، مع بعض اقوال الهنود الغامضة وانسجمت معاً لتبرهن حدسه الجديد !

وقال كولمبوس : « ان هذه الاراضي عالم آخر (اوتروموندو) » ... وهكذا كانت فعلاً . وكان الحظ وحده المسؤول عن عدم تسميتها «العالم الجديد» بدل «عالم آخر» ، فلو فعل ذلك لزال الفخر الذي كسبه امير كوفيسبوشي .. والحقيقة ان العبارتين كما استعملتا من قبل كولمبوس وفيسبوشي (وكما استعملها بيتر مارتير) كانتا تعنيان الشيء ذاته ، أي منطقة مجهولة لدى الاوروبيين لم تأت على ذكرها جغرافية بطليموس . ولم تكن أي من العبارتين تحمل معنى « العالم الجديد » كما نستعملها الآن للدلالة على الاميركتين . فكولمبوس اعتقد ان البر الذي ارتاد شواطئه كان بالنسبة للصين والملايو بمثابة اندونيسيا اليوم ... ولكن كولمبوس لم يرض ان يكون حاصل جمع $2 + 2 = 4$ بل اراد ان يكون حاصل الجمع ٢٢ ! .

وبعد يومين أسرت في يومياته « هذه القارة هي الجنة الأرضية ، جنة عدن ! » وقد وضع عدد من كتاب العصور الوسطى الذين كان يلذ لكولبوس قراءة نبذ من اقوالهم المجموعة في كتابه المفضل « اما غومندي » أي « صورة العالم » وضعوا هذه الجنة الشهيرة في أقصى نقطة من الشرق الأقصى ، حيث بزغت الشمس يوم الخليفة ، وذلك اعتماداً على قول سفر التكوين « زرع الرب جنة في الشرق في عدن » .. وكذلك قرأ كولبوس ما ورد في الفصل الثاني من سفر التكوين عن الاشجار ... « مفرحة للنظر وطيبة للأكل » ... وقرأ أيضاً عن النهر « باربعة رؤوس » الذي يسقي تلك الجنة .. او لم تذكر السفينة كوريو بانها شاهدت أربعة مصبات ... « وذهب تلك البلاد يكون حسناً » ... وفعلًا كان حسناً بالرغم من تفضيل الهنود السخفاء النحاس عليه ... أليس من المدهش ان يصف ذلك الفصل من سفر التكوين خليج باريا بهذه الدقة؟! ... ومع كل هذه التصورات لم تفرغ جعبة خيال الاميرال .. بل قفز به الخيال بسبب تقديره الخاطيء عن ارتفاع نجمة الشمال في هذا الرحلة الى استنتاج مدهش من ان للكرة الأرضية انتفاخاً في تلك المنطقة يشبه انتفاخ ثدي المرأة ترتفع عليه الجنة الأرضية « لتصبح أقرب الى السماء » !

أولم تبرهن التيارات العنيفة في بوكاس على أن المياه هناك تنساب من أعلى المرتفع؟!

ومع ان كولبوس كان يعاني الكثير من داء المفاصل والتهاب العيون إلا انه لم يفقد رشده كما قد توحي بذلك هذه الاستنتاجات الغريبة ... فقد كانت مثل هذه النظريات المستغربة شائعة بين المكتشفين والجغرافيين المتخلفين في الوطن في ذلك العصر . ولكن الاميرال احتفظ خلال كل هذه التصورات بمعرفة دقيقة لموقعه اليومي .. وفي الخامس عشر من آب انطلق من مارغريتا باتجاه الشمال الغربي - الشمالي ميمماً شطر جزيرة ساوانا على مقربة من اسبانيولا كنقطة انطلاق مناسبة مع الريح الى سانتو دومينغو - جزيرة العاصمة الجديدة . وهذا هو الواقع الخط الجوي الصحيح للطيران . ولك ان تتصور جميع العوامل

التي كان على كولبوس اعتبارها في بوصلة عقله ليصل الى تلك النتيجة - من اسبانيولا الى رأس القديس فنسنت ثم قادم كل ذلك عام ١٤٩٦ ! ومن سنتياغو الى الدرجة ٩ والدقيقة ٣٠ شمالاً ثم الى الغرب وعبر خليج باريا ثم الى مارغريتا ! كيف فعل كل ذلك ؟ لست أدري ... ولا أستطيع تفسيره ..

ومع ان الاتجاه الى الشمال الغربي غرباً كان الطريق المباشر الى ساوانا فان عاملين اثنين منعا كولبوس من اتخاذه . كان الاول خارج نطاق معلومات الاميرال وفوق طاقته ، الا وهو تيار خط الاستواء المتجه الى الغرب إذ لم يكن يملك الوسائل لقياسه . اما الثاني فكان قيادته الحذرة الواعية خشية الاصطدام بشعب الصخور القريبة من سطح الماء في ظلمة القمر .. وقد أدى ذلك الى تطويل الرحلة والى اضطرار الاميرال الى الانحراف مع الريح . فكان يأمر السفن بالتوقف أو السير الهويناً في الليل ، ونشر الاشرعة في النهار حيث يصبح بالامكان تحديد مواقع الصخور من لون المياه .

وكانت النتيجة ان وصل كولبوس اليابسة عند ألتافيللا ، على بعد ١٢٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من سانتو دومينغو .. وكتب لاس كاساس يقول :

« تأثر الأميرال كثيراً لنزوله على هذا البعد الكبير عن هدفه ولكنه اعتبر ان الخطأ في حساباته يعود الى تيار قوي سبب انحرافه . وكان هذا التعليل صحيحاً وصادقاً » .

ترى ماذا كان يحدث للملاح حديث سار على خط سير الرحلة الثالثة دون خرائط أو طريق مرسوم ودون أية وسائل لضبط موقعه عن طريق مراقبة الأجرام السماوية ؟!

وعلينا ان نذكر ان جميع الاراضي التي أصابها بعد جزر رأس فيردي كانت جديدة الاكتشاف .

هل كان باستطاعة أحد منا وفي تلك الظروف اكتشاف الخط الصحيح الواصل بين مارغريتا - فنزويلا وسانتو دومينغو ؟! « فاذا لم يكن ذلك كله

معرفة مدهشة رائعة فانه بلا شك ، عناية الهية ، أو ربما كان السببين معاً .

وفي الحادي والعشرين من آب ألقى الاسطول مراسيه في ملجأ جزيرة بيتا (التي سماها كولبوس مدام بيتا) أي السيدة المباركة وهناك شاهد الاميرال سفينة صغيرة تقترب من ناحية سانتو دومينغو .. أطلقت السفينة الغريبة مدفعاً ثم اقتربت من جانب سفينة القيادة . ويا لسرور الاميرال عندما سمع أخاه بارثوليو يحياه بحرارة . كان بارثوليو يحاول اللحاق باسطول المؤمنين بقيادة كرفجال الذي اقترب من الشاطئ . ثم أخطأ الطريق الى سانتو دومينغو . وبعد هذا اللقاء السعيد اندفعت السفن الأربع نحو العاصمة الجديدة ووصلتها بعد ثمانية ايام اعتبرت رحلة موفقة اذا أخذنا بعين الاعتبار سيرها ضد الريح والتيارات الجارفة .

انتهت رحلة كولبوس الثالثة عملياً يوم ٣١ آب عام ١٤٩٨ عندما ألفت لاناو وكوريو وفكوينوس مراسيها في مصب نهر اوزاما ، الميناء الداخلي لجزيرة سِيداد تروجيلو الآن ، وبهذا تمت رحلة أخرى رائعة ، اكتشف فيها الاميرال مدخلا لقارة شاسعة ، تمهيداً لتوسع الجنس الاسباني وامتداد لغته وحضارته ، قارة تمتد اراضيها من الجبال الوعرة الصخرية الى مضيق ماجيلان . ولكن وما قيمة اعتقاده بأن ما اكتشفه كان جنائن عدن ؟! لاحظ ما كتبه في دفتر يومياته عن هذه الرحلة يوم وصوله الى ابعد نقطة غربي خليج باريا :

« سيكون من أعظم الامور لاسبانيا ان تحصل على ايراد من هذا المشروع ، وليس باستطاعة سموك ان تترك أثراً اعظم ذكراً من هذا ... سيفوز سموك بهذه البلاد الشاسعة التي هي عالم آخر حيث ستنمتع المسيحية بكثير من المباهج ويزداد المؤمنون بديننا كثيراً مع الوقت . أقول هذا بنية صادقة ولأنني أرغب بأن يكون سموكم أعظم سادة الارض ، سادتها جميعاً ، كل هذا في خدمة ومرضاة الثالوث المقدس » .

يا له من ايمان رائع وحنس مدهش ! ففي الوقت الذي كانت أول مستعمرة

لإسبانيا تضحل وكان المستعمرون يأتون من بين نزلاء السجون ، وعندما كانت قلة من الناس العظام تؤمن بكولمبوس أو تعتقد بأن كل اكتشافاته لا تكاد تساوي جزيرة من جزر الكناري ، تنبأ هو بالدخل والاراد الضخم الذي ستناله إسبانيا من هذه الفتوحات لتصبح الدولة الاولى في أوروبا ، وعرف بأن المسيحية ، التي كان نطاقها ينكمش ويتقلص منذ بزوغ الاسلام ، ستعود وتتقدم منتصرة في « عالمه الآخر الجديد » .

الفصل السابع عشر

اميرال البعوض

كان الفارق بين باريا، ذلك الفردوس الأرضي ، وبين اسبانيولا التي أضحت جحيم بذاتها ، كبيراً ومحزناً . وكان النبأ السار الوحيد لكولمبوس هو اخلاء ايزابيلا البغيضة وغير الصحية وتأسيس سانتو دومينغو . فقد استطاع بارثولميو تدبير أمر الانتقال بمقدرة وسرعة . وكانت سانتو دومينغو لا تزال مدينة أكواخ مصنوعة من الشيل والعيدان ، لكنها كانت حسنة الموقع على مصب نهر كبير مع مرسى واسع وميناء محمي ، وقد أصبحت بعد ان سميت سيداد تروجيلو عاصمة الجمهورية الدومينيكية الان ، وإحدى مدن جزر الكريب الرئيسية .

أما أسوأ الاخبار فكان نبأ العصيان الذي قاده فرنسيسكو رولدان الذي كان الاميرال قد عينه رئيساً للقضاء في اسبانيولا . لقد وعد رولدان ، الدهمائي الأصل ، كل الناس بكل ما يريدون - وعد الاسبان ذهباً أكثر وفضة أكثر وطعاماً أكثر من اسبانيا . وتسهيل سفر كل الذين يرغبون في العودة الى الوطن وتحريرهم من حكم الجنويين المكروه .. كما وعد الهنود بساعات عمل أقل مما كانوا يعملون وان يسقط عنهم الضريبة وغزوات الأسر العبودي . وهكذا التحق برولدان كل من غوارينكس زعيم قبيلة مغوانا ، وافراد قبيلة سيغايو ، سكان

شبه جزيرة سامانا ، غير ان بارثولميو أخضعهم في بادىء الامر . وعندما استعد لمواجهة رولدان تراجع زعيم العصاة مع حوالي سبعين رجلاً مسلحاً الى كزاركوا ، شبه الجزيرة الجنوبية الغربية من الجزيرة . وهناك وقع أسوأ طارئ للادارة إذ ظهرت فجأة سفن كرفجال الثلاث التي ضلت سانتو دومينغو على ساحل كزاركوا قرب مقر قيادة رولدان ... ظل كرفجال نفسه ثابتاً في وقائمه لكولمبوس لكن نزلاء السجون من بين ركابه وقسماً من جنده اندفعوا الى الشاطئ وانضموا الى الثوار ... وهكذا تقدم رولدان بهذه النجدة الى حصن لافيكا في قلب الجزيرة . وبما ان الكثير من الاسبانيين الاوفياء كان فريسة لداء الزهري وغيره من الامراض ، لم يستطع الاخوان كولمبوس تهيئة جيش يعادل جيش العدو ولذلك لم يخاطر بالدخول في معركة ... فحاولا ترضيته ...

وبعد سنة تقريبا من المفاوضات التي ظل رولدان اثناءها يشترط في شروطه ، أعاد كولمبوس رولدان الثائر الى منصبه كرئيس للقضاء واعلن ان كل الادعاءات ضده لا أساس لها من الصحة وواعد اتباعه الذين يرغبون بالعودة الى الوطن بالذهب والعبيد ، ومنح الذين يرغبون في البقاء في كزاركوا أراضي جيدة .

تخلّى كولمبوس عن آخر متبقيات سياسته الاستعمارية باقامة مراكز تجارية وذلك كجزء من التسوية مع رولدان ولصالح كل من الثوار ورجاله الاوفياء . وتبنّى نظام توزيع الأراضي الذي انتشر في نهاية الأمر في قسم كبير من أميركا الاسبانية ... وكان ذلك يعني منح المستوطن الاسباني قطعة من الأرض الصالحة للزراعة وكل من عليها من الهنود عبيداً له ... وافق الامراء الهنود على هذه الضربة ضد سلطاتهم كوسيلة للتخلص من ضريبة الذهب التي لا تحمل . كما ان هذه التسوية أرضت الاسبان انفسهم لأنها وفرت لهم عمالاً سخرة كما ضمنت لهم كل الذهب الذي يعثرون عليه في اراضيهم بعد حسم النسبة المئوية التي تذهب الى الملك والأميرال ... غير ان نظام توزيع الاراضي لم يعد على المستعمرة بالدخل السريع ولم ينقذ كولمبوس من الخزي لكنه ألغى نظام ضريبة الذهب

القاسي وأغرى المستعمرين بالاستقرار ... إلا ان مشاكل أخرى كانت تترامى على عاتق الاميرال ... ولم يكن في وثيقة عقده (الأصلية) نص أوضح من سلطته التامة كنائب للملك وكحاكم عام على كل الاراضي التي قد يكتشفها مع سيطرته التامة على التجارة معها أو ارتيادها ... لكن ما كادت سفينة القيادة والسفينة كوريو تعودان الى اسبانيا في خريف عام ١٤٩٨ (اذ انه احتفظ بالسفينة فكوينوس فقط في سانتو دومينغو) حتى استولى الونسو دى هوجيدا على دفتر اليوميات والخريطة اللتين أرسلها كولمبوس الى العاهلين ، ثم حصل على إجازة يقوم بموجبها برحلة مستقلة الى باريا بحثاً عن اللؤلؤ ... واصطحب معه جوان دى لاكوزا رسام خرائط ، ورجلاً فلورنسياً ذكياً كان يقيم في اشبيلية ويدعى امريكو فاسبوشي . وقد وضع هذا الأخير تقريراً ممتعاً عن هذه الرحلة مما حدا بجغرافي من شمالي اوروبا الى تسمية القارة بـ « اميركا » .

اتبع هوجيدا الطريق التي سلكها كولمبوس في رحلته الثالثة على طول البر الاسباني الاميركي من نقطة قرب مارغريتا حيث توقف وجمع الكثير من اللؤلؤ واكتشف اروبا وكوراسوا وخليج ماراكيبو الذي دعاه فنيزويلا (أي البندقية الصغيرة) لانتشار قرى المواطنين على ركائز من الخشب ترتفع فوق الماء ، ثم عرج على كزاركوا حيث انضم الى رولدان ، ولكنه ما لبث ان تخاصم معه وقام بغزوة جزر البهاما للحصول على العبيد .. وأخيراً عاد الى اسبانيا ... حدث كل هذا في عام ١٤٩٩ وفي اوئل عام ١٥٠٠ ، العام الذي حصل فيه بيرالونسو نينو - ربان سانتا ماريا سابقاً - على كميات كبيرة من اللؤلؤ ، كما اكتشف فينسنت يانيز بنزون ، ربان نينا السابق ، مصب نهر الامازون ... وسرعان ما أخذ أي فاتح طموح بتجهيز رحلة الى اميركا دون علم كولمبوس أو اذنه !

وكانت أسهم الاميرال في ذلك الحين آخذة في الهبوط لدى البلاط الملكي اذ تراكت الشكاوى ضد حكم عائلة كولمبوس . كما جعل الاسبان العائدين من جزر الهند من انفسهم عوامل اقلاق للملك اذ كانوا يجابهونه بصرخات « ادفع ! ادفع !

كلما تحرك خارج قصره ... لقد سجل فرديناند كولبوس كيف انه واخيه ديجو - وصيفي الملكة - كانا يشعان بالذل من جراء التهجيات البذيئة التي كانا يقابلان بها « هاكم ابني اميرال البعوض الذي اكتشف بقاع الباطل والضلال وجلب الخراب لرجال قشتيلة وجرهم الى حتفهم » ! .

والحقيقة ان من الواجب الاعتراف ان اخوة كولبوس الثلاثة كانوا اداريين فاشلين : فقد كانوا ضعفاء حيث وجب الحزم وعديمي الشفقة في الوقت غير المناسب . فلم يحموا الهنود من التسخير كما نفروا عنهم معظم الاسبان باستخدام سلطتهم على المؤن المستوردة كوسيلة للمكافأة والعقاب . .

وقبل وصول الاخبار القائلة ان رولدان عقد معاهدة صلح وان نظام توزيع الاراضي قد اتبع . عين العاهلان فرنسيسكو دي بوبا ديلا وكيلا ملكيا على اسبانيولا ، مع سلطات غير محدودة على الناس والاملاك . فلو أبحر بوباديللا فور تعيينه لوصل والحالة هادئة وأمور الاخوان كولبوس على ما يرام . لكنه لسوء حظهم ، تأخر عن موعد سفره نحو اكثر من سنة فوصل الى سانتودومينغو في الثالث والعشرين من آب عام ١٥٠٠ حيث كان الاميرال في لافيك وبارثوليميو في كزاركوا وديجو الضعيف حاكما للمدينة .

وكان اول شيء رآه بوباديللا أثر نزوله الى البر ، سبع مشائق تدلت منها سبع جثث اسبانية . وقال ديجو بمرح ان هناك خمسة آخرين سيعلقون في اليوم التالي لانهم ثاروا بقيادة اوريان دي موكسيكا ولكنهم هزموا وقبض عليهم بمساعدة رولدان . تأثر بوباديللا تأثراً عميقاً بما رأى وبدون ان ينتظر سماع وجهة نظر كولبوس في القضية استولى على القلعة والحكومة وقذف بالدون ديجو في عنبر سفينته ، واوقف مفعول كل أوامر الاميرال ، واستمال الأهليين اليه باعلان حرية الجميع في البحث عن الذهب اينما كان . وعندما حضر الاميرال اطاعة لأوامر استدعائه ، كبلت يداه هو أيضا وزج في سجن المدينة .

لقد كان باستطاعة بارثوليميو الذي كان داخل البلاد مع جيش لجب مخلص ان يتقدم الى العاصمة ويطلق سراح أخويه . لكن الاميرال لم يجرؤ ، ولم يهتم

بتحدي السلطة الملكية التي يمثلها بوبا ديلا . ونزولا عند نصيحته سلم بارثوليو نفسه أيضاً ونال نصيبه من السلاسل والقيود !

قرر بوبا ديلا ارسال الاخوة الثلاثة الى الوطن لمحاكمتهم بعد ان جمع من الاسبان الناقمين والمتمردين ملفا ضخما عن اخطائهم .

وفي اوائل شهر تشرين الاول وضع الاميرال وديجو مقيدتين على ظهر السفينة « لاغوردا » المتجهة نحو اسبانيا دون ان يعطيا شيئا من ذهبها او ممتلكاتها ... اما بارثوليو فقد أرسل على سفينة أخرى ... وكان باستطاعة قائد لاغوردا ان يفك وثاق الاميرال ، كما يقول ابنه فرديناند - لكنه لم يكن ليسمح لنفسه بفعل ذلك بحجة انها قيداً بأمر ممثل السلطة الملكية وان الملكين وحدهما يستطيعان الامر بفك وثاقهما ...

كانت هذه الاهانات أكثر إذلالاً لكريستوفر كولبوس المرهف الحس منها لأي رجل آخر خشن الطباع من « ابطال تلك الفترة » . وفي طريق العودة الى الوطن كتب كولبوس رسالة طويلة الى صديق مخلص له في البلاط يدعى دونا جوانا دي توريز تعتبر صرخة حزن ، وعريضة شكوى وتبرير فخور لتصرفه الشخصي وقد قال فيها ان الله بعثه رسول « السماء الجديدة والأرض الجديدة » كما صورها سفر الرؤيا وتنباؤها الاصحاب الخامس والستين من كتاب اشعيا ... وكانت الملكة التي منحها الله فيها لما كان كولبوس يعتزم القيام به ، قد كوفئت بتعيينها وريثة العالم الآخر الذي خرج كولبوس واستولى عليه باسمها ومع هذا فلم يبق أحد من رعاياها السفهاء إلا ويستطيع اهانة الاميرال بوقاحة . وأضاف الاميرال انه أتهم بالقيام بأعمال غير شرعية : مع انه أخذ ثورتين قامتتا ضد سلطة العاهلين : وتساءل كيف يمكن للفرد ان يعالج رجالا مسلحين بالوسائل القانونية العادية ؟ ! لقد صان رغبات سموها في أمر تجميع الذهب . فكيف يأتي بوباديللا ويصغي الى وشايات المخادعين ويرمي بكولبوس وأخويه في السجن بتهمة خرقهم القوانين الشرعية ثم يلغي كل القيود المفروضة على جمع الذهب بصورة أتاح لأحد الاوغاد جمع ما قيمته ثلاثين جنيهاً في مدة أربع ساعات

فقط ! وختم كولبوس رسالته بعبارة شديدة اللهجة تم عن كرامة ساخطة وفهم للعدالة :

« يحكمون علي في اسبانيا كأني حاكم رحل الى صقلية أو الى بلدة أو مدينة خاضعة لحكومة منظمة حيث يمكن مراقبة تنفيذ القوانين دون الخوف من خسارة كل شيء . لقد كان من الواجب ان يحكم علي كقائد رحل من اسبانيا الى جزر الهند ليقهر أناساً كثيرين مستعدين للقتال ذوي دين وعادات تختلف كل الاختلاف عن اخلاقنا وديننا . وحيث استطعت بمشيئة العناية الالهية ان اضع تحت سلطان الملك والمملكة عالماً آخر الذي بواسطته ستصبح اسبانيا التي كانت فقيرة ، أغنى البلاد : « الرب الهنا الموجود يجبروته وحكمته منذ الازل والى الابد يعاقب على الاخص نكران الجميل والاعمال المؤذية » .

لازمت السفينة « لاغوردا » رياح طيبة في رحلتها الى الوطن وكأن البحر المحيط اراد ان يختصر من شقاء أميراله ! : فقبل نهاية تشرين الثاني أنزل الى الشاطئ في قادس برفقة سجنائه وهو لا يزال في قيوده ثم سيق ليعيش في دير لاس كوفاس في أشيلية ... وقد ترك منظر كولبوس وهو مكبل بالقيود أثراً محزناً بين الناس جميعاً ، ومع ذلك انقضت اسابيع ستة قبل ان يأمر الملكان بفك وثاقه واستدعائه للمثول امامهما في البلاط ...

قدم الأخوة الثلاثة أنفسهم الى الملك والمملكة في قصر الحمراء في غرناطة قبيل عيد الميلاد سنة ١٥٠٠ وكان هنالك أيضاً دون ديجو الذي بلغ آنذاك الواحدة والعشرين من عمره ، وفرديناند ابن كولبوس الأصغر ، وكان في الثانية عشرة من عمره . ولا شك في ان الشابين شعرا ، وهما من حاشية البلاط ، بالاهانة شعوراً قويا عندما رأيا والدهما المسن المعتل يترنح بثوب رهبان الفرنسيكان القاتم وآثار القيود الحديدية بادية على كاحليه ومعصميه ... وفيما بعد احتفظ الاميرال بالقيود في غرفته كتذكاري حزين لإذلاله وأوصى بأن تدفن معه في القبر !

تحدث العاهلان مع كولبوس بلهجة لطيفة مؤاسية وأكدوا له بأن العدالة

« ستأخذ مجراها وان امتيازاته سترد اليه . ومضت الاسابيع ... وامتدت الى شهور دون ان يتحقق شيء من ذلك .. إذ كانت هناك اعمال اكثر أهمية من أحوال اسبانيولا القصية تشغل بال العاهلين .. كان هناك اقتسام نابولي مع فرنسا اولا ثم فراق كاترينا انغنتا وهي في الخامسة عشرة من عمرها للزواج من أمير ويلز ... كما كان باستيداس وبير الونسو نينو وهو جيداً وآخرين غيرهم يقومون في تلك الاثناء برحلات على حسابهم الخاص على طول ساحل « العالم الآخر » .

أراد كولمبوس استرداداً كاملاً لحقوقه وممتلكاته وألقابه ومناصبه . ولذلك أمضى وقتاً طويلاً وبذل جهداً كبيراً في وضع « كتاب الامتيازات » الذي يحتوي على اتفاقياته مع العاهلين وعلى الاوامر والخطابات التي بعث بها إليه ... لكن كان من العبث ان يترقب استرجاع كل شيء .. فقد أربك وهو واخوته اسبانيولا بشكل يتعذر معه اعادة تسليمهم أمر السلطة فيها ، والآن وقد افتتح شاطئ اميركا الجنوبية فمن الهراء الافتراض ان العاهلين سيثبتان حقه بالاعشار والامتيازات الماثلة على قارة بأسرها ، وخصوصاً ان تلك الامتيازات كانت قد منحت على اساس تشييد مركز تجاري وإخضاع بعض الجزر الاخرى .

ومرة اخرى كان على الاميرال ان ينتصح بتأمين كرامته وأمنه بقبوله اقطاعية (قلعة) وراتب تقاعدي ولقب دوق ، كما لم يكن لدى العاهلين أي مانع لاحتفاظه بلقب نائب الملك وأميرال المحيط شريطة ان لا يمارس سلطات هذين اللقبين . ولكنه لم يكن ذلك الرجل الذي يمكن ان يتخلى عن حق من حقوقه . ولو كان كذلك لما اكتشف اميركا .

وفي أيلول عام ١٥٠١ وبعد انتظار دام ثمانية أشهر . علم كولمبوس بأسوأ نبأ في حياته إذ بدلاً من اعادته مكللاً بالغار الى اسبانيولا استدعي بابوديلا الى اسبانيا ، وعين دون نيكولاس دي اوغاندو ، حاكماً عاماً على جزر وأراضي جزر الهند بدلاً منه .. أما كولمبوس فقد منح الامتيازات التالية : السماح له بالاحتفاظ

بـلـقـيـي نائـب المـلـك والأمـيرال (العـديـما القـيـمة الآن) – ثم حق إرسـال وكيـل عـنـه مع أسـطـول اوفانـدو ليـطـلب من بوبادـيـلا أعـادـة نصـيـبه من المـال . ولعلـه كـانـ في قـرار العـاهـلـين الـاسـتـمـرار في مـشـروع جـزر الـهـند بعـض العـزـاء لكـولـبـوس ! وهـكـذا أبحـر اوفانـدو في شـبـاط سـنة ١٥٠٢ مع اسـطـول عـظـيم من ثـلاثـين سـفـينة شـراعية تـحـمل ٢٥٠٠ رـجـل بـين بـحـار وجـنـدي ومـسـتـعـمر ...

أما وقـد عـاد حـنـين الأمـيرال للـقـيـام بعـملـه الأـصـلي وقـد اقـتـنـع بـأنـه لن يـكـسـب شـيئاً بـبقـائـه في البـلاط او اغـراقـه بالعـرائـض والـشـفـاعـات ... لـذـلك تـقـدم من المـلـك يـطـلب تـزويـده بالمـال والسـفـن للـقـيـام بـرحـلة رابـعة الى جـزر الـهـند واستـجـاب العـاهـلان لمـطـلبـه ... وأمرـا بـتـنـفـيـذ رـغـبـته !

الفصل الثامن عشر

الرحلة الهائجة

تعتبر رحلة كولبوس الرابعة والأخيرة أهم رحلاته من عدة نواح . ومن الواضح انه كان يعتقد ذلك ايضاً فقد ظل يشير اليها فيما تبقى له من وقت قصير للحياة بعبارة « الرحلة الهائجة » . بدأ كولبوس رحلته هذه وهو في الخمسين من عمره وختمها وهو في الثالثة والخمسين . أي أنه قام بها وهو رجل مسن حسب مقاييس ذلك العصر . ومع هذا فقد اظهر فيها منتهى القدرة الملاحية - وشجاعة فائقة ولياقة تامة للقيادة ... ويأسف الانسان فقط لعجزه عن التخلص من المشاكل الادارية ، فقد شدد عليه خازن قشتيلة ، الذي كان يعتمد عليه كولبوس لدفع الاجور والرواتب ان يصطحب معه الشقيقين من آل بوراس ، واحد بصفة ربان سفينة والآخر بصفة مدقق حسابات العرش ، وذلك لمجرد ان شقيقتها كانت عشيقة الخازن . وهذه ، والحق يقال ، طريقة غريبة لارضاء عشيقته ! ولكن هذا ما اراده « الولدان » اللذان كان من الممكن ان يعودا كزعمين للبعثة كلها لو لم يكن الاخوان كولبوس أشد منها مراساً ووعياً .

وتوحي السرعة التي أقلع فيها كولبوس بهذه الرحلة وكذلك المؤن الوفيرة التي جهز بها الاسطول ، برغبة فرديناند بالتخلص منه سريعاً كما تدل من جهة

ثانية على قلق ضمير ايزابيلا لسوء المعاملة التي لقيها . طالب كولمبوس بالاسطول . في السادس والعشرين من شباط ١٥٠٢ وصادق العاهلان على الطلب في ١٤ اذار وأمره بالانطلاق بسرعة نحو الغرب بحجة ان « الفصل الحالي ملائم للملاحة » (ولم يكن ذلك طبعاً صحيحاً) وفعلاً جهز الاميرال اسطولاً من اربع سفن . شراعية في مدة لا تتجاوز الاسبوعين إلا بقليل . وكانت بغية الاميرال الاولى من هذه الرحلة العثور على مضيق بين كوبا (التي ظل يعتقد بأنها الصين) وبين القارة التي اكتشفها عام ١٤٩٨ . وكان هوجيدا وباستيداس يندفعان منذ ذلك الحين على طول ساحل البر الاسباني - الاميركي ، حتى وصلا الى خليج داريان ، أما سواحل ومياه الكريب الواقعة غربي الخط الممتد من داريان حتى باهيا كورتيس الى كوبا شاملاً خليج المكسيك بأكمله ، فقد ظلت مجهولة . وغير مكتشفة لدى الاوروبيين . وهنا في هذه المناطق ظن كولمبوس انه سيجد مفتاح اللغز الجغرافي العظيم - الصلة بين مكتشفاته الأخيرة وآسيا ، وهنا توقع ان يعثر على المضيق الذي عبره ماركوبولو في طريقه من الصين الى المحيط الهندي . وفعلاً زوده العاهلان بكتاب توصية الى فاسكو دي غاما الذي كان في طريقه للدوران حول رأس الرجاء الصالح ، على أمل ان يلتقي الاثنان في مكان ما من الهند ، إذ لم يكن أحد قد ارتابه مجرد شك بوجود المحيط الأطلسي ، فالمحيط مازال يعتبر كلا واحداً تحده اوروبا وافريقيا من الغرب . وآسيا وافريقيا من الشرق اما المحيط الهندي فليس إلا خليجاً على ساحله كالبحر المتوسط ، يسهل الدخول اليه عن طريق المضيق المتوقع وجوده غربي منطقة الكريب .

وكان الاميرال يأمل بأن يسمح له بتصميم وبناء سفن صغيرة يدخل عليها تحسينات تجعلها صالحة للبحار ضد الريح ولو في وجه تيار معاكس ولكن الوقت لم يسمح بذلك ، فكان عليه ان يرضى بما ناله ، وكان ذلك لا بأس به !

كان حجم كل من السفن الاربع بحجم السفينة نينا ، مجهزة بأربعة مربعة صغيرة أمامية ... أبحر كولمبوس وابنه على ظهر اكبرها . ورغم اننا لا نعرف .

اسمها فقد اشتهرت باسم « لا كابيتانا » او سفينة القيادة ، وكانت تتسع لخمسة
٧٠ طناً . أما قبطانها فكان ديجو تريستان الذي رافق كولمبوس طيلة رحلته
الثانية . وكانت تحمل على ظهرها ، ضابطين واربعة عشر بحاراً كفؤاً وعشرين
صبياً وسبعة ضباط صغار ونافخين في البوق ليعدا دخولا فخماً للأميرال الى
مجالس البلاط الشرقية . وكان بين ركبها البارزين كلب وحشي من أصل ايرلندي
جلبه الأميرال لاستعماله في القتال ضد الهنود .

أما السفينة الثانية في الاسطول فكانت تدعى « لا غاليجا » (الغليسية) التي
تمتاز بشراعتها الأمامي الحقيقي وشراع رابع صغير مركب على صاري المؤخرة
شبيه بهزاز الزورق الحديث . وكانت بقيادة بدرو دي تيريروس ، الرجل الوحيد
المعروف بأنه رافق كولمبوس في رحلاته الأربع ، أما صاحبها جوان كوينتيرو
فقد أبحر فيها بصفة رئيس . وكانت تحمل على ظهرها عريفاً واحداً ، وتسعة
بحارة مقتدرين ، واربعة عشر صبياً ونبيلاً واحداً من المتطوعين . وتأتي بعدها
بالنسبة للحمولة سفينة سنتياغو بالوس الملقبة ببرمودا تكتية باسم صاحبها
ورئيسها فرانسيسكو برمودي . أما قبطانها فكان فرانسيسكو بوراس يرافقه
أخوه ديجو بصفة مفتش ورئيس للكتبة . أما بارثوليو كولمبوس فقد أبحر على
ظهر برمودا دون أية وظيفة معينة او راتب ، ولكنه كان دائماً يتولى قيادتها
وقت الشدائد . وكان على ظهرها احد عشر بحاراً ماهراً وعريف وستة
متطوعين واثنى عشر صبياً واربعة ضباط صغار . وكانت أصغر سفينة في
الاسطول فيزكانيا وحمولتها ٥٠ طناً ، بقيادة بارثوليو فيشي ، سليل إحدى
العائلات الجنوبية الشهيرة التي تصادقت مع كولمبوس المتواضع في أيام مضت .
وكان على ظهرها ثمانية بحارة ماهرين وعريف واحد وثلاثة متطوعين وعشرة
اولاد وكاهن الاسطول فراي الكسندري .

وكان جميع هؤلاء مقيدين على جدول الرواتب الملكي باستثناء افراد عائلة
كولمبوس ، وكان راتب القبطان ٤٠٠٠ مارافديس - أي ما قيمته ٢٧ دولاراً
ذهبياً او خمسة جنيهات ونصف - في الشهر ، وكان البحار الماهر يتقاضى ربع

ذلك المبلغ ، اما الصبيان فحوالي جنيه واحد او خمس دولارات ذهبية للفرد . ولا يدل ذلك على ان رواتبهم كانت باهظة ، ولكنهم كانوا يتقاضون اجرة ستة أشهر مقدما ، والذين يبقون على قيد الحياة الى ما بعد الرحلة ، يحصلون على مبلغ من المال كحق لهم لدى العودة .

وبمقارنة لائحة بحارة الرحلة الثالثة بلائحة الرحلة الاولى ، نجد ان الفارق الاساسي هو العدد الكبير من الاولاد الذين رافقوا الرحلة الرابعة والذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . لقد لاحظ الاميرال بوضوح انه في رحلة استكشاف ومغامرات جريئة يثبت الشبان جدارتهم كبحارة ويطيعون الاوامر بسرعة أفضل من البحارة القدامى الذين يهتممون ويدمدمون ويتذمرون من اطراف افواههم . ولا سيما عندما يخاطب أحدهم الآخر بقوله : « ما رأيك ؟ ان القبطان المجرب الفلاني لم يتبع هذه الطريقة » ويصرخون بأن الجزر الجديدة لا تساوي نكلة ، ويظهرون اشتياقهم للاطعمة الشهية التي تقدم في مرسيليا ونابولي ولشبونة !

اجر الاسطول من أشبيلية في الثالث من نيسان عام ١٥٠٢ ، وفي طريقه عبر النهر توقف في كازادي فيجو حيث امالوا السفن لتنظيف قعوورها وطليلها بالقطران لتلافي التصاق البروميا^(١) عليها ، ولكن يظهر ان البروميا في هذه الرحلة غزت في القطران جيداً واخترقته حتى الخشب . ومن مصب النهر تابعت السفن مسيرها الى قادس حيث صعد كولبوس وابنه فرديناند الذي كان في الثانية عشرة من عمره الى ظهر السفينة . ونحن مدينون كثيراً لفرديناند لمعظم التفاصيل التي دونها عن هذه الرحلة الهائجة في الكتاب الذي ضمنه سيرة والده . فقد كتبه بعد مرور عدة سنوات على عودته ، لكن انطباعاته الفتية كانت لا تزال نشيطة حية ، وبالرغم من ان الاميرال قال بان فرديناند اظهر كفاءة فائقة كبحار غير ان فرديناند لم يرغب في العودة الى البحر ثانية !

(١) نوع من الحشرات الذي ينخر قيعان السفن الخشبية

تأخر الاسطول في قادس بسبب الرياح العاتية حتى الحادي عشر من ايار ،
عندما ابجر مع هبوب الرياح الشمالية المعتدلة . وبعد ان عرج على اريزلا الواقعة
على الشاطئ المراكشي ، وصل الى لاس بلناس في العشرين من ايار واجر من
جزيرة الكناري الكبرى في الخامسة والعشرين منه . وهناك وضع الاميرال
بنفسه خطة السير « غرباً - جنوباً » ، ذات الوجهة التي اتبعت في الرحلة
الثانية . ولسنا نملك أية تفاصيل عن مرحلة عبور المحيط ، ويعتقد بأنها كانت
عديمة الحوادث ، ولازمتها رياح معتدلة مساعدة ، مما جعلتها تنتهي في واحد
وعشرين يوماً فقط . وفي الخامس عشر من تموز هبطوا الى اليابسة على جزيرة
مارتينيك ، ثاني جزيرة الى الجنوب من دومينيكا ، حيث مكثوا هناك ثلاثة ايام
بقصد الراحة والانتعاش وغسل ثيابهم دون ان يزعجهم اي من المحاربين
الامازونيين او الكريبيين ، ومن هناك ارتادوا معظم سلسلة جزر الانتيل التي
اكتشفت في الرحلة الثانية .

اندفعت سفينة الاميرال متثاقلة في التاسع والعشرين من تموز في الطريق
البحري القريب من سانتو دومينغو . وكان العاهلان قد حرما عليه زيارة
محكوميته السابقة في رحلة الذهاب لثلاث تقع الواقعة بينه وبين أوفاندو . لكن
كولبوس كان يملك اعداراً وجيهة ، ناهيك عن دوافع التطلع الى عاصمته
السابقة . لقد كان يعلم بأن أوفاندو على وشك ان يرسل اسطوله الضخم الى
الوطن فرغب بارسال بعض الرسائل معه ، وكذلك كان يأمل ان يقنع قبطان
سفينة ما بقايسة سفينة صغيرة ملائمة بالسفينة برمودا التي اثبتت بأنها بطيئة
لكنها مناسبة لحمل البضائع . والاهم من ذلك كله انه عرف بان اعصاراً كان
يتكامل استعداداً للانطلاق فرغب باللجوء الى مكان امين . لقد سبق وقاسى
إعصارين ، واحداً خلف سارونا عام ١٤٩٤ والآخر في جزيرة ايزابيلا عام
١٤٩٥ ، وتحقق من نذير شؤمه جيداً . اخذت الأمواج الزيتية المتلاطمة تزحف
من الجهة الجنوبية الشرقية وحجب الغيوم الرقيقة تتمزق في الفضاء الأعلى ،
والرياح العاصفة السريعة تتلاعب على سطح المياه وشعر كولبوس بوخزات

الضغط المنخفض تنخر عظام مفاصله ، وكذلك شاهد عدة حيوانات بحرية كالقمة وخواريف البحر المختلفة تقفز من الاعماق وتظهر على سطح المياه بأعداد كبيرة. وهكذا ، بعد ان وصل الاميرال الى مصب نهر اوزاما بصعوبة ، أرسل قبطانه الكبير بدرودي تيريروس الى الشاطئ مع مذكرة الى الحاكم ضمنها نبوءته عن هبوب إعصار في غضون يومين وطلب السماح له باللجوء الى الميناء كما رجاه ان يبقى جميع سفنه في الميناء ويضاعف حبال مرابطها . وكان من حماقة اوفاندو انه لم يكتف بتجاهل الطلب والانذار ، بل قرأ مذكرة الاميرال بصوت عال أمام سامعيه وأبدى عليها ملاحظات ساخرة ، وكان السامعون يدوون بضحكاتهم المجلجلة على هذا العرّاف « الذي ادعى ان في وسعه التنبؤ عن الطقس والرياح » . وهكذا تحرك الاسطول العظيم ، اسطول اوفاندو ، في ذلك اليوم بالذات حسب الخطة التي كان قد وضعها الحاكم .

وفي اليوم الذي قطع فيه الاسطول ممر مونا الواقع على يسار السفن والقريب من شاطئ اسبانيولا الجنوبي الشرقي الخالي من الموانئ انفجر الإعصار عليه من الجهة الشمالية الشرقية ! فتحطمت بعض السفن في عرض البحر وقذفت السفن الاخرى المتناقلة الى الشاطئ الواقع تحت الريح حيث تحطمت إرباً إرباً . وكان من بين السفن التي غرقت بمن فيها وما عليها ، سفينة القيادة التي كانت بإمرة انطونيو دي توريز ، وكان عليها بوباديللا بصفة راكب وشحنة يقدر ثمنها بنصف مليون دولار . كما ان تسعة عشرة سفينة غرقت بمن فيها ، وفقدت ست سفن اخرى انتشل عدد ضئيل من بحارتها ، بينما نجت اربع سفن ، سيقت بسلام الى ان وصلت على مقربة من ساوونا وسانتو دومينغو بحالة يرثى لها . أما السفينة الوحيدة التي استطاعت الوصول الى اسبانيا فهي أجوجا ، أصغر السفن حجماً ، وكانت تحمل كرفجبال وكيل كولبوس ومعه ذهب الاميرال الذي اجبر بوباديللا على دفعه .

أما كولبوس فقد التجأ ، بعد ان رفض الحاكم ايواءه في نهر اوزاما ، الى قرب مصب نهر اليريجانا على بعد مسافة قصيرة عن سانتو دومينغو . ذلك لأنه

قدر بالضبط بان الإعصار سيحتاج مرمونا وشاطئ اسبانيولا الشمالي بطوله ،
وهكذا فإن الريح لن تهب على الشاطئ الجنوبي مما يوفر للسفن مكاناً محجوباً
عنه . وعندما هبط الليل ، وصلت الريح الى ذروة حدتها من الشدة والغضب .
ولم يكن احد يملك آنذاك الوسائل اللازمة لقياس سرعة الريح ولكن سرعة
الإعصار الطبيعية في جزر الهند الغربية تبلغ مائة ميل في الساعة وليس هناك
أي داع للاعتقاد بأن هذا الاعصار كان خفيفاً لأننا اذا أخذنا بعين الاعتبار
المسافة التي كانت تفصل كولبوس عن مركز الاعصار يتبين لنا ان سرعته لم
تكن تقل عن ٨٠ ميلاً في الساعة . ويعني ذلك ان سرعة الإعصار تعادل قوة ١٢
حسب ميزان بوفورت ، وهي قوة على حد قول بوديتش ، لا يستطيع أي
شراع الوقوف بوجهها . وهكذا تقطعت حبال السفن الثلاث الصغيرة ودفعتها
الرياح الى عرض البحر لكنها أدبرت بمهارة (برمودا بواسطة شقيق كولبوس
بارثوليو بينما آوى قبطانها بوراس الى فراشه) وأنقذت بعد تعرضها لاضرار
طفيفة . ومع ان الاميرال لم يترك قطعة واحدة من الاسلاك الجديدة على ظهر
السفينة إلا وضمها الى رباط سفينته كاييتانا ، إلا ان الاعصار قطعها جميعها .

وقد ذكر كولبوس في إحدى رسائله الى الوطن يقول : « ترى أي انسان ،
وجتى أيوب نفسه ، كان يمكنه ألا يموت من اليأس والقنوط عندما منع عني ،
في طقس كهذا وأنا أحاول العثور على ملجأ يحمي أخي وولدي ورفيقي ونفسي ،
حق النزول الى الارض والمرفأ الذين تمكنت من كسبها لاسبانيا بعرق الدم
ومشيئة الله ! » .

وهكذا بمشيئة الله وبذل العرق خرجت جميع سفن كولبوس من هذه
العاصفة بسلام ، والتقى الجميع كما كانوا قد اتفقوا قبل هبوب الاعصار في
بورتو فيجو ازوا على بعد حوالي خمسين ميلاً الى الغرب . وكان كل منهم يخشى
ان يكون الآخر قد فقد ، ولكن كما لو انها كانت أعجوبة ادرك الجميع النسيم
الجنوبي الشرقي الذي هب بعد الاعصار وانساقوا معه الى ذلك المرفأ الصغير
المحجوب باليابسة فوصلوا اليه تباعاً في غضون ساعات معدودات في يوم الاحد .

الثالث من تموز . لم يكن باستطاعة كولبوس وقباطنته ان يفعلوا افضل مما فعلوا حتى لو وصلتهم الانذارات عن العاصفة بواسطة الراديو ، بل كان من الممكن ان يفعلوا اسوأ من ذلك ! وكانت خسارتهم الجدية الوجيهة زورقاً واحداً وثلاث مراسي .

وبعد استراحة اسبوع او عشرة ايام في ازوا ، عاد كولبوس للبحار من جديد ، ووجهته في هذه المرة جنوباً - غرباً الى قنال التافيللا ، ثم غرباً ، وبعد ان عبرت السفن الممر الواقع في مهب الريح - انسابت القافلة في بحر هاديء ، وهبط بعض الرجال الى شاطئ مورانت كايّز للحصول على مياه للشرب ، وبعد ذلك ابجروا على طول شاطئ جميعا الجنوبي ثم الى جزيرة صغيرة قريبة من شاطئ كوبا الجنوبي ، ربما كانت كايوليرغو . وفي السابع والعشرين من تموز انقلبت الرياح الى شمالية شرقية فرفعت سفن الاسطول مراسيها وعبرت البحر الكريبي البالغ عرضه ٣٦٠ ميلاً عند هذه النقطة ، في غضون ثلاثة ايام . وعندما اعتدلت الرياح شاهد احد المراقبين جزر الخليج القريبة من شاطئ هندوراس .

وفي بوناكا ، اول جزيرة من جزر الخليج رسا عليها الاسطول ، شاهد الاسبان اكبر زورق محلي ، لم يسبق لأحدهم ان شاهد مثله من قبل « طويلاً كالصندل » ويتألق بالغرف الوسطية المعدة للركاب ، وعليه حمولة معتبرة من القماش القطني والادوات النحاسية وبوتقة لصهر الذهب مع قرع مملوءة بالبيرة المصنوعة من ثمر الهوبو وحب الكاكاو الذي ظل هنود الجيساك يستعملونه بدل النقود حتى زمن قريب . كان الزورق آتياً من البر حيث كان يتاجر مع أهالي الجزيرة ، فاحتجز كولبوس رئيسه بالقوة واحتفظ بعد ان سماه جوان بريز ، كدليل وترجمان له .

وكانت المسافة التي تفصل جزر الخليج عن رأس هندوراس ثلاثين ميلاً ، وهناك في الجهة المحجوبة عن الريح وحيث بنيت مدينة تروجيلوفيا بعد ، ألقت السفن مراسيها ، وبدأ الاميرال يبحث جدداً عن مضيق ! ترى هل ينعطف غرباً أو شرقاً ؟ كان

الاتجاه غرباً أهون السبل في الذهاب ، ولكنه اصعبها في طريق العودة . ولما كان كولبوس لا يعرف شيئاً عن خليج مكسيكو وكان يعتقد بانه على خطوط الطول الواقعة في أبعد نقطة غربي مقاطعة « مانجي الصينية » (كوبا) فقد قدر بانه كان في منتصف الطريق المؤدي الى شبه جزيرة الملايو ، وان مضيق ملقة يقع الى الجنوب الشرقي وهكذا استدار نحو الشرق !

واجه الاسطول سفرة طويلة وشاقة بوجه الريح استغرقت ٢٨ يوماً من الربو رومانو الى رأس جراسياس أديوس . وقد كتب كولبوس يقول : « كان المطر يهطل بصورة مستمرة وكذلك استمر البرق والرعد » و اضاف : « وقفت السفن معرضة لعوامل الطقس بأشرعتها الممزقة ، وقد فقدت مراسيها واجهزتها وحبالها وزوارقها وقسماً كبيراً من مؤنّها . كما أنهكت قوى الرجال وتدلّت افواههم الى درجة جعلتهم يتمتمون طوال الوقت ويقسمون على ان يغدوا تقاة صالحين وان يحجوا وغير ذلك ! بل وصاروا يعترفون بعضهم امام بعض ! لقد شاهدت عواصف أخرى ، ولكنها لم تدم طويلاً كهذه او كانت عنيفة مزجرة مثلاً . وفقد كثير من البحارة القدامى الذين كنا ننظر اليهم كزملاء شجعان رباطة جأشهم . وأشد ما حز في نفسي عذاب ولدي وانا افكر فيما اذا كان ينبغي على ولد صغير في الثالثة عشرة من عمره ان يشاهد ويقاسي كل هذا ! ولكن الله سبحانه وهبه شجاعة فائقة حتى انه كان يشجع الباقين وتصرف كما لو انه قضى ردهاً طويلاً من الزمن في عرض البحر ، مما ادخل السلوى على نفسي . لقد كنت مريضاً ووقفت مراراً على عتبة الموت لكنني كنت اصدر الأوامر من مأوى ضيق شيدته البحارة لي ووضعوه في مؤخرة السفينة . وكان اخي في اسوأ سفينة غير مأمونة ، وكنت اشعر بوطأة تأنيب الضمير لانني اقنعتة بالمجيء رغم ارادته . »

لم يكن باستطاعة احد لا يملك صبر ومثابرة كولبوس الثبات في مثل ذلك الموقف والاستمرار فيه . كانت الريح تهب بثبات من الشرق والتيار يجري عكس وجهة سير السفن التي كان عليها ان ترفع مراسيها كل صباح ، وتسير

مترنحة ، مائلة الى اليمين بعيدة عن الشاطئ وتحت المطر الغزير في اغلب الأحيان ، ثم ترد عند الظهر الى الجوانب اليسارية ، وتقف ثانية بقرب الشاطئ ، ومع غروب الشمس ترفع مراسيها لتغادر الشاطئ المخضل بالمياه في الطريق البحرية المفتوحة امامها ، وتظل تتهاذى وتندفع طوال الليل بينما يصارع البحارة البعوض القادم من المستنقعات . كانوا يتقدمون بعض الأميال في بعض الأيام ، وفي ايام أخرى كانوا يجدون انفسهم عند ذات مجموعة البساتين البرية التي كانوا بقربها الليلة الماضية . وكانت أفضل نسبة للمسافة التي كانت تقطعها السفن لا تتعدى الستة أميال في اليوم . ولكن كان على الاميرال ان يتقدم ، إذ لم يجرؤ على التواني بانتظار هبوب الرياح المعتدلة ، كما انه لم يجرؤ على التريث في عرض البحر لئلا تفوته فرصة العثور على المضيق العتيد !

واخيراً دار الاسطول في الرابع عشر من ايلول حول رأس سماه الاميرال غراسياس أديوس - أي الشكر لله - .

وقد وضع هذا حداً لهذا الصراع المميت لأن اليابسة هنا اخذت تنحرف جنوباً . ومع ان الرياح كانت لا تزال تهب من الشرق ، استطاعت السفن السير مسافة طويلة متناقلة على جوانبها اليسارية بعيداً عن الشاطئ . وبالقرب من الريو غراندي ، نيكراغو ، ألقت مراسيها للحصول على الحطب والماء . وهناك غرق اثنان من البحارة اثناء عبورها السد ، لذلك سماه الاميرال نهر الريو دي لوس ديساستريس - أي نهر المصائب . ثم عبروا مكاناً يدعى سان جوان ديل نورتي ودخلوا في منطقة أطلق عليها الهنود اسم كاريابي ، أي « كوستاريكا » حالياً .

مرت عشرة أيام على رسو السفن في جزيرة أوفا القريبة من بورتوليمون - مرفأ الليمون الحالي . وهنا أقاموا علاقات ودية (مع انها ظلت حذرة متباعدة بعض الشيء) بينهم وبين افراد قبيلة تالامانكا الهندية . وهنا ايضاً انقلبت الآية المألوفة ، إذ ان الأهالي كانوا يتوقون للمتاجرة بينما ظل الاسبان هيابين وجلين بعض الشيء . سبغ الأهالي أولاً الى السفن ومعهم تشكيلة من المشالح

القطنية وبعض الحلى المصنوعة من خلائط الذهب والنحاس المدعوة « غوانين » الشبيهة بتلك التي وجدها كولبوس في باريا ابان رحلته الثالثة . وكان واضحاً ان هذه « الغوانين » تعتبر في اسبانيا بديلاً ركيكاً عن الذهب الأصيل ، وهكذا لم يرتأ كولبوس الحصول على شيء منه ، لكنه اعطى التجار الهنود بعض الهدايا ، حملوها معهم الى الشاطيء . والشيء الثاني الذي فعله الهنود لازالة مقاومة البيع ان ارسلوا قتاين عذراوين الى ظهر السفينة الاولى في نحو الثامنة من عمرها والاخرى في الرابعة عشر . وذكر فرديناند (الذي كان نفسه بعمر الكبرى منها) بأنها « ابديتا شجاعة فائقة » ولم « تظهرأ أسى او اسفا » بل كانتا دوما تبدوان مرحتين متواضعتين ، لهذا عاملها الاميرال بمنتهى اللياقة وقدم لها الغذاء والكساء ثم أعادها الى الشاطيء . ولكن كولبوس ذكر العكس اذ قال انها تصرفتا بمنتهى البذاءة بشكل « يفوق ما ننتظر صدوره عن المومسات » - ولا شك بانه كان يعرف افضل من ابنه . وعلى أي حال ، دهش الاهالي من ورع الاسبان وعندما هبط بارثوليو الى الشاطيء في اليوم التالي برفقة الكاتب توريز حاملاً معه ورقة وريشة ودواة الحبر لتسجيل الاستملاك رسمياً ، تخيل الهنود ان الادوات جهازاً سحرياً فألقوا بمسحوق اسمر في الهواء « كبادرة طيبة » منهم لعرقلة اعمال هؤلاء السحرة الاسبان الذين لم يتضح أكانوا ذكوراً أم اناثا .

ارسل كولبوس فرقة مسلحة الى البر لاستكشاف هذا الجزء من كوستاريكا ولما عادت أعلن افرادها عن وجود حيوانات كثيرة مثل الغزلان ، والسباع الاميركية وطيور تشبه ديوك الرومي ، وتعرف اليوم بالطاووس ، كما جلبوا معهم قرداً جرحه احد الرماة ليجعل منه حيواناً أليفاً . واثناء ذلك ، اهدى هنود « بورتو ليمون » الاميرال زوجاً من الخنازير البرية احتفظ بواحد منهما كان متوحشاً جعل الكلب الايرلندي يتقهقر الى اسفل سطح السفينة حيث بقي مختبئاً طوال المدة التي ظل فيها الخنزير البري على السفينة . والتقى الخنزير اخيراً بندٍ له الا وهو القرد الذي كان بالرغم من جروحه ، يلف ذيله حول زلومة

الخنزير ثم يمسك بقفا رقبته ويعضه حتى يجعله يزجر من الألم .
وكان هذا المشهد رياضة مفرحة اذ لم يكن الرفق بالحيوان من ضمن
الاخلاق المسيحية آنذاك !

تجدد البحث عن المضيق في الخامس من تشرين الاول ، واعتقد كولبوس
عند اقتراب المساء بأنه عثر عليه في قنال البوكاديل دراغون المؤدي الى خليج
عظيم يدعى اليوم « الميرانتي » تسمية باسمه . وحالما أصبح في الداخل وجد ان
الهنود يضعون اقراصاً من الذهب الممتاز على صدورهم . واستطاع الاسبان هناك
ان يقايضوا كل ثلاثة اجراس صقور صغيرة والتي لا تساوي اكثر من بنس
واحد بقرص من الذهب يساوي اربع جنيهات .

كان الاسبان حتى هذا الوقت بدون مترجم إذ كان الاميرال قد سمح
لجوان بريز بالعودة الى بيته وهكذا ، عندما سأل كولبوس الهنود عن مضيق
يقود الى المحيط الفسيح بالاشارة - لوح له هؤلاء بنفس الاشارات الى المضيق
الضيق (يدعى اليوم سبلت هل تشانل) المؤدي الى خارج بحيرة المياه .
وأبحرت السفن عبر هذا المضيق بالرغم من انه كان ضيقاً للغاية حتى ان أعواد
الأشعة كانت تحتك بالاشجار ، ولكنهم كوفتوا برؤية شقة شاسعة من المياه .
ولكن وأسفاه ! كانت الجبال تحيط بهم من كل جانب فلم يكن هذا هو المحيط
الهندي بل بحيرة تشيريكوى .

قضى الاسطول عشرة ايام متكاسلاً على شواطئ هذه البحيرة بينما كان
الهنود يتاجرون بخفة ونشاط بأقراص الذهب والتائم المصنوعة على صورة الطيور
والتي كانوا يضعونها حول اعناقهم وقد أطلق عليها الهنود لفظة « نسور » ومن
هؤلاء الهنود علم كولبوس انه ورجاله يقبعون في برزخ يقع بين بحرين وان سلسلة
جبال شاهقة تقف سداً في طريقه . وفهم منهم ايضا او تصور خطأ بأنه فهم
قولهم ، بأن جيرانهم في الجانب الاخر من سلسلة جبال كورديليرا يملكون
سفناً حربية مجهزة تجهيزاً كاملاً بالمدافع وان نهر جنجيز يقع على مسيرة عشرة
ايام من هناك . واستنتج الاميرال من رجوعه الى نسخة الكتاب المقدس اللاتينية

ان هذه المنطقة ، لم تكن إسبانيولا ، بل مملكة الذهب كما جاء في سفر الاخبار (١٨٤٨) أي المكان الذي ارسل الملك حيرام منه اربعائة وخمسين وزنة من الذهب الى الملك سليمان . ويبدو انه اقتنع بعد وجود مضيق هناك (ولم يكن لمثل هذا المضيق وجود) اذ أخذ يحصر همه منذ ذلك الحين بتجميع الذهب وانشاء محطة للتجارة . وليس هناك أي اشارة أو ذكر في أي من كتابات معاصريه عن تلك الرحلة بأنه قام بالبحث عن مضيق ما إثر ذلك .

هبت في السابع عشر من تشرين الاول عام ١٥٠٢ رياح غربية فعبّر الاسطول بحيرة تشيريكوى عن طريق القناة الشرقية وأبحر على طول شاطئ خليج موسكيتو (البعوض) الخالي من الموانئ وظل يسير شرقاً ضد الرياح الموسمية . وكانت الشواطئ تبدو جميلة جذابة إلا انها في الواقع كانت غير مؤنسة . كذلك لم يكن هناك اماكن صالحة للرسو على طول الشاطئ الممتد مسافة أكثر من ١٢٥ ميلاً ، أي من بحيرة تشيريكوى الى خليج الليمون (مدخل بحر الكريب الذي يؤدي الى قنال بناما) إلا حيث يشكل النهر بالقرب من مصبه حافة لا تستطيع القوارب الصغيرة عبورها ، هذا اذا لم تكن الحافة متشققة . ولهذا السبب ، وبالنظر الى ان الهنود كانوا يلوحون بإشارات عدائية في المراسي القليلة التي توقف عندها ليرسل زورقاً الى الشاطئ ، رسم كولمبوس في ذهنه صورة لمرقأ يقع على الشاطئ المليء بالذهب ، وهكذا أسرع بسفنه الى الأمام بأقصى ما تستطيع الرياح الغربية الطارئة دفعه ، يحدوه أمل العثور على نقطة تكون أكثر أماناً لبناء محطته التجارية .

وقبل نهاية تشرين الاول أقبل على المنطقة موسم ممطر مزجر غير عادي . وفي الثاني من تشرين الثاني ، وبعد ان كانت السفن الاربع تسير نحو مهب الريح دخلت مرقأ جميلاً سماه الاميرال بورتوبيللو ، ولا يزال يعرف بهذا الاسم ، كما ظل طوال الحكم الاستعماري الاسباني مدينة تنعم بالبحبوحة والرخاء واقعة في الطرف الشمالي من رأس اليابسة الممتد في البحر والذي كان يستعمل معبراً

للبنغال . فلو ان كولمبوس قرر الإقامة هناك لتمكنت حاميته حتماً من السماع بوجود برزخ بناما ولشاهدت المحيط الباسفيكي قبل ان يشاهده المكتشف بالبوا بعشر سنوات . ولكن بالرغم من لطف الهنود هناك ، فلم يكن عندهم ذهب ، وهكذا مكث الاميرال مدة اسبوع تقريباً حصل خلالها على المؤن والقطن ثم تابع رحلته .

وفي التاسع من تشرين الثاني سجل الاسطول تقدماً قليلاً الى الشرق ولكن الريح ارغمته في اليوم التالي على التقهقر عدة أميال الى الوراء فدخل مرفأ سماه كولمبوس بورتو دى باستيمنتوس ، أي مرفأ المؤن . وبعد عشر سنوات عاد نيكوسا وسماه نومبر دى ديوس حيث شيد مدينة ظلت رديحاً طويلاً من الزمن تساهم بتجارة الترانزيت مع بورتوبللو الى ان غزاها فرانسيس دريك ونهبها . بقي الاسطول اثني عشر يوماً لاجراء بعض التصليحات البسيطة بينما كانت الرياح لا تزال تهب من الشرق . ومرة ثانية ضيع الاميرال الفرصة للشروع ببناء محطة تجارية في مكان مناسب .

كانت وقفة الاسطول الثانية في ميناء صغير سموه البورتوديل رتريت ، ويعرف اليوم بميناء اسكريبانوس . ونظراً لصغره المتناهي ربطت السفن الأربع متلاصقة قرب بعضها البعض على طول الضفاف كما لو انها كانت مربوطة الى رصيف المرفأ . واغتتم البحارة هذه الفرصة للذهاب خلصة الى القرى الهندية والقيام بتجارة خاصة بالسلاح ، مما سبب بعض المشاكل . إذ تجمع عدد كبير من الهنود على الشاطئ واخذوا يهددون ويتوعدون بما اضطر الأميرال لأن يحصد بعضهم بالنيران كي يتفرق الآخرون .

سثم كولمبوس من استمرار الرياح الشرقية فقرر العودة الى فيرغوا لوضع الترتيبات اللازمة بغية الحصول على مقدار اكثر من الذهب . وفي الخامس من كانون اول عاد الاسطول الى بورتوبللو . وفي اليوم التالي عصفت الرياح في الاتجاه الغربي مجدداً . وظلت السفن لمدة شهر تتقدم الى الامام وتتقهقر للوراء بين

بورتوبللو ومكان ما بقرب مصب نهر الشاغرس . وكان التيار يتغير دائماً مع تغير
الرياح حتى صار من العبث ابداء أية مقاومة ! لقد كان الطقس سيئاً بصورة
شاذة . « انا لا اقول بان السماء امطرت » قال كولمبوس « لان الأمر كان شبيهاً
بطوفان ثان » بينما كان الرعد يقصف والبرق يلمع كلما تبدلت الرياح . ومرة
تعرض الاسطول لخطر دوام هائل لكنه خرج منه بسلام بعد أن قرأ الاميرال
بصوت عال التعويذة الخاصة المشهورة في الانجيل والتي قالها القديس يوحنا
بمناسبة هبوب العاصفة المشهورة على بحر الجليل^(١) والتي جاء في نهايتها « لا تخش
شيئاً فهذا أنا » ثم استل سيفه والانجيل في يده اليسرى ورسم به اشارة الصليب
في السماء ودائرة حول الاسطول . في تلك الليلة شردت السفينة فيزكنا عن باقي
السفن ولكنها عادت والتقت بزميلاتها بعد مرور ثلاثة ايام حالكة عاصفة .
وذكر الاميرال ان قوى البحارة انهارت حتى انهم تمنوا الموت لوضع حد
لمآسهم . ثم تبع ذلك يومان هادئان ، راحت خلالها زرافات هائلة من كلاب
البحر تقفز حول السفن ، مما مكن البحارة من اصطيد عدد كبير منها ،
واستعمال بعضها للاكل ، بعد أن أخذت المؤن بالتناقص . ويذكر فرديناند
كيف ان البقسماط أصبح مليئاً بالسوس مما جعل بعض الرجال ينتظرون هبوط
الظلام ليلتهموا الثريدة المصنوعة منه ، بينما لم يبال الآخرون بالانتظار لئلا
يضيعوا عليهم وجبة عشاء فيما لو فعلوا ذلك .

وفي الثالث والعشرين من كانون الاول دخل الاسطول المرفأ المعروف حالياً
باسم كريستوبال في منطقة قنال بناما حيث أمضوا فترة عيدي الميلاد ورأس
السنة لعام ١٥٠٣ ببؤس بالغ في مرساهم قرب قاعدة كوكو سولو البحرية اليوم .
وهنا ، لو ان كولمبوس عرف فقط بأنه كان على بعد بضعة أميال من المضيق
لاستطاع ان يحل هذه الأحجية . بل وكان من الجائز ، لو انه عرف ذلك ، ان
يرسل بعضاً من زوارقه الى نهر الشاغرس ، ومنه ، يستعين بقوارب الهنود ، الى
آخر خط الملاحة حيث لا يبقى سوى اثني عشر ميلاً بالبر للوصول الى المحيط

(١) بحيرة طبرية في شمالي فلسطين .

الباسفيكي . لكنه كان في غاية الانهاك مغلوباً على أمره ، كما انشلت قوى رجاله من الصدمات المتواصلة حتى لم يبق عندهم طاقة للقيام بأي اكتشاف جديد . زد على ذلك انهم لم يكثرُوا الحديث مع الهنود ، سكان منطقة القنال الحالية ، أو انهم لم يفهموا حديثهم ! وهكذا اخفق كولمبوس بسبب أميال قليلة في انجاز اعظم اكتشاف جغرافي الذي كان بوسعه اتمامه في هذه الرحلة الهائجة .

الفصل التاسع عشر

نهر بيلين

أخذ كولمبوس اثناء عودته باتجاه الغرب على طول ساحل فيراغوا القاحل بالبحث عن موقع ملائم لإنشاء مركز تجاري يستطيع منه تجميع ذهب تلك المنطقة الوفير . وفي اليوم السادس من كانون الثاني ألقى مراسيه قرب مصب نهر سماه بيلين أي بيت لحم ، لمصادفة حلول عيد الملوك الثلاثة الذين حملوا هدايا الذهب والمر المسكاوي واللبان الذكر ليسوع الطفل . قال حسن ! وبعد ان سبر غور المياه ووجد ان عمقها يبلغ السبع اقدام قاد سفنه الى داخل المصب حيث يشكل النهر خليجاً غزير المياه . ولج الاسطول الى مأواه في الوقت المناسب إذ هبت في اليوم التالي عاصفة أخرى هوجاء . وكانت امواج ذلك الساحل تتكسر عند حافة النهر مهباً كان البحر هائجاً .

كانت رقعة الساحل هنا ضيقة جداً لا تزيد على بضعة ياردات عرضاً في بعض الامكنة ، ترتفع خلفها مباشرة أرض وعرة غير مستوية تغطيها غابات استوائية كثيفة وتليها جبال مجللة بالخضرة تغطي السحب قممها معظم الوقت . وتحتاج الرياح الموسمية هذا الساحل المؤلف من شواطئ رملية طويلة يتخللها ويفصل بينها أجراف صخرية عالية ، تجعل الرسو فيها خطراً جداً بل ويستحيل دخول معظمها حتى بالقوارب الصغيرة . أما أمطارها فغزيرة جداً . حتى ان الزراعة

على أي مدى واسع غير مرتّجحه . ولا يملك السكان القاطنون هناك اليوم من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي سوى القوارب المنحوتة من جذوع الشجر ، واذ لا تستطيع الزوارق النزول الى الماء الا في الحالات النادرة التي يهدأ فيها اليم . ولقد وجدنا نحن ، أعضاء بعثة كولمبوس من هارفارد ان هذه المنطقة ، أصعب المناطق التي اكتشفها الأميرال ، من ناحية امكانية ارتيادها ودرسها . ولم نستطع النزول الى البر عند ريو بيلين الا بمعاونة حكومة باناما التي منحتنا سفينة جر تجارية تدار بمحرك مازوت ومرشد محلي قدير وبعد ان عانينا الكثير من العثرات والحزات فوق المياه .

وبعد بضعة أيام من « عيد الغطاس » أبحر بارثولميو كولمبوس على متن زوارق السفن باتجاه الغرب طوال الساحل ووصل مجذفاً الى النهر التالي ، نهر فيراغوا قرب موطن زعيم محلي يدعى كوبيان الذي جاء ، بكل احترام وود ، بصحبة اسطول من القوارب للترحيب بالزوار . وفي اليوم التالي رحب به الأميرال على ظهر الكابيتانا .

تعتبر فيراغوا من أغزر مناطق العالم مطراً . وتتشبع الاراضي هناك بالماء حتى ان كل عاصفة تحدث طوفانا . ولقد اختبر كولمبوس ذلك في ٢٤ كانون ثاني عام ١٥٠٣ اذ اندفع أثر عاصفة امطار غزيرة في الجبال ، تيار جارف على السفن في مكان رسوها في قاع بيلين ، سيل جر معه كابيتانا وأعطب غليغيا وتركها بعد ان حمل معه صاري المؤخرة . ولولا العمل السريع الذي قام به البحارة لجنحت السفينتان على ضفة النهر . وتلا ذلك اسبوعان من المطر الشديد والسيول الجارفة ، ولم يهدأ البحر قليلاً إلا في السادس من كانون الثاني حيث تمكنت الزوارق من الخروج الى البحر . ثم قام بارثولميو برد زيارة الزعيم كوبيان وجاب المنطقة على طول طريق هندي بصحبة مرشدين محليين ، وقد نجح رجاله خلال يوم واحد يجمع ما يساوي ١٠ دولارات من الذهب دون ان يكون بحوزتهم من الوسائل سوى المدي العادية . وقد سر اكتشاف هذه المنطقة الغنية بالذهب الأميرال حتى انه قرر تشييد مركز تجاري محصن في بيلين ، يترك أخاه

مسؤولاً عنه ويعود هو لإسبانيا طلباً للامدادات . وفعلًا تم اختيار تل صغير قرب مصب النهر كموقع مناسب وأخذ رجاله ببناء المركز الذي سماه كولبوس سانتا ماريا دي بيلين . وهكذا اختار كولبوس أسوأ موقع على طول ساحل أميركا الوسطى لتشييد رأس جسر له .

وبينما كنا نجوب الساحل عام ١٩٤٠ لاختبار ما فعله كولبوس ، قابلنا أحد الباحثين القدامى عن الذهب ، الذي شرح لنا سبب بقاء ذهب فيراغوا دون استغلال كامل بقوله ، انه صعد قبل سنوات الى أعلى أحد الانهار بصحبة شريك آخر ومرشد هندي . . وبعد التجذيف مسافة اميال كثيرة سأل المرشد « أين نجد الذهب ؟ »

« هنا تماماً » قال الهندي الذي أرفق قوله بغرز سكينه في طين النهر واستخرج قبضة منه ظهرت فيها حبيبات من الذهب بقيمة عشرة دولارات ! وأضاف الباحث يقول انه أخذ وشريكه يفكران جدياً كيف سيصرفان المليون دولار الأول الذي سيحصلان عليه ! وانها عاداً حالاً الى أقرب بلدة حيث تزودا بالمؤن والأخشاب التي صنعوا منها مصاف التي كان من المفروض ان يجعلها انتاجها ثريين . . ولكن الزوبعة التالية ذهبت بجميع معداتها وقذفت بها بعيداً في البحر الكريبي . وهذا ما ظل يحدث طوال القرون الأربعة والنصف الخالية . ومع ذلك فما زال هناك « الكثير من الذهب في تلك التلال » ولكن الهنود فقط يعرفون كيفية استخراجها !

وما كادت محطة سانتا ماريا دي بيلين تصبح مركزاً تجارياً بدائياً يتألف من ١٢ بيتاً مبنياً بسعف النخيل حتى هبط منسوب النهر بشكل تعذر فيه على السفن عبور حافته . وفي تلك اللحظة ، وقد علقت السفن في الداخل ، حدث التبدل الذي لا مناص منه في موقف هنود غواياما — كان البحارة يتسللون مثنى أو ثلاث للمقايسة بالسلاح وللحصول على النساء ، ويبدو ان كوبيان كان على استعداد لتحمل كل ذلك لو انه اعتقد بان هؤلاء الزوار اللجوجين سيرحلون قريباً . أما الآن وقد تأكد بانهم عازمون على بناء بلدة والبقاء فيها فقد قرر ان

الوقت قد حان لاعطائهم « درساً » . فأرسل الى بيلين فرق استكشاف في القوارب تصرفت بشكل أثار شكوك الاسبان حتى ان ديجو منديز ، وهو نبيل متطوع في الاسطول ، أبدى استعدادة للتجذيف على طول الساحل لمعرفة ما كان يجري هناك . وبعد مسيرة بضعة أميال شاهد معسكراً يضحج بألف محارب صخّاب . وبتلك الأعصاب المدهشة المعروفة عن الاسبانيين في مواقف الخطر ، نزل الى الشاطئ وحيداً ليقابلهم . ثم عاد الى قاربه وبقي طوال الليل يراقب حركات الهنود وهو على بعد يسير من مرمى السهام . ويظهر انهم تأكدوا ان فرصة المباغته قد ضاعت عليهم فلموا جمعهم وتراجعوا الى قرية كوبيان . وبعد ان قدم منديز تقريراً الى الاميرال عاد وتبع خطاهم الى هناك . وفي وسط صخب فظيع أخرج يهدوء موسى الخلاقة وطلب من رفيقه رودريغو اسكوبار ان يخلق له شعره . والغريب ان هذا العمل لم يوقف الصراخ والصخب فحسب بل وأثار اهتمام كوبيان نفسه الذي طلب ان يقص له شعره أيضاً . وبعد ذلك قدمت له المرأة والموسى والمشط كهدية . وعاد منديز بسلام !

كان على كولبوس ان يفهم مغزى الحوادث ويعرف ان من المستحيل الدفاع عن محطته التجارية في وجه عداء الاف الهنود الذين يستطيعون التسلل بحماية الغابات الكثيفة ومباغته الموقع والتغلب عليه . ولكنه بدلا من ذلك اتخذ قراراً سيئاً جداً - ألا وهو القاء القبض على كوبيان والاحتفاظ به رهينة لديه ليضمن حسن سلوك الغوايامين . ونفذ هذا القرار فوراً بقيادة منديز نفسه الذي اوقع الزعيم الهندي وثلاثين من أفراد بيته في كمين اسباني مسلح ثم قبض عليه وساقه الى النهر مع كمية من الاواني الذهبية .. ولكن الزعيم الهندي استطاع الافلات ، وبسرعة ، نجح في اثارة البلاد بأجمعها ضد الدخلاء الاجانب .

وفي هذه الاثناء كان البحارة يحاولون الخروج بثلاث سفن عبر حافة نهر بيلين بقصد ترك غاليجا للوقوف كقلعة عاتمة لمؤازرة بارثوليو والحامية . ولكن .. في اليوم السادس من نيسان وبينما كان الاسبان يتبادلون كلمات الوداع ، بعد أن تقرر بقاء عشرين رجلاً والكلب الارلندي في حراسة القلعة ، تعرضت هذه

لهجوم حوالي ٤٠٠ هندي مسلحين بالاقواس والسهم والرمح . ولكن المهاجمين ردوا على اعقابهم بفضل شراسة الكلب ، الا انهم انتقموا بسرعة بقتل ديجو تريستان ريان كابيتانا الذي كان يلاً بعض رفاقه براميل الماء لسفينة القيادة في أعلى النهر ولم ينج من الاسبان سوى واحد وقتل العشرة الاخرون .

ظل الاميرال الذي كان يعاني مرض الملاريا بمفرده على ظهر سفينة القيادة التي كانت ترسو خارج حافة النهر بينما انطلق رجاله يجذفون نحو الشاطئ لمساعدة الحامية .. وفجأة صعد كولبوس الى أعلى الصاري وأخذ يصرخ برجاله للعودة الى السفينة ولكن صوته ضاع بين صراخ الهنود وزعيقهم ، ولم يسمعه أحد .. وهنا انتابته الحمى وأخذه الهذيان .. فرأى أحلاماً وسمع صوتاً اعتقد انه صوت الله تعالى يذكره بانه فعل لكولبوس ما فعله لموسى وداوود .. وان ما يقاسيه « مكتوب على الواح من المرمر » وان عليه ان لا يخشى شيئاً « بل يؤمن ويزداد ايماناً » .

ظلت الحالة حرجة متأزمة طوال ثمانية أيام . فرغم ان الطقس كان مؤاتياً للسفن الرابضة خارج النهر إلا انه كان من المتعذر على أي زورق عبور حافة النهر كما صار من الضروري تزويد كابيتانا ببعض بحارة فيزكانيا وبرمودا . كما ان بعض الهنود الرهائن على ظهر برمودا نجحوا بالفرار وانتحر الباقون على أعمدة سطح السفينة .

إتخذ الأميرال الآن قراراً قاسياً ولكنه كان حكيماً . فقد فكر بان وضع بارثوليو على الساحل سيصبح مؤثساً دون رهائن . فطلب متطوعاً يسبح عبر حافة النهر ويتصل مع أخيه ، فتطوع لهذه المهمة بيدرو دي لدسما .. الذي عاد بطلب عاجل من بارثوليو يلح فيه بضرورة الأمر باخلاء الحصن والالتحاق بالاسطول للعودة الى الوطن .. وتذكر كولبوس مصير حامية نافيداد فقبل الطلب !

وفي الحال اقام ديجو منديز طوفاً انتقل عليه الاسبان مع جميع معداتهم عبر

حافة النهر . وهكذا تخلوا عن غاليغا وسنتا ماريا دي بيلين وتركوهما في قاع النهر . . . ومنذ ذلك الحين لم تنجح أبداً أية محاولة لتشييد مستعمرة أوروبية هناك أو حتى في الجوار . أما أحفاد الغوياميين فقد تراجعوا إلى الداخل . وبقي ساحل فيراغو ، عدا بعض الأماكن التي يسكنها بضعة أفراد من أصول مختلطة ، يعاني من فقر مدقع ، لقد ظل موحشاً ورطباً وجميلاً بشكل أخاذ ، تماماً كما وجدته كولبوس حين نزل عليه في يوم عيد « الملوك الثلاثة » .

الفصل العـشـرون

بـوادـر الـخـطـر فـي جـمـيـكا .

غادرت السفن الثلاث - كابيتانا ، برمودا وفيزكانيا - بيلين في أحد الفصح: الموافق ليوم السادس عشر من نيسان عام ١٥٠٣ على أمل ان تتصل الى سانتو دومينغو في عيد العنصرة . وقد اقترح الأميرال ان يعرج على تلك المدينة لاجراء بعض التوصيلحات والتزود بلمؤن قبل العودة الى الوطن . ولما كان كولمبوس يعتقد انه على بعد عدة فراسخ الى الغروب من خط اسبانيولا ، ولما كان يعرف بالاختيار ان السفر ضد الريح الشرقية والتيار الاستوائي أمر مستحيل ، لذلك صمم على الابحار قريباً من اليابسة ، مستفيداً من النسيم البري ومتوقفاً كلما ساء الطقس الى أن يصل الى نقطة تقع جنوبي اسبانيولا تماماً ، وعندئذ يدرك سانتو دومينغو من جهة اليمين وسبب هذا القرار البحري ترداداً بين البحارة لأن المرشدين قدروا (خطأ كعادتهم) بأنهم كانوا حينذاك جنوبي سانتو دومينغو أو حتى بورتوريكو .

ولسوء الحظ تعرضت السفن الثلاث لهجمات البروميا . ولقد نال كولمبوس لوماً كثيراً بسبب هذا الإهمال ، وليس هناك سبب واضح وراء احجام كولمبوس عن تزفيت جوانب الأسطول في كايولورغو في كوبا او في كوكوسولو حيث قام فعلاً بتزفيت جوانب السفينة غالينا التي تخلص منها . ولكنه أجاب

على ذلك وعلى جميع الانتقادات الأخرى التي وجهت إليه في تقريره الى
العاملين بقوله :

« دع اولئك المولعين بتوجيه اللوم واكتشاف الخطأ يسألون وهم يجلسون
بأمان وسلام في بيوتهم . لماذا لم تفعل كذا وكذا ؟... كنت أتمنى أن يكونوا
معنا في هذه الرحلة ، ولكنني أعتقد جيداً بأن هناك رحلة أخرى من نوع جديد
تنتظرهم او ان يكون ايماننا عبثاً ! »

وبمعنى آخر فانه يقصد أن يقول : دع أميرالات الكراسي وملاحي
المكاتب يذهبون الى جهنم !

وبينا كانت السفن تتقدم على طول الشاطئ ، كان جميع البحارة منكبين
على المضخات او يصرفون المياه بالتتك . ومع ذلك أمر بحارة فيزكانيا بمغادرتها
بعد ان تردت حالتها في بورتوبيلو لقرب المياه اليها بصورة تبعث على الخيبة .
وتوزع بحارتها بين كابيتانا وبرمودا اللتين استمرتتا بالزحف الى الأمام حتى
تجاوزتا أبعد نقطة شرقية وصلتا اليها سابقاً في جمهورية باناما الحالية ومنها إلى
خليج سان بلاس . ظل جميع البحارة يشغلون للاحتفاظ بالسفن عائمة فلم
يتمتعوا بمشاهد ذلك الشاطئ الجميل حيث تبدو سلسلة جبال كورديليرا المسننة
صاعدة من وراء الشواطئ المشعة بالبياض والغابات الاستوائية الرائعة التي
تضم اشجار المهاغون والآبنوس وغيرها من الاشجار الثمينة التي كانت تشمخ من
بين اوراقها البراقة المتشابكة الشبيهة بالخيمة قم عملاقة تتفجر بالبراعم ذات
الالوان البرتقالية والحمراء وكأنها مشعل ارتفع من قلب الغابة المظلمة .

وفي اول ايار وصلت السفينتان الى رأس بري سماه كولبوس كابو مارموريو
أو رأس المرمر الذي يعتقد بأنه بونتادي موسكيتوس ، اي رأس البعوض
الحالي . وفيما بدأ الشاطئ هنا يميل جنوباً - شرقاً في خليج دارين ظن جميع
المرشدين والقباطنة خطأ انهم وصلوا الى وسط ساحل جزيرة غوادلوب الشرقي ،
فتألبوا على كولبوس وأرغموه على مغادرة الشاطئ عنوة والابحار شمالاً .
والحقيقة انهم كانوا في دائرة كينغستون بجميكا على بعد حوالي ٩٠٠ ميل غربي

غوادلوب . اما الأميرال فكان يعتزم الإبحار على طول الشاطئ شرقاً حتى يصل الى كابودي فيلا قبل الاتجاه شمالاً ولكن ما من احد على ظهر السفينة كان يعرف شيئاً عن ذلك الشاطئ . كما ان كولبوس كان منهوكة من آلام المفاصل ومرض الملاريا وفشل خطته لذلك استسلم لرأيهم .

وهكذا ، اندفعت كابيتانا التي نخرتها البروميا وبرمودا المثقوبة باتجاه الشمال وذلك في يوم عيد الربيع عام ١٥٠٣ وكانت تسيران مع الريح بأقصى سرعتها ولكن التيار كان يدفعهما باستمرار للجهة الواقعة تحت الريح . وبعد عشرة ايام عبرتا جزيرة كاي الصغرى الى الشمال الغربي من جيكا . وفي اليوم الثاني عشر اصابوا مكاناً من اليابسة في الارخبيل الكوبي الذي كان كولبوس قد سماه « بستان الملكة » في رحلته الثانية وقد ذكر فرديناند بأنهم كانوا يشعرون « بالجوع الشديد والانزعاج » فيما ألقت السفن مراسيها على ارض المرفأ الصغير اللينة في كاي بريتون . ولم يكن لدى البحارة شيء يأكلونه سوى البقسماط وقليل من الزيت والخل ، وقد خارت قواهم من العمل على ثلاث مضخات ليلاً ونهاراً فقد كانت السفينتان على وشك الغرق بسبب الثقوب الكثيرة التي احدثتها البروميا . وفوق كل ذلك هبت عليهم عاصفة ليلية هوجاء من تلك العواصف التي اشتهر بها هذا الشاطئ . وتسببت بتقطيع حبال برمودا التي أعطيت بدورها كابيتانا فمدت سفينة القيادة لبرمودا حبلًا وربطتها بالمرسة الوحيدة الباقية لديها ، ولحسن الحظ صمدت هذه المرسة الواحدة في تثبيت السفينتين .

اعتدلت الريح بعد ستة أيام وتابعت السفينتان سيرهما الكادح على طول الساحل الغربي بقعرين منخورين « كقرص النحل » كما قال فرديناند ، والبحارة « خائرو القوى قانطون » ، وفي نحو العاشر من حزيران وفيما كانوا لا يزالون غربي سنتياغو ، قرر كولبوس ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ حياة رجاله هي مقاومة البحر بامالة سفينتيه الى الجانب الأيسر مؤملاً بذلك ان يقودهما عبر ممر الرياح الى رأس تيبورن في اسبانيولا . ولكن كولبوس اعترف فيما بعد بان .

ذلك كان خطأ وأنه كان ينبغي عليه ان يسرع الى جيكا بنشر الأشرعة جميعها .
إذ حدث عندما وصلت السفينتان الى نقطة تبعد مائة ميل تقريباً عن اسبانيولا
ان تمكنت المياه من برمودا الى درجة مرعبة جعلت الاميرال يصدر أوامره
للسفينتين بتغيير وجهتيهما نحو جيكا ، وكان من الجائز ان ينقل بحارة برمودا الى
كابيتانا ويحاول الوصول الى اسبانيولا ولكن سفينة القيادة كانت ترشح أيضاً
ولم يكن باستطاعته ان يضمن قدرتها على مقاومة الريح لمسافة مئة ميل اخرى .
ولما كانت السفن الخشبية لا تعاني كثيراً عندما تهب عليها الريح من الخلف بل
تزداد سرعتها ، فقد كان قرار كولبوس اللجوء الى جيكا ، صائباً وحكماً .

وفي الخامس والعشرين من حزيران ، دخلت السفينتان البائستان والمياه
تكد تملأ ظهرهما خليج القديسة حنة في جيكا ، الذي كان كولبوس قد سماه
خليج سانتا غلوريا في الرحلة الثانية . وهناك شحطَ (بلغة البحارة) كولبوس
السفينتين جنباً الى جنب على رمال الشاطئ ودعمهما لكي يبقي قاعدتيهما
مرفوعتين بالتساوي . ولكن مياه المد كانت ترتفع حتى ظهرهما تقريباً ، لذلك
أقام البحارة لأنفسهم مأوى من سعف النخيل على ظهر السفينتين ظلوا فيها طوال
سنة كاملة .

كان هؤلاء الاسبان الستة عشر الجانحون الى جيكا في وضع دفاعي جيد إذ
كان هيكلا السفينتين لهم بمثابة مساكن جافة وقلعة لا بأس بها . وكانت تقع
في جوارهم قرية هندية كبيرة مكرامة . ولكن كولبوس الذي قاسى مرارة
التجربة عرف ان الاهالي لن يستمروا طويلاً في صداقتهم ، اذا سمح لبحارته
بالاتصال بهم . لذلك أمر جميع البحارة بالبقاء على ظهر السفينتين ولم يسمح لأحد
منهم بالنزول الى الشاطئ دون موافقته .

وكان اول ما استدعي الاهتمام قضية توفير المواد الغذائية فارسل كولبوس
ديجو مانديز مع ثلاثة رجال في حملة للتفتيش عن الطعام . واندفعت الحملة في
بحثها حتى نهاية الطرف الشرقي من الجزيرة حيث اشترى قارباً محلياً حملوه بالمواد
الغذائية وعادوا الى سانتا غلوريا فخورين بظفرهم . وتأميناً للحصول على المؤن

بصورة مستمرة عقد منديز مع الهنود المجاورين اتفاقية حول الاسعار نصت على أن يبيعوهم كل كعكة كاسافا بجزرتين من الزجاج وكل سقايتين كبيرتين برأس ابريم وأية كمية كبيرة من أي شيء آخر، مثل السمك او الذرة، فمقابل جرس للصقر. ولم تتضح بعد أسباب عجز الاسبان والجنويين عن اصطياد السمك بأنفسهم او قيامهم بزراعة الحبوب لأنفسهم . والواضح انه لو لم يطعمهم الهنود لقضوا نجبهم جوعاً !

والآن ، كيف السبيل للوصول الى الوطن ؟ كان مكان الاستراحة الأخير للسفينتين يطل على مشهد بحر مترامي الاطراف ، أما فرصة مشاهدة أية سفينة اسبانية أو غير اسبانية فكانت بعيدة الاحتمال ، ذلك لأن كولبوس كان قد صرح أمام الجميع بعدم وجود الذهب في جميعا . كما ان السفينتين كايبتانا وبرمودا كانتا لا تصلحان للترميم ، ويبدو ان مجارتيهما كانوا عاجزين عن بناء سفينة صغيرة ينجون بها كعجزهم عن توفير الغذاء لأنفسهم . وهكذا كانت الطريقة الوحيدة الممكنة لتلافي قضاء المدة الباقية من حياتهم في جميعا ان يرسلوا رسولا الى اسبانيولا لتدبير سفينة انقاذ !

وكالعادة أجاب كل منهم : « ليقم ديجو منديز بهذا العمل ! » جرّ ذلك الاسباني المخلص والذي لا يعرف الكلل ، القارب الكبير الذي اشتراه ، وثبت عليه قاعدة وجوانب مستعارة ثم ركّب عليه صارياً وشراعاً وانطلق به ؛ غير ان الهنود قبضوا عليه في محاولته الاولى في مكان ما بالقرب من النقطة الشمالية الشرقية ولكنه تخلص منهم وعاد أدراجه الى سانتا غلوريا . أما في محاولته الثانية فقد لقي الكثير من المساعدة . إذ اخذ بارثولميو فيشي ، القبطان الجنوي ، على عاتقه قيادة زورق آخر معه الى اسبانيولا . كما جهز بارثولميو كولبوس حراسة مسلحة بشكل اسطول من الزوارق لحماية منديز وفيشي في مياه جميعا . وعلى بعد قريب من النقطة الشمالية الشرقية تبادلا تحيات الوداع ، واندفع الزورقان في الممر المواجه للريح .

لقد أبدى اهتمام زائد بصدد رحلة الزورق هذا يفوق كل ما أبدى بصدد أي

شيء آخر في هذه الرحلة الهائجة . وبمقارنة رحلة الزورقين هذه مع عدة رحلات قامت بها قوارب الانقاذ والطوافات في الحرب العالمية الثانية ، يظهر ان المهمة لم تكن طويلة أو شاقة بصورة فريدة ، لا سيما وان هناك جزيرة على مسافة كل ١٠٨ أميال ومحطة استراحة في جزيرة نافاسا على بعد ٧٨ ميلاً فقط . كما وان الرحلة تمت في شهر حزيران حيث تخدم الرياح الموسمية قبل هبوب الاعاصير .

ولكن يجب ان لا يغرب عن البال ان لا الاسبان ولا هؤلاء الهنود كانوا معتادين على السفر في القوارب الصغيرة . ولهذا وجدوا هذه الرحلة صعبة متعبة . كان بأمر كل قبطان ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود للقيام بالمهمة . وكان البحر هادئاً عندما شرعوا بالرحلة ، تماماً كما أرادوه ، غير ان شدة الحر ازعجتهم في اليوم الأول - أما الليل فكان بارداً . وفي صباح اليوم التالي اكتشف ان الهنود شربوا حصتهم كلها من المياه .

وعند غروب شمس اليوم التالي فقد الجميع شجاعتهم ومات هندي واحد من شدة العطش بينما انهارت قوى الآخرين فلم يقووا على التجديف . وهبط ليل اليوم الثالث دون أي أثر لليابسة . ولكن ديجو منديز شاهد مع طلوع القمر خطوط جزيرة نافاسا عند اطرافها السفلى ، فوصلوا اليها بعد مسير حوالي ٧٢ ساعة من جميعا . أي أنهم كانوا يقطعون في الساعة الواحدة اكثر من ميل بقليل . وفي نافاسا روى كل واحد منهم غليظه من الماء واشعلوا النار وطبخوا عليها بعض الصدف . وصار باستطاعتهم ان يشاهدوا جبال اسبانيولا الشاهقة . وفي المساء التالي ابجروا حول رأس تيبورن .

رغب فيدشي بالعودة الى جميعا ليخبر الاميرال بأنه قام بمهمته ، ولكن بجارته رفضوا العودة . اما ديجو فحصل على بعض الهنود الجدد للتجديف وتابع السفر على طول الشاطئ المؤدي الى ازوا (حيث سبق للأسطول ان التقى بجميع سفنه بعد الاعصار الذي هب عام ١٥٠٢) ومن هناك ساروا مشياً على الاقدام الى داخل البلاد لمقابلة اوفاندو والتوصل اليه ان ينجد الاميرال . كان ذلك في شهر آب عام ١٥٠٣ . أما اوفاندو الذي كان يتمتع بحكم اسبانيولا ويخشى ان

يستعيد كولبوس منصبه فيها فكان يتمنى من صميم قلبه ان يبقى كولبوس في جميعا ليقضي البقية الباقية من حياته . وهكذا احتفظ بنديز في الداخل لمدة سبعة شهور وهو يعمله بالوعود . وأخيراً سمح له في آذار عام ١٥٠٤ ، بالذهاب سيراً على الاقدام الى سانتو دومينغو ليحاول استئجار سفينة . وكان اوفاندو يحتفظ بسفينة او سفينتين في سانتو دومينغو كمحطات فرفض إرسال أي منها لانقاذ الاميرال الذي لم يكن لديه أية وسيلة لمعرفة ما اذا كانت رسله قد وصلوا بسلام او انهم هلكوا . وبعد مضي ستة أشهر وقد اخذت رياح الشتاء الشمالية تهب على السفينتين الجانحتين على الشاطئء جاعلة الحياة عليها عسيرة قاسية ، قامت حول الاخوين بوراس الموظفين السياسيين ، حركة عصيان وتمرد أخذت تنشر اشاعات بان هذا النفي كان تدبيراً مقصوداً من كولبوس للتأثير منها وان ليس في نيته الابحار الى سانتو دومينغو . وهكذا كان الاخوان يقولان للبحارة ان عليهم الانضمام الى صفوفهم اذا كانوا فعلاً يريدون التخلص من هذا الجحيم والعودة الى الوطن ، معلنين بأنهما سوف يستوليان على بعض البنادق ويحبران بعض الهنود على التجذيف نحو اسبانيولا . وكانا يرددان « اتركوا هذا الجنوي الملعون مع اتباعه المفتونين به ليقيموا هنا ويغنوا .

وفي اليوم التالي لعيد رأس السنة عام ١٥٠٤ ، بدأ حوالي ثمانية واربعين رجلاً ، اي ما يعادل نصف الموجودين ، حركة التمرد وراحوا يجهرون بكلمة السر « الى قشتيلة الى قشتيلة » .. ثم احتشدوا في عشرة قوارب انطلقوا بها على طول الشاطئء شرقاً ، واخذوا يخطفون الهنود حيثما يجدونهم . وما كادوا يقطعون حوالي خمسة عشر ميلاً من النقطة الشمالية الشرقية حتى هبت عليهم رياح قوية من الشرق أرغمتهم على التقهقر والقاء جميع مسروقاتهم ومعظم الهنود الذين كانوا يجذفون لهم ، الى البحر . ثم قاموا بمحاولتين أخريين للعبور فباؤوا بالفشل . وهكذا غادر رجال فرقة بوراس قواربهم وعادوا متقهقرين الى سانتاغلوريا للعيش في اطراف الجزيرة .

شعر رجال كولبوس الاوفياء الآن بالجوع الشديد ينهش احشاءهم ، كالم

يبقى لدى الهنود سوى مقدار قليل من الطعام الزائد و « الرغبة بطلب المواد الاستهلاكية » كالخرز واطراف البريم واجراس الصقور . هذا بالاضافة الى ما ذكره فرديناند من ان الاسباني الواحد كان يستهلك من الطعام كمية تكفي عشرين هندياً تقريباً . وفي هذه اللحظة الحرجة قام الأميران بلعبته المشهورة المتعلقة بالחסوف : كان لديه تقويم يوحى بان القمر سيخسف كليّة في آخر ليلة من شهر شباط عام ١٥٠٤ . وهكذا دعا في ذلك اليوم جميع رؤساء القبائل المجاورين والزعماء الى ظهر كابيتانا الجانحة واخبرهم ان الله يريد منهم تزويد المسيحيين بالطعام وانه سيعطي اشارة واضحة في السماء ترمز عن مدى سخطه لعدم قيامهم بذلك . ونصحهم بان يراقبوا القمر في تلك الليلة ! وفعلاً بدأ الحسوف مع صعود القمر وفيما اخذ الظلام يزداد وينتشر هرول الهنود الى مكان السفينتين يولولون ويندبون ويرجون الأميرال لكي يوقف الغضب .

اعتكف كولبوس في غرفته طوال مدة الحسوف ولم يظهر إلا بعد ان تأكد من الروزنامة بان الحسوف على وشك الانتهاء وأعلن بانه توسط مع العناية الالهية وتعهد لها باسمهم انهم سيزودون المسيحيين بالطعام الذي يحتاجون اليه وأن الله مقابل ذلك رضي ان يزيل الظل المظلم . ونجحت هذه الخطة تماماً ولم يعد هناك أي نقص في الطعام .

وفي نهاية اذار عام ١٥٠٤ كان قد مضى ما يزيد على الثانية أشهر على إبحار رسل الزورقين الى اسبانيولا دون ان يعرف أو يسمع شيء عنهم . وفجأة دخلت سفينة صغيرة سانتا غلوريا وألقت مراساتها قرب المعسكر الاسباني . وكانت هذه السفينة الصغيرة أول سفينة يراها البحارة منذ سنتين . لقد أرسلها اوفاندو لكي يتأكد مما اذا كان كولبوس لا يزال على قيد الحياة ثم للعودة بتقرير عما كان يفعله . وكان الحاكم من الخسة بحيث أمر القبطان ديجو دي اسكوبار بأن لا يعيد معه أحداً . ولكن السفينة حملت معها رسالة شجعة من منديز تقول انه لا يزال يسعى جهده لاستئجار سفينة للانتقاذ . وترك ديجو برميلين من النبيذ وضلع لحم خنزير مملح كهدية بسيطة من اوفاندو ثم عاد ادراجه .

وما كادت هذه السفينة تختفي وراء الأفق حتى تدنت مغويات رجال
!الاميرال الى درجة لم يشعروا بمثلها من قبل ، بينما قام كولبوس بتقديم بعض
المساعدات لرجال الأخوين بوراس العصاة ، علماً منه بأنه سيلازم في حالة عدم
رجوع هذين الأخوين العزيزين الى الوطن ! ولكن الأخوين رفضا عروضه (التي
كان من بينها قطعة كبيرة من لحم الخنزير المملح) أملاً بتحريض رجال الاميرال
ليقوموا بالاستيلاء على زوارق السفن . ثم قاما بالزحف مع رجالهم على سانتا
غلوريا . حشد الاخوان كولبوس جميع الرجال المخلصين لملاقاتهم . وفي التاسع
والعشرين من أيار نشبت معركة حامية الوطيس استعملت فيها السيوف نظراً
لعدم توفر البارود ، وانتهت بانتصار رجال كولبوس الأوفياء واستسلام
المتمردين . ولكن كولبوس عفا عن الأخوين بوراس وسمح للباقيين بالبقاء على
الشاطئ تحت الحراسة .

لم تكن النجدة بعيدة المنال ، فقد تدبر ديجو منديز أخيراً استئجار سفينة
صغيرة في سانتو دومينغو وبعث بها الى جيكا بقيادة ديجو دى سلسيدو ، أحد
خدم كولبوس الأوفياء . وصل ديجو هذا سانتا غلوريا في أواخر حزيران عام
١٥٠٤ وحمل الجميع على ظهر السفينة وعاد بهم في التاسع والعشرين منه الى
اسبانيولا . وهكذا قضى الذين ظلوا على قيد الحياة من رجال الرحلة الرابعة
والبالغ عددهم حوالي المئة رجل من الأقوياء سنة وخمسة أيام في جيكا . كانت
السفينة الصغيرة في حالة بائسة إذ كان شراعها الأمامي غير ثابت ، واشترعتها
الآخرى مهلهلة وقعرها معطوباً وكانت ترشح بغزارة حتى خافوا عليها ان
تتحطم . وبعد حوالي ستة أسابيع ونصف وصلت الى سانتو دومينغو ! وهناك
استأجر كولبوس سفينة ثانية وأبحر عليها الى اسبانيا في اليوم الثاني عشر من
ايلول مع أخيه ، وفرديناند واثنين وعشرين رجلاً من أفراد فرقته . أما الاكثية
من الذين بقوا على قيد الحياة فقد فضلوا البقاء في سانتو دومينغو على المجازفة
برحلة أخرى عبر المحيط . لقد عملوا على المضخات طويلاً بحيث لن يجيوا عشر
مرات أخرى .

كانت رحلة العودة في السفينة المستأجرة طويلة ومليئة بالانواء، وقفز صاري المقدمة من مكانه وكذلك تحطم الصاري الأمامي الكبير، ولكن الأخوين كولبوس استنبطاً صارياً خشبياً من الأعواد الاحتياطية. وهكذا لم يتمكنوا من الوصول إلى سان لوكار دي باراميدا إلا في السابع من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ أي بعد مسيرة ستة وخمسين يوماً.

وانتهت الرحلة الهائجة بعد قضاء سنتين ونصف السنة في عرض البحر، بما في ذلك السنة التي انقطعوا فيها في جينكا. وكانت أخطر رحلات كولبوس الأربع وأكثرها خيبة أمل فلم يكتشف المضيق العتيد، إذ لم يكن هناك أي مضيق كما لم يكن البرزخ الذي أرسل تقريراً عنه بذات أهمية تذكر للعاهلين وثبت أيضاً أن فيراغوا الغنية بالذهب لم تكن تصلح للاستغلال. ولكنه عمل كل ما في وسعه كما كتب إلى ولده ديجو بعد عودته بوقت قصير:

« لقد خدمت سمومهما بمقدار عظيم من الكد والحب يساوي ما كنت أبذله في طلب الفردوس... بل وأكثر... وإذا قصرت في شيء كان مستحيلاً أو فوق طاقتي ووراء حدود معرفتي فإن الله تعالى لا يطلب في هذه الحالة من الإنسان أكثر من النية الطيبة والمسعى الحميد ».

الفصل الحادي والعشرون

الى الوطن ليموت

عند وصول كولبوس الى إسبانيا بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية ، كان أقل ما يتوقعه أن يدعى الى البلاط ليروي قصته... فقد كانت مثل هذه الدعوة تمنح تقريباً لجميع ربانة اعالي البحار مهما كانت رحلاتهم تافهة . لكن التقرير الذي بعث به الى الوطن مع ديجو منديز لم يترك انطباعاً حسناً لدى العاهلين . فقد كانت هذه « الرسالة النادرة » كما تدعى الآن مشوشة وغير منسقة... فهي تحتوي على بعض المعلومات الشيقة عما كان سيؤول اليه البر الاسباني الأميركي .. مع الكثير من المبررات الشخصية والبراهين غير المقنعة من انه كان يسير بمحاذاة شبه جزيرة الملايو أو بمكان آخر في الشرق الاقصى .. وفي الوقت الذي وصل فيه الأميرال الى اشبيلية في الثامن او التاسع من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ كان البلاط الملكي يقيم في « سينغوفيا » وكانت الملكة تلازم فراشها بسبب مرض ظهر انه كان آخر أمراضها . وكان هو العذر الذي قدم لتبرير عدم دعوة الاميرال إلى البلاط . لكنه لم يكن عذراً مقنعاً اذ ان ايزابيلا ، حتى وهي في الرمق الاخير ، ظلت محاطة بجاشية باكية من افراد البلاط . وكان من الممكن أن تبعث الصحاف و « النسور » الذهبية الفاخرة التي أتى بها كولبوس من فيراغوا في الملكة ، قليلاً من المرح الذي كانت بحاجة قصوى اليه . ومن المحتمل ان يكون الملك فرديناند ، وقد بلغ بعودة الاميرال المزعج الى الوطن ، بعد ان

ظن الجميع انه فقد ، قد اصدر اوامره بوجوب عدم دعوته الى القصر وازعاجه بقصة محزنة اخرى .

وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٥٠٤ فاضت روح ايزابيلا الكاثوليكية في مدينة « دل كامبو » فحزن كولبوس وخسر كثيراً بموتها .. فهي لم تكن تهزأ منه قط ... بل فهمت ما كان يحاول ان يحققه ... كما احترمت حقوقه وحمته من الحساد والمستخفين به . اما الملك فكان دائماً يعتبر الأميرال رجلاً ثقیل الظل ملحاحاً . مع انه آزره ليرضي الملكة فقط . اذ لم يكن يهتم كثيراً بالعالم الجديد بل حصر اهتمامه في الحروب والسياسة الاوروبية ... وربما كان من اللياقة ان يحضر كولبوس المؤتمر الملكي إلا ان داء المفاصل كان قد دب فيه واقعه عن السفر ... والحقيقة انه لم تكن هناك اية فائدة ترجى من قيامه بتلك الرحلة المضنية فقد كان فرديناند راضياً عن اعمال اوفاندو في اسبانيولا كما كان للأميرال سند امين في البلاط في شخص ابنه دون ديجو الذي بلغ الرابعة والعشرين من عمره الآن وصار عضواً في الحرس الملكي ... أما الابن الاصغر فرديناند فقد عاد الى عمله كوصيف ومنح رواتبه المتراكمة عن الرحلة الرابعة التي اشترك فيها وكان يردد قصة مغامراته العجيبة ... لكننا نعتقد ان الحاشية لم تكن لتهم كثيراً بالعواصف او المعارك مع الهنود ! وكصي في السادسة عشرة من عمره شاهد العالم الجديد ، لم يكن وجوده في البلاط ملائماً ...

كان كولبوس يعيش آنذاك في بيت استأجره في أبرشية « سانتا ماريا » في أشبيلية . ولم يكن يعاني أي ضيق فيما يتعلق بالحاجات الدنيوية ... فحصلته من الذهب الذي ناله في الرحلة الرابعة كانت ضخمة كما جلب له كرفجال مبلغاً قيمياً في السفينة « أكوجا » التي خرجت سليمة من اعصار عام ١٥٠٢ ولدينا ما يثبت بيعه قسماً من الذهب الى الصاغة بقيمة ٦٦٠ جنيهاً او ١٦٥ « نسراً » مزدوجاً ... هذا بالاضافة الى ان اوفاندو سلمه عام ١٥٠٤ في « سانتو دومينغو » صندوقاً من الذهب عاد به الى الوطن ، كما طالب هو بجوالي ١٨٠٠ ، ٠٠٠ دولار في اسبانيولا وهي تحمل اسمه . غير ان كولبوس ظل يشعر بالغبن وأخذ يلح على.

ابنه لكي ينال تثبيت ما دعاه بـ « اعشاره » و « اثلاثه » . فالعشر كان عشرة بالمئة من صافي صادرات كافة الاراضي التي اكتشفها والمضمونة بالعقد الاصلي لعام ١٤٩٢ ... وكان كولبوس يشكو من ان الحكومة أعطته عشراً من خمسها من الذهب فقط ، أي اثنين بدلاً من عشرة بالمئة ... اما « الثمن » المضمون كذلك بذات العقد فهو الارباح المتأتية من حقه باستئثار ثمن حمولة أية سفينة تتاجر مع « جزر الهند » . ولقد مارس هذا الحق في بعض الشحنات ... لكنه ادعى ان بوباديللا واوفاندو حجزا حصته وامتنعا عن الدفع ... أما « الثلث » فكان حقيقة مطلباً غريباً ! فقد جاء في البراءة التي منح بموجبها لقب اميرال البحر المحيط ، انها تمنحه أيضاً « أفضليات - و ... امتيازات من نفس طراز حقوق وامتيازات أميرال قشتالة الأعظم » ... أي انها تؤكد ان الأميرال الأعظم جمع $\frac{1}{6}$ / ٣٣٪ ضريبة على التجارة عبر البحار الواقعة تحت سلطته - ما بين اسبانيا وجزر الكناري - ... وقد ادعى كولبوس ان هذه المبالغ من حقه الذي يشمل كل التجارة الداخلة والخارجة من وإلى جزر الهند . ومن الواضح انه لو اعترف له بذلك الحق لما بقي من ارباح التجارة الأميركية لأحد سواه إلا القليل ، ولأصبح هو وأحفاده أغنى من ملك اسبانيا أو أي أمير آخر . والواقع ان كولبوس كان يعتبر ، حتى من مجرد تحصيل ٢٪ من الذهب رجلاً غنياً بالنسبة الى مقاييس ذلك الوقت . كما خلف وراءه كميات وفيرة لأبنائه ...

عادوا برفقته أو على ظهر سفينة بوراس ... والذين استحق لهم الآن أجور عامين كاملين ، وكان معظمهم من الفقراء الذين لا يملكون غير رواتبهم مصدراً للعيش . وقد رجا الاميرال خازن قشتالة ثلاث مرات لكي يصرف لهم أجورهم ولكن دون جدوى ! فمنح الكثيرين من تجارته المخلصين وظائف حول داره . ثم انهم أرسلوا وفداً الى البلاط مع رسائل من الاميرال الى ولده والى رجال آخرين من ذوي النفوذ لكي ينالوا رواتبهم المتخلفة ... لكن سنين مضت قبل وكان يبدي اهتماماً كثيراً بتحصيل رواتب واجور البحارة والضباط الذين

ان يقبضوا شيئاً .

وفي اوائل عام ١٥٠٥ استنتج كولبوس ان من العيب ان يترقب من الملك إعادته الى اسبانيولا كنائب عنه وحاكم عام . والواقع ان حالته الصحية وتقدمه في السن - وكان في الثالثة والخمسين - جعلاً أية رحلة أخرى عبر الاطلسي مجازفة كبرى ومنذ ذلك الحين أخذ يحاول اقناع الملك بمنح رتبة نائب الملك لابنه ديجو الذي كان قد بلغ الخامسة والعشرين آنذاك ، ولم يكن يملك أية خبرة خارج البلاط ، لكنه كان نديماً ذكياً نجح بالتقرب من الملك بزواجه من السيدة دونا ماريا الطليطلية والتي تجري في عروقها الدماء الزرقاء!... وبعد وفاة كولبوس بثلاث سنوات عين دون ديجو حاكماً لاسبانيولا وورث القاب والده جميعها ...

وفي الربيع أحس كولبوس انه بصحة تمكنه من السفر بشرط ان يركب بغلاً فقد كانت هرولة الحصان ترهقه ولا يستطيع احتمالها . وحدث ان الحكومة الاسبانية كانت قد منعت استخدام البغال للركوب رضوخاً لمطالب مربي الخيول الأندلسيين مما اضطر الاميرال لتقديم عريضة الى الملك يطلب فيها أذنًا خاصاً لاستخدام بغل . فمنحه الملك ذلك ... وكان هذا هو الاعتبار الوحيد الذي اظهره لكولبوس .. بدأ الاميرال رحلته الطويلة الى البلاط الذي كان آنذاك في « سيغوفيا » شمالي مدريد في شهر أيار عام ١٥٠٥ .

وهناك ، استقبله الملك بحفاوة واقترح تعيين حكم لتسوية دعاواه ضد العرش ... فرفض كولبوس لأن الملك أصر على ان يشمل التحكيم رتبته كنائب للملك وأميرال الى جانب مطالبه المالية . لقد كان كولبوس أكثر تمسكاً بكبريائه من أن يسمح بالتحكيم في أي شيء يملك فيه لقباً شرعياً صريحاً . عندها لمح الملك الى انه مستعد لمنحه اقطاعية لاثقة مع جراية ايجار باهظ إذا هو رضي بالتنازل عن كل ألقابه ووظائفه الرسمية مع جميع عائداتها . الا ان كولبوس رفض ذلك رفضاً باتاً واعتبره عرضاً مشيناً وغير مشرف وأصر على الحصول على كل شيء او لا شيء مطلقاً!... وهكذا لم يحصل على شيء

ولما انتقل البلاط الى « سلمنكا » ثم الى « بلد الوليد » تبعه كولمبوس على مضض ... ومضت سنة ولم يحصل شيء بينا ازداد داء مفاصله سوءاً ... فكان يقضي معظم وقته ملتزماً فراشه في بيت بالايجار . ومع هذا كان يحس احساساً أكيداً ان العدالة ستأخذ مجراها حتى أنه خصص في وصيته الأخيرة مبالغ متفاوتة من موارد الشرعية لجهات متنوعة كتخصيصه صندوق توفير لتمويل حملة صليبية ، ومبلغاً لبناء بيت في جنوى يظل مفتوحاً لخلفه دائماً ... ووقف مالا على كنيسة في اسبانيولا تقام فيها الصلوات اليومية من أجل روحه الى الأبد ... فكأنه كان يحس في بساطته ان هذه التركات الصالحة ستسترعي انتباه الله تعالى فيأخذ على عاتقه مهمة الهام الملك بتطبيقها ووضعها موضع التنفيذ .

انتعشت أماني كولمبوس في آخر لحظة من حياته تقريباً بوصول انغنتا جوانا الى اسبانيا لتطالب بعرش والدتها في قشتالة ... فقد كانت في البلاط عندما عاد كولمبوس أول مرة من جزر الهند ... فأمل ان تثبت الامتيازات التي منحتها اياها امها الطيبة .. ولما كانت وطأة المرض عليه تمنعه من الحركة أرسل الأخ بارثوليميو ليقبل يد العاهلة الصغيرة ويطلب رعايتها ...

وبينا كان بارثوليميو غائباً في مهمته هذه بدأ الاميرال بالانهيار . وفي التاسع عشر من ايار عام ١٥٠٦ صدق على وصيته النهائية جاعلاً دون ديجو وريثه الرئيسي وأوصاه بان يشمل برعايته كل أقاربه بما فيهم عشيقته السابقة بياتريز .

وفي اليوم التالي ساءت حالته ... وتجمع حول فراشه كل من ولديه ، واخيه الاصغر ديجو وعدد من رفاقه المخلصين كان منهم ديجو منديز وبارثوليميو فيشي ثم جيء بقسيس لتلاوة القداس كما تناول القربان كل فرد من تلك الحلقة الوفية من الأقارب والرفاق والخدم . وبعد الصلاة الختامية تتم الاميرال وقد مرت بذهنه الكلمات الأخيرة للسيد المخلص ، قائلاً : « يا الهي اني أضع نفسي بين يديك » .

لقد كان فراش موت حقير بالنسبة لاميرال البحر المحيط ، ونائب الملك وحاكم الجزر واليابسة في جزر الهند ... وسارت الجنازة بموكب زري لم يشترك

فيه أحد من البطارقة او الشخصيات العظيمة كما ان السجل الرسمي للبلاط لم يذكر شيئاً عن الموت او المأتم ...

وكان من سوء حظ كولبوس ان يموت في وقت كان تقدير اكشافاته فيه ما يزال ضئيلاً ، في وقت وصلت فيه ثروته الخاصة وآماله العراض الى الحضيض .

وبينما كانت حياته تدخل التاريخ وتتلشى معها ادعاءات الآخرين بانهم المكتشفون الحقيقيون لأميركا كان التقدير لما حققه كولبوس يزاد وينمو شيئاً فشيئاً .

ومع ذلك فان من مهازل التاريخ أن يموت الاميرال وهو جاهل لحقيقة ما قام به وما أنجزه وان يظل مصرأً على انه اكتشف عدداً كبيراً من الجزر ، ومقاطعة في الصين « وعالمأ آخر » دون ان يدري شيئاً عن مدى إتساع ذلك « العالم الآخر » او عن المحيط الذي يفصله عن آسيا ...

والآن - بعد اكثر من خمسمائة سنة من مولده - وبعد ان أصبح كافة الاميركيين يحتفلون بيوم اكتشاف كولبوس أول جزيرة في العالم الجديد - أصبحت شهرته ثابتة الجذور متينة على مر العصور وفي كل الازمان ...

لقد كانت له اخطاؤه وعيوبه ، ولكنها كانت عيوب الصفات نفسها التي جعلته عظيماً ألا وهي إرادته التي لا تقهر ، وإيمانه الفائق بالله ، وكذلك مثابرتة العنيدة رغم الاهمال والفقر وتثبيط الهمة ...

ولم يكن هنالك أي عيب او جانب قاتم لأعظم ميزاتة - الا وهي مهارتة البحرية - فقد كان كولبوس كملاح وربان متفوقاً في عصره فلم يسبق ان منح أحد لقباً استحقه بجدارة كاملة كاللقب الذي ناله كولبوس وحافظ عليه بغيرة وحماس - أميرال البحر والمحيط !.

فهرس عام

ملاحظة : روعيت أَل التعريف في ترتيب هذا الفهرس ولم تهمل؛ ورتبت الاعلام بحسب الاسم الاول

(أ)

٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٨ ،	آبنوس - ٢٠٤
١١٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،	ابو لهب - ١٣٥
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،	اتحاد مصانع الفولاذ - ٣٩
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،	الجزر الذهبية - ١٠٠
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ،	أجوجا - ١٨٦ ، ٢١٤
١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،	ادرلف هتلر - ٢٠
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،	اراغون - ١٤ ، ٤٣
١٩١ ، ١٩٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،	ارخبيل الجاردن دي لارينا - ١٣٥ ،
٢١٥ ، ٢١٧ ،	١٣٦ ، ١٤٠
اسبانيولا - ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ،	ارخبيل ريو كيوس - ٣٩
٧٨ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ،	ارخبيل سيبانجو - ٦٥
١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ١١٩ ،	ارخبيل كوبا - ٢٠٥
١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،	أرزيلا - ١٨٥
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤١ ،	ارسطوطاليس - ٢٧ ، ١٣٢ ، ١٦٢
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،	اروبا - ١٧٥
١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،	اسبانيا - ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،	٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ،	٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ،
١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ،	٦٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،	٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

آل كوريو - ١٥٦	٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤
آل كوينتيرو - ٤٤	٢١٦ ، ٢١٧
آل لأكوزا - ٥٨	استريتو - ٣٣
البحر الابيض المتوسط - ٩ ، ١٣ ،	اسدراس - ٢٨ ، ١٦٧
١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨٢	اسكولين - ١١٥
البر الصيني - ٧٦	آسيا - ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٥ ،
البر الاسباني - الاميريكي - ١٦١ ،	٣٩ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ،
١٨٢ ، ٢١٣	١٣١ ، ١٨٢ ، ٢١٨
البر الاميريكي - ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥	آسيا الصغرى - ٩ ، ١١
البلدان الاسلامية - ٤٨	آسيا الوسطى - ٢٤
البندقية - ١٦	اسيدور الاشبيلي - ١٥٥
ألتافيللا - ١٤١ ، ١٦٩ ، ١٨٨	اسينادا بروا - ١٣٧
الدب الأصغر - ٥٠	اشبيلية - ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٥ ،
الحان العظيم - ٣٨ ، ٦٧	٩١ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٤ ،
الخط اللوزنجي - ١٤٩	١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ،
الساندرو جير الديني - ١١٧	١٥٧ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،
الساحل الافريقي - ١٧	٢١٣ ، ٢١٤
الساحل الليغوري - ١٣	اشعيا - ١٧٧
السماء - ٥٤ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ،	افريقيا - ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤ ،
١٩٥ ، ٢١٠	٣٩ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٢٣ ،
الشاطئ البرتغالي - ١٤ ، ١٥١	١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٨٢
الشاطئ الافريقي - ٢١ ، ٦٥	افريقيا الغربية - ٨٣
الشاطئ الياباني - ٢٦	آل بوراس - ١٨١
الشاطئ الذهبي - ١٦ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ١٦٢	آل بنزون - ٤٤ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٩٦ ،
الشاطئ الكريبي - ٦٩	١٠٦
الشاطئ المراكشي - ١٨٥	آل نينو - ٤٤

الكاهن يوحنا - ٢٤
 الله - ١٨ ، ٣٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
 ٩٤ ، ١٠٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ،
 ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٠١ ،
 ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٨
 الونسو بريز - ١٦٠
 الونسو دي كرفجال - ١٥٦ ، ١٥٨ ،
 ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢١٤
 الونسو دي هوجيدا - ١٢٥ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٧٥ ،
 الونسو ميديل - ١٢٤
 الونسو نينو - ١٥٦ ، ١٧٥
 الولايات المتحدة - ٧٨ ، ١١٥
 المسيح - ١١ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٦٠ ، ٩٤
 المحيط الباسيفيكي - ١٤٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦
 المحيط الاطلسي - ١٥ ، ١٩ ، ٢٨ ،
 ٤٧ ، ٤٨ ، ١٨٢ ، ٢١٦
 المحيط الاطلسي الشمالي - ١٧
 المحيط الهندي - ٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٢
 النورس - ٥٥
 الملك حيرام - ١٩٣
 الملك سليمان - ١٩٣
 الهاندرا - ٨٨
 الهند - ١٦ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ١٠٠ ،
 ١٠٨ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ،

الشرق الأدنى - ٢٣
 الشرق الذهبي - ١٧
 الشرق الأقصى - ٢٥ ، ٣٩ ، ١٦٨ ،
 ٢١٣
 الشمس - ٥١ ، ٥٣ ، ٨٥ ، ٩٣ ،
 ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ،
 ٢٠٨
 الضريح المقدس - ٢٤
 العالم الجديد - ٧٥ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٦٧ ، ٢١٤ ، ٢١٨
 العذراء - ٥٣
 الفردوس - ٢١٢
 الفلبين - ٣٩ ، ١٢٣
 القدس - ٢٤
 القديس أغسطين - ١٦٧
 القديس امبروز - ١٦٧
 القديس برندان - ٢٨
 القديس فرناندو - ١٣٦
 القديس فلانتين - ٨٢
 القديس كريستوفر - ١١
 القديس يوحنا - ١٠١ ، ١٩٥
 القرام - ٣٩
 القمر - ٥٨ ، ٨٥ ، ١٤١ ، ١٦١ ،
 ١٦٦ ، ١٦٩ ، ٢١٠
 آكول - ٧٣ ، ٧٤

انغتتا جواتا — ٢١٧	١٨٢ ، ١٥٧
اوروبا — ٩ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،	امبراطور الصين — ٦٧ ، ١٥١
٢٦ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٨ ،	امستردام — ٣٩
٦٩ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٥ ،	اميركا — ٩ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ ،	٦٣ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠٣ ،
١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٢	١٠٨ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
اوروبا الجنوبية — ٢٥	١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٧٩
اوروبا الشرقية — ١١ ، ٩٩	اميركا الجنوبية — ١٦١
اوريان دى موكسيسكا — ١٧٦	اميركا الشمالية — ٥٧
اورنتي — ٦٦	اميركا الوسطى — ١٤٠
اوفاندو — ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،	اميركا الاسبانية — ١٧٤
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ،	اميركو فيسبوتشي — ١٠٢ ، ١٦٧ ،
٢١٥	١٧٥
اوفيدو — ٥٨ ، ١٤٤	آن دي بيجو — ٣٤
اوسنثيون — ١٦٦	انتاريو الغربية — ٢٦
الاخوان بوراس — ٢٠٩ ، ٢١١	انتورب — ٩٨
الاخوان كولمبوس — ٣٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،	انجوس — ٨٣
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢١١ ،	اندرى برتالدينز — ١٠٧ ، ١٣٦ ،
٢١٢	١٤٦ ، ١٥٤
الاراضي المقدسة — ٢٤	اندونيسيا — ٢٣ ، ١٦٧
الاراضي الواطنة — ٤٨	اندلوسيا — ٤٥
الارمادا — ١٠٤	انديا — ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٦
الامبراطورية البريطانية — ١٤٢	انسنادا باكو — ١٦٤
الامبراطورية الرومانية — ١٧	انطونيو — ١٢
الام كاري — ٥٥	انطونيو دى توريز — ١٢٥ ، ١٤٥ ، ١٨٦
الاندلس — ٥٥ ، ٩٣ ، ١٠٥	انطونيو دى مارشينا — ٣٠

آياي — ۱۵۵	۱۳۰ ، ۱۳۲ ، ۱۴۱ ، ۱۴۲ ،
ايرلندا — ۱۹	۱۴۳ ، ۱۴۴ ، ۱۴۵ ، ۱۵۵ ،
ايزايللا — ۳۲ ، ۳۸ ، ۴۳ ، ۴۸ ، ۸۷ ،	۱۸۲ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴ ،
۸۸ ، ۹۱ ، ۹۳ ، ۹۷ ، ۹۸ ،	ايسلندا — ۱۹ ، ۲۵ ،
۱۲۰ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۲۵ ،	ايكاكوس — ۱۶۱ ،
۱۲۶ ، ۱۲۷ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹ ،	ايوب — ۱۸۷ ،

(ب)

بابا الكسندر السادس — ۹۷	۴۷ ، ۸۸ ، ۹۱ ، ۹۶ ،
بابك — ۷۰ ، ۶۹	باناما — ۱۹۸ ، ۲۰۴ ،
بارثوليو — ۱۲ ، ۱۴ ، ۱۶ ، ۳۴ ، ۳۵ ،	باولو توشكانللي — ۲۶ ،
۳۷ ، ۹۹ ، ۱۴۳ ، ۱۴۴ ،	باهيا باريائي — ۶۶ ،
۱۴۶ ، ۱۴۹ ، ۱۵۷ ، ۱۷۰ ،	باهيا سيلست — ۱۶۴ ،
۱۷۳ ، ۱۷۴ ، ۱۷۶ ، ۱۷۷ ،	بايونا — ۸۸ ،
۱۸۳ ، ۱۸۷ ، ۱۹۱ ، ۱۹۸ ،	بتبانو — ۱۳۷ ،
۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۱۷ ،	بتشالا — ۱۴ ،
بارثوليو بريستريلو — ۱۹	بحر الجليل — ۱۹۵ ،
بارثوليو دياس — ۳۳ ، ۸۶ ، ۱۳۸ ،	بحر الكريب — ۱۱۳ ، ۱۸۸ ، ۱۹۳ ،
بارثوليو فيشي — ۱۸۳ ، ۲۰۷ ، ۲۰۸ ،	۱۹۹ ،
۲۱۷	بحيرة تشيريكوي — ۱۹۲ ، ۱۹۳ ،
باريا — ۱۶۶ ، ۱۷۳ ، ۱۹۱ ،	بدرود جوتيريز — ۴۴ ، ۱۱۹ ، ۱۵۵ ،
باستيداس نينو — ۱۷۹ ، ۱۸۲ ،	بدرود تيرپروس — ۱۳۲ ، ۱۶۴ ،
بارونوم — ۱۵۴	۱۸۳ ، ۱۸۶ ،
باريس — ۹۸ ، ۹۹	بدرود لاسما — ۲۰۱ ،
بالبوا — ۱۲۸ ، ۱۹۴	بدرود مارغرت — ۱۲۹ ، ۱۳۰ ، ۱۴۴ ،
بالوس — ۳۰ ، ۳۶ ، ۴۱ ، ۴۲ ، ۴۴ ،	۱۴۵ ، ۱۴۸ ،

بر الصين — ٢٥	بورتو بلاتا — ٧٨
برازيل — ٩٨	بورتو بلانكو — ٧٧
براكوا — ٧١	بورتوبيلو — ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٤
برتغال — ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩	بورتو جيبارا — ٦٧
٣٠ ، ٣٢ ، ٩٨ ، ١٤٥ ، ١٥٥	بورتو دي لوس هيدالغوس — ١٢٨ ، ١٤٦
برشلونة — ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧	بورتو دي باستيمنتوس — ١٩٤
٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٤	بورتو ديل رتريت — ١٩٤
برمودا — ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٠١	بورتوريكو — ٧٨ ، ١٠٣ ، ١١١
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	١١٨ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ٢٠٣
بزة — ٣٥	بورتو سانتو — ١٩ ، ٢٠
بستان الملكة — ٢٠٥	بورتو غراند — ١٣٣
بطليموس الاسكندراني — ٢٥ ، ٢٦	بورتو فيتو — ١٣
١٠٢ ، ١٦٧	بورتو فيجو ازوا — ١٨٧
بكينغ — ٢٦	بورتو كايوموا — ٧٠
بلد الوليد — ٢١٧	بورما — ٢٣
بلدة القديسة ماري — ١٣٩	بوفورت — ١٨٧
بنتا — ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٦	بوغاز بوكاديل دراغون — ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨
٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٧ ، ٧٨	بوكادي دي سيرب — ١٦١
٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٨	بوكا غراندي — ١٣٦ ، ١٦٢
٨٩ ، ٩٦ ، ١٣٩	بونكا — ١٨٨
بنزون — ٤١ ، ٦٠ ، ٩٦	بونتادي موسكيتوس — ٢٠٤
بنك القديس جورج — ١٩	بونتاكو باروبيا — ٦٧
بهايا تانامو — ٧٠	بونس دي ليون — ١١٧
بهايا كورتيس — ١٣٨ ، ١٨٢	بوينت اوف اروز — ٧٨
بوديتش — ١٨٧	
بوراس — ١٨٧ ، ٢١٥	

بياتريز انريكو - ٩١ ، ٣١	بيرو - ١٠٥
بياتريز دي بوباديللا - ١٠٧ ، ٤٩	بزارو - ١٢٨
٢١٧ ، ٢١٥ ، ١٥٧	بيناردديل ريو - ١٣٧
بيت لحم - ١٩٧	بينتو - ٤٣
بيتر مارتين - ١١٦	بيلين - ٢٠٣ ، ٢٠٠ ، ١٩٨ ، ١٤٧ ، ٨٦
بيتر مارتير الانفيراني - ١٠٧ ، ١٠١	بيير دايلي - ٢٧
١٦٧	بيير الونسو نينو - ١٧٩ ، ٤٤

(ت)

تاغوس - ٨٥ ، ٣٤	تشيوس - ١٢٣ ، ٦٩ ، ١٩ ، ١٤
تالافيرا - ٣٥ ، ٣٤ ، ٣٣	توباكوس - ٦٨
تروا ريفيري - ٧٢	تودوس لوس سانتوس - ١١١
تروجيلو - ١٨٨ ، ١٠٥	توريز - ١٩١ ، ١٢٨ ، ١٢٦
ترينيداد - ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٣٧	توسكانلي - ٢٨ ، ٢٧
تشارلز الثامن - ٩٦	تومنسون - ١٠٣

(ث)

١٨ - ثولا

(ج)

ج. و. ماكلروي - ٥١	٢٠٤ ، ١٩٢ ، ١٢٩
جامعة سلمكة - ١٠١	جبل أليكو - ٧٠
جبال اسبانيولا - ٢٠٨	جزيرة آزوا - ٢٠٨ ، ١٨٨
جبال الألب - ٩٨	جزر استر مدوره - ١٢٨ ، ١٠٥
جبال ترينيداد - ١٦٣ ، ١٣٦	جزيرة انفادا - ١١٧
» سينترا - ٨٥	جزيرة اوفا - ١٩٠
» كورديليرا - ١٢٨ ، ١٢٥	جزيرة اوكينوا - ٣٩

جزيرة ايزابيلا - ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٧٣ ، ١٨٥	٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
جزيرة ايناغوا - ٧٧ ، ٧٠	جزيرة سان كروا - ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١١٨
جزيرة بابل - ٧٠	جزيرة سانتا كروز - ١١٥
جزيرة بابيكو - ١٣٤	جزيرة سانت كيتس - ١١٥
جزيرة بربادوس - ١٦٠	جزيرة سانتا ماريا - ٨٣ ، ٨٤
جزيرة برمودا - ٨٠	جزيرة سانتا ماريا دي غوادلوب - ١١٤ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١٠٥
جزيرة بيهاتانا مو - ٧٠	جزيرة سانتا ماريا غالانتي - ١١١ ، ١١٢
جزيرة بورتو كايوموا - ٧٠	جزيرة سانتو دومينكو - ١٦٦
جزيرة بوركوين - ١١٧	جزيرة ساوونا - ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩
جزيرة بيتا - ١٧٠	جزيرة سيداد تروجيللو - ١٧٠ ، ١٧٣
جزيرة توباكو - ١٦٠ ، ١٦٣	جزيرة شاريس - ٨٧
جزيرة ترينداد - ١٦١	جزيرة شاكا شاكار - ١٦٦
جزيرة تورقوغا - ٧١	جزيرة غريتوزا - ١١٧
جزيرة جاوا - ١٢٣	جزيرة غرينادا - ١٦٦
جزيرة جيريز - ١٠٥	جزيرة غوافشي - ١٣٥
جزيرة دوشيت - ١٢٣	جزيرة فرو - ٥٠ ، ٥٥ ، ١٠٨
جزيرة دومينيك - ١١١ ، ١٨٥	جزيرة فلورزا - ٢٨ ، ٨١
جزر رأس فيردي - ١٥٨ ، ١٦٩	جزيرة فيكوس - ١١٧
جزيرة رونوك - ١٢٣	جزيرة كاي الصغرى - ٢٠٥
جزيرة ريو باكوديل نورث - ٧٨	جزيرة كورفو - ٢٨
جزيرة سابا - ١١٤ ، ١١٥	جزر لوس - ١٥٩
جزيرة سانت استاتوس - ١١٥	جزيرة ليسانتي - ٢١٢
جزيرة سانتا غلوريا - ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨	

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،	جزر لا برينتو دي دوزي ليغاس - ١٤٠
١٥٧ ، ١٦٠	جزر لاس انس ميل فرجينتر - ١١٦ ،
جزر الانتيل الكبرى - ١٨٥	١١٧
جزر ليوارد - ١١١	جزر البهاما - ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ ،
جزر الهند - ٩ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ،	١٤٨ ، ١٧٥
٢٧ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٦ ،	جزر الأزور - ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ،
٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٧٥ ،	٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ،	٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٥٠ ،
١٠١ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،	جزر الاغريق الشرقية - ٢٠
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ،	جزيرة القديس توماس - ١١٧
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ،	جزيرة القديس جون - ١١٧
٢١٥ ، ٢١٧	جزيرة مارتين - ١١٤
جزيرة الهند الغربية - ٧١	جزيرة القديس يوحنا المعمدان - ١١٧
جزيرة ماتينينو - ٧٩ ، ٨٧ ، ١٠٨ ،	جزر الكريب - ٨٧ ، ١١١ ، ١١٢ ،
جزيرة مارتينيك - ٧٩ ، ١٨٥	١٢٧ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
جزيرة مارغريتا - ١٦٦ ، ١٦٨ ،	١٨٢
١٦٩ ، ١٧٥	جزر الكناري - ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
جزيرة مونت كريستي - ٧٧ ، ١١٨ ،	٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ١٠٠ ،
جزيرة نافاسا - ٢٠٨	١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٥ ، ١٥٨ ،
جزيرة نيفز - ١١٤	١٦٠ ، ١٧١ ، ٢١٥ ،
جزيرة هاي تي - ٧١	جزر الماديرا - ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٥٧ ،
جزيرة هرو - ٥٠	جزيرة الملايو - ١٠٢
جمهورية دومينيكا - ١٧٣	جزر الانتيل - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٩ ،
جيمكا - ١٠٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ،	٥٦ ، ٦٥ ، ٨٧ ، ١٢١ ، ١٣٢ ،
١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ، ٢٠٣ ،	١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٨٥ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،	جزر الانتيل الصغرى - ٨٧ ، ١٠٣ ،

١١٤ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٧٥	٢٠٨ ، ٢٠٩
جون كابوت - ١٦٤	جنوى - ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ،
جون كوينتيرو - ١٨٣	١٩ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٤٧ ، ٩٩ ،
جون الثامن - ٩٨ ، ١٥٥	١٠٦ ، ٢١٧
جون الثاني - ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٥٧	جهنم - ٢٠٤
١٥٨	جوانا هاني - ٦٣
جون نينو - ٤٤	جوزيه فاغارتيز - ١٠١
جيانتيو - ١٢	جوميرا - ٤٩
جيريز دي لافرونتيرا - ٤٥	جون اغوادو - ١٤٨ ، ١٥٣
جبل فونيز - ١٩	جون بريز - ٣٦ ، ٣٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢
	جون دي لاکوز - ١١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

(ح)

حصن لافیکا - ١٧٤	حبشة - ٢٤ ، ١٣٧
------------------	-----------------

(خ)

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥	خط سيراليون - ١٥٧ ، ١٥٨
خليج بتيانو - ١٣٧	خط الطول - ٢٩ ، ١٨٩
خليج بوكا غراندي - ١٦٦	خط العرض - ٤٨ ، ١٥٧ ، ١٦٢
خليج بوكو يرون - ١١٨	خط الاستواء - ٢٠ ، ٢٩ ، ٩٨ ،
خليج داريان - ١٨٢ ، ٢٠٤	١٥٥ ، ١٦٩
خليج سان بلان - ٢٠٤	خليج أرين - ١٦١
خليج سانتا غلوريا - ١٣٤ ، ٢٠٦	خليج آكول - ٧٣
خليج سامانا - ٧٨ ، ١١٨	خليج العربي - ٤٠
خليج سيام - ١٣٨	خليج الميراني - ١٩٢
خليج غراند أنسي - ١١٢	خليج الليمون - ١٩٣
خليج غوانتانامو - ١٣٣	خليج باريا - ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،

خليج غواکنايابو - ۱۳۴ ، ۱۳۵	خليج مارا کيبو - ۱۷۵
خليج غينيا - ۱۵	خليج موستيك - ۷۲
خليج قادس - ۱۵۱	خليج موسکيتو - ۱۹۳
خليج قدیسة حنة - ۱۳۴ ، ۲۰۶	خليج مکسيکو - ۱۸۹
خليج کاراکول - ۷۴ ، ۱۱۸ ، ۱۱۹	خليج مونتيغو - ۱۳۵ ، ۱۴۰
خليج کوشينوس - ۱۳۶	خليج نهر الملح - ۱۱۵ ، ۱۱۶
خليج لونگ - فرنانديز - ۶۰	

(د)

داوود - ۱۵۷ ، ۲۰۱	ديجو دی اسکوبار - ۲۱۰
درفيل - ۱۶۰	ديجو دی ديزا - ۳۳
دل کامبو - ۲۱۴	ديجو دی سلسيدو - ۲۱۱
دوم هنري - ۱۵	ديجو دی هارانا - ۳۱ ، ۷۵ ، ۱۱۹
دولو - ۲۹ ، ۳۳	ديجو کاو - ۲۱
دومنيکو کولبو - ۱۰ ، ۱۲ ، ۱۰۱	ديجو کولون - ۲۰ ، ۳۰ ، ۳۶
دومينيكا - ۱۰۸ ، ۱۵۸ ، ۱۶۰	۱۰۵ ، ۱۱۹ ، ۱۳۰ ، ۱۳۲
دون جوان - ۹۴ ، ۹۵ ، ۱۲۶	۱۳۳ ، ۱۳۸ ، ۱۴۱ ، ۱۴۴
دون جوان القاشتيلى - ۹۴	۱۷۶ ، ۱۷۷ ، ۱۸۳ ، ۲۰۸
دون جوان دی فونيسکا - ۱۰۵	۲۱۲ ، ۲۱۶
دون جوانا دی توريز - ۱۷۷	ديجو مارکوس - ۱۱۲
دون ديچو - ۹۵ ، ۱۵۴ ، ۱۷۸	ديجو منديز - ۲۰۰ ، ۲۰۱ ، ۲۰۶
۲۱۴ ، ۲۱۶ ، ۲۱۷	۲۰۷ ، ۲۰۸ ، ۲۰۹ ، ۲۱۰
دون کيشوت - ۹۸	۲۱۱ ، ۲۱۳ ، ۲۱۷
دونا ماريا الطليطلية - ۲۱۶	دير القديس انطونيو دی کاستينيرا -
ديجو تريستان - ۱۸۳ ، ۲۰۱	۸۸
ديجو تشانکا - ۱۰۶	دير لاس کوفاس - ۱۷۸

(د)

رأس هندوراس - ۱۸۸	رابطة التجار المغامرين - ۳۹
رأس هيتيان - ۷۴ ، ۱۱۸ ، ۱۲۰	رأس الرجاء الصالح - ۸۶ ، ۳۴
رودريغو - ۶۸	۱۸۲
رودريغو اسكوبار - ۲۰۰	رأس الصليب - ۱۳۵ ، ۱۴۰
رودريغو دي اسكوبيدو - ۴۴	رأس المرمر - ۲۰۴
رودريغو دي تريانا - ۶۰	رأس انجانيو - ۱۱۸
رودريغو دي كسيرس - ۶۷	رأس بومبيدور - ۱۶۱
رودريغو سانشيز - ۴۴	رأس تيبورن - ۲۰۸ ، ۲۰۵ ، ۱۴۱
روفائيل ج. سانشيز - ۱۰۰	رأس جراسياس ادوس - ۱۸۹ ، ۱۹۰
روم كاي - ۶۵	رأس جزر فيردى - ۹۷ ، ۹۸
روما - ۹۳ ، ۹۷ ، ۹۸ ، ۱۱۴	رأس جيكا الشرقي - ۱۴۱
روي دياز دي سلا - ۹۶	رأس روکا - ۸۵ ، ۸۶
رينيه الثاني - ۱۴	رأس سانت فينسنت - ۲۶ ، ۱۵
ريو بيلين - ۱۹۸	۷۱ ، ۸۰ ، ۸۴ ، ۸۵ ، ۸۸
ريو بينو - ۱۳۵	۱۵۱ ، ۱۶۹
ريو تينتو - ۳۰ ، ۴۷	رأس قد - ۶۹
ريو جانيكو - ۱۲۹	رأس القديس نقولا - ۷۱
ريو رومانو - ۱۸۹	رأس كوبا الغربي - ۱۳۹
ريو سالتيز - ۳۰ ، ۸۸	رأس لاغليرا - ۱۶۱
ريو غراندي - ۱۹۰	رأس ميسي - ۷۱ ، ۱۳۲

(س)

ساحل كوبا الجنوبي - ۶۰۳	ساحل اميركا الوسطى - ۱۹۹
ساحل كزاركوا - ۱۷۴	ساحل غوادلوب - ۲۰۴
سارجاسو - ۸۰	ساحل فيراغوا - ۱۹۷ ، ۲۰۲

سان جوان دي پورتوريكو - ۱۱۷	ساروتا - ۱۸۵
سان جوان ديل نوري - ۱۹۰	سافوتا - ۱۲ ، ۱۰۶
سان جورج دامينا - ۲۰ ، ۳۹ ، ۱۲۳	سالتيز - ۴۸
سان سبستيان - ۴۹	سانتافي - ۳۶ ، ۳۷ ، ۳۸
سان سلفادور - ۶۱ ، ۶۴ ، ۶۵	سانتا كلارا - ۴۲
۶۷	سانتا ماريا - ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۹
سان لوکار دي باراميدا - ۲۱۲	۵۲ ، ۵۹ ، ۶۰ ، ۷۰ ، ۷۱
سانتنگيل - ۹۱	۷۳ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۷۶ ، ۱۰۶
ساتو بانزا - ۹۸	۱۷۵ ، ۲۱۴
ساوتياغو - ۱۵۸	سانتا ماريا لا انيغوا - ۱۴۴
ساووتا - ۱۸۶	سانتا ماريا دي بيلين - ۱۹۹ ، ۲۰۲
سبا - ۱۳۱	سانتا ماريا دي فرتود - ۸۷
سترابون - ۲۷	سانتا ماريا دي مونسيرا - ۱۱۴
ستريتو - ۲۹ ، ۳۳	سانتا ماريا دي لانسين - ۱۱۴
ستيفين غوينر - ۱۰۱	سانتا ماريا لارندا - ۱۱۴
سلحفاة - ۱۳۵	سانتا ماريا دي لکبنسيون - ۶۵
سلمنکه - ۳۳ ، ۲۱۷	سانت انستاسيا - ۱۱۵
سنتياغو بالوس - ۱۸۳	سانت برندان - ۵۶
سنتياغو دي کوبا - ۱۳۳ ، ۱۳۴	سانت دومينغو - ۱۰ ، ۱۱۱ ، ۱۴۱
۱۶۹	۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۷۰ ، ۱۷۳
سنیکا - ۱۸ ، ۹۹	۱۷۴ ، ۱۷۵ ، ۱۷۶ ، ۱۸۵
سوزانا - ۱۰ ، ۱۱	۱۸۶ ، ۲۰۳ ، ۲۰۹ ، ۲۱۱
سيبانجو - ۲۴ ، ۲۹ ، ۷۳ ، ۱۳۱	۲۱۴
سيباو - ۷۳ ، ۷۷ ، ۱۲۰ ، ۱۲۳	سانت فرناندو - ۳۶ ، ۳۷
۱۲۴ ، ۱۲۵ ، ۱۳۱ ، ۱۵۱	سانت مفيل - ۸۳
سيبوني - ۶۳	سان جوان - ۱۳۱ ، ۱۴۹

سيغوفيو - ٢١٣ ، ٢١٦

سينغوغس - ١٣٦

سيراليون - ١٥٩ ، ١٦٢

سيرسي - ١٠٧

(ش)

شاطيء كوبا الجنوبي - ١٣٥ ، ١٨٨
شاطيء لابرينتو دي دوزي ليغاس -
١٣٥

شاطيء مورانت كايز - ١٨٨

شاطيء هندوراس - ١٨٨

شانكا - ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨

شاؤول - ١٥٧

شبه جزيرة الملايو - ١٣٨ ، ٢١٣

شبه جزيرة باريا - ١٦٣ ، ١٦٤

شبه جزيرة بونتاديل سراقيم - ١٣٧

شبه جزيرة زبانا - ١٣٧

شبه جزيرة سامانا - ١٧٤

شمال اوروبا - ١٤

شاثانوغا - ٢٦

شارل الثامن - ٣٤ ، ٣٧

شاريس - ١٠٨

شاطيء اسبانيولا - ١٨٦ ، ١٨٧

شاطيء آسيا الشرقي - ٢٧

شاطيء افريقيا الغربي - ١٥

شاطيء البرتغال - ٨٥

شاطيء الصين - ٩٧

شاطيء اوروبا - ١٤

شاطيء اميركا الجنوبية - ١٧٩

شاطيء بورتوريكو - ١١٨

شاطيء جميعا - ١٨٨

شاطيء دومينيكا الشرقي - ١١٢

شاطيء غينيا - ١٧

(ص)

٦٨ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١٢٣ ،

١٣١ ، ١٣٧ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ،

٢١٨

صقلية - ١٧٨

صين - ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

٢٦ ، ٣٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

(ط)

طليطلة - ١٠٥

طوكيو - ٢٦

(ع)

عبدالله الدرويش - ٤٠ | عدن - ١٦٨ ، ١٧٠

(غ)

غواتلوب - ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٥٠ ، ٢٠٥	غاتوس - ١٦٦
غوارينكس - ١٧٣	غالوي - ١٩ ، ٢٨
غواكنغاري - ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٤	غاليا - ١٢٥
١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧	غاليسيا - ٤١ ، ٤٢
غوانتنامو - ١٣٣	غاليغا - ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
غولغو دي لادام - ١٥٩	غراند رابيدز - ٢٦
غوميرا - ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨	غرناطة - ٣٦ ، ٣٧ ، ٩٦ ، ١٧٨
غيانيتو كولبو - ١٥٨	غواتغوانا - ١٤٦ ، ١٤٧
غينيا - ١٨ ، ٦٧ ، ١٥٧ ، ١٦٢	غواتيالا - ١٤٢

(ف)

فرجينيا - ١٢٧	فاسكو دي غاما - ١٣٨ ، ١٥٥
فرديناند الاراغوني - ٣٢ ، ٩٤	١٨٢ ، ١٥٧
فرديناند - ١٨ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤٨	فالادوليد - ١٥٤
٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٨	فرانيس دريك - ١١٧ ، ١٩٤
١٠٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤١	فرانيسكو برمودي - ١٨٣
١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥	فرانيسكو بوراس - ١٨٣
١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١	فرانيسكو دي مايرونز - ١٦٧
١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٥	فراي الكسندري - ١٨٣
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤	فراي بويل - ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥
فرغاني - ٢٥ ، ٢٦	١٤٨ ، ١٥٣
فرنسا - ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ١٤٣ ، ١٧٩	فراي جون برينز - ٤١ ، ٩١

فرنسيسكو بنزون - ٤٤	فيجاريا - ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٦
فرنسيسكو بيزاروا - ١٠٥	فيجو - ٨٨
فرنسيسكو دي بوباديللا - ١٧٦ ،	فيراغوا - ١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦	فيزكانيا - ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤
فرنسيسكو رولدان - ١٧٣ ، ١٧٤ ،	فيلبا بريستريلو أمونيز - ١٩ ، ٢٠ ، ٣٠
١٧٥ ، ١٧٦	فينسنت البوفاري - ١٥٥
فكوينوس - ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧٥	فينسنت بانيز بنزون - ٤٤ ، ٧٠ ،
فتزويلا ، ١١١ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ،	٧٤ ، ٨٢ ، ١٧٥
١٧٥	فيلا دي لانفيدا - ٧٥
فوتنبلي - ٣٥	فيلا سكويز - ١٣٣
فونشال - ١٩ ، ٢٠ ، ١٥٧	فينلاند - ٢٥
فونيسكا - ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٥٦	فيو تشر أيلند - ٦٥

(ق)

قادس - ٣٠ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،	قبيلة هيجوي - ١٤٦
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٤ ، ١٥١ ،	قديس سمعان - ١٠٨
١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،	قرطاجنة - ٩١
١٨٥	قرطبة - ٣١ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٩٣
قبيلة تالامانكا - ١٩٠	قسطنطينية - ٢٣
قبيلة تينو - ٦٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٢ ،	قشتالة - ٣٥ ، ٤٣ ، ٩٦
١٣٥ ، ١٤٦	قشتالة - ١٠٧ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٧٦ ،
قبيلة سيغوايو - ٧٨ ، ١٧٣	١٨١ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧
قبيلة غواياما - ١٩٩	قصر الحمراء - ١٧٨
قبيلة كراغوا - ١٤٦ ، ١٤٧	قصر الكازار - ٣٢
قبيلة مارين - ١١٩	قطب الشمالي - ١٩ ، ٢٠
قبيلة ماغوانا - ١١٩ ، ١٧٣	قطر - ٤٠

قنال بناما - ۱۹۳ ، ۱۹۵

قنال تور توجا - ۷۲

قلعة سانت توماس - ۱۲۹

قناصة - ۵۵

قنال بوکادیل دراغون - ۱۹۲

(ک)

کری - ۱۳۵

کروکد ایلند - ۶۵ ، ۶۶

کریستوفر کولبوس - ۹ ، ۱۰ ، ۱۱

۱۲ ، ۱۳ ، ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۶

۱۷ ، ۱۸ ، ۱۹ ، ۲۰ ، ۲۱

۲۳ ، ۲۴ ، ۲۵ ، ۲۶ ، ۲۷

۲۸ ، ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲

۳۳ ، ۳۴ ، ۳۵ ، ۳۶ ، ۳۷

۳۸ ، ۳۹ ، ۴۰ ، ۴۱ ، ۴۲

۴۳ ، ۴۴ ، ۴۵ ، ۴۷ ، ۴۸

۴۹ ، ۵۰ ، ۵۱ ، ۵۲ ، ۵۴

۵۵ ، ۵۶ ، ۵۷ ، ۵۸ ، ۵۹

۶۰ ، ۶۳ ، ۶۴ ، ۶۵ ، ۶۶

۶۷ ، ۶۸ ، ۶۹ ، ۷۰ ، ۷۱

۷۲ ، ۷۳ ، ۷۴ ، ۷۵ ، ۷۶

۷۷ ، ۷۸ ، ۷۹ ، ۸۰ ، ۸۱

۸۲ ، ۸۳ ، ۸۴ ، ۸۵ ، ۸۶

۸۷ ، ۸۸ ، ۸۹ ، ۹۱ ، ۹۲

۹۳ ، ۹۴ ، ۹۵ ، ۹۶ ، ۹۷

۹۸ ، ۹۹ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱

۱۰۲ ، ۱۰۳ ، ۱۰۴ ، ۱۰۵

کابودی فیلا - ۲۰۵

کابیتانا - ۱۵۹ ، ۱۶۰ ، ۱۶۳

۱۸۳ ، ۱۸۷ ، ۱۹۸ ، ۲۰۱

۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶

۲۰۷

کاتای - ۱۰۴ ، ۱۲۳ ، ۱۳۶ ، ۱۵۲

کاترینا انفنتا - ۱۷۹

کاردیرا - ۱۳۱ ، ۱۳۳ ، ۱۴۹

کاردینال سفورزا - ۱۰۲

کاریای - ۱۹۰

کازاردی فیجو - ۱۸۴

کاساس - ۹۵ ، ۹۸ ، ۱۲۸

کاسکیس - ۸۶

کااو - ۱۸۸

کاکو یوغوین - ۶۷

کامبالوک - ۶۷

کاو - ۲۱

کاونابو - ۱۱۹ ، ۱۴۶ ، ۱۴۷ ، ۱۴۹

۱۵۴

کای بریتون - ۲۰۵

کایولورغو - ۱۸۸ ، ۲۰۳

کندا - ۲۵ ، ۱۰۴ ، ۱۱۲	، ۱۰۹ ، ۱۰۸ ، ۱۰۷ ، ۱۰۶
كنيسة القديس جورج - ۴۰ ، ۴۷	، ۱۱۴ ، ۱۱۳ ، ۱۱۲ ، ۱۱۱
كنيسة القديسة ماري ماغيوري - ۱۱۴	، ۱۱۹ ، ۱۱۸ ، ۱۱۷ ، ۱۱۵
كنيسة الكازا - ۹۳	، ۱۲۶ ، ۱۲۴ ، ۱۲۳ ، ۱۲۰
كنيسة سانتا كلارا دي موغار - ۹۱	، ۱۳۰ ، ۱۲۹ ، ۱۲۸ ، ۱۲۷
كنيسة سانتا ماريا دي لاسنتا - ۹۱	، ۱۳۴ ، ۱۳۳ ، ۱۳۲ ، ۱۳۱
كوبا - ۴۳ ، ۶۳ ، ۶۶ ، ۶۷ ، ۶۹	، ۱۳۸ ، ۱۳۷ ، ۱۳۶ ، ۱۳۵
، ۷۱ ، ۱۰۴ ، ۱۱۱ ، ۱۳۰	، ۱۴۲ ، ۱۴۱ ، ۱۴۰ ، ۱۳۹
، ۱۳۴ ، ۱۳۳ ، ۱۳۲ ، ۱۳۱	، ۱۴۶ ، ۱۴۵ ، ۱۴۴ ، ۱۴۳
، ۱۴۲ ، ۱۳۹ ، ۱۳۸ ، ۱۳۶	، ۱۵۰ ، ۱۴۹ ، ۱۴۸ ، ۱۴۷
، ۱۸۲ ، ۱۵۷ ، ۱۵۱ ، ۱۴۸	، ۱۵۴ ، ۱۵۳ ، ۱۵۲ ، ۱۵۱
۲۰۳ ، ۱۸۹	، ۱۵۸ ، ۱۵۷ ، ۱۵۶ ، ۱۵۵
كوبا الغربية - ۲۶	، ۱۶۳ ، ۱۶۱ ، ۱۶۰ ، ۱۵۹
كوبانا كان - ۶۷	، ۱۶۷ ، ۱۶۶ ، ۱۶۵ ، ۱۶۴
كوبلاخان - ۲۴	، ۱۷۱ ، ۱۷۰ ، ۱۶۹ ، ۱۶۸
كوبيان - ۱۹۸ ، ۱۹۹ ، ۲۰۰	، ۱۷۷ ، ۱۷۵ ، ۱۷۴ ، ۱۷۳
کوراسو - ۱۷۵	، ۱۸۱ ، ۱۸۰ ، ۱۷۹ ، ۱۷۸
کورتیز - ۱۲۸	، ۱۸۵ ، ۱۸۴ ، ۱۸۳ ، ۱۸۲
کورسیکا - ۱۳	، ۱۸۹ ، ۱۸۸ ، ۱۸۷ ، ۱۸۶
کورفو - ۲۰	، ۱۹۳ ، ۱۹۲ ، ۱۹۱ ، ۱۹۰
کورنول - ۱۱۷	، ۱۹۷ ، ۱۹۶ ، ۱۹۵ ، ۱۹۴
کورونادو - ۱۲۸	، ۲۰۱ ، ۲۰۰ ، ۱۹۹ ، ۱۹۸
کوريو - ۱۶۵ ، ۱۶۸ ، ۱۷۰ ، ۱۷۵	، ۲۰۵ ، ۲۰۴ ، ۲۰۳ ، ۲۰۲
کوستاریکا - ۱۹۰ ، ۱۹۱	، ۲۱۰ ، ۲۰۹ ، ۲۰۷ ، ۲۰۶
کوکوسولو - ۱۹۵ ، ۲۰۳	، ۲۱۴ ، ۲۱۳ ، ۲۱۲ ، ۲۱۱
کولبا - ۶۶	، ۲۱۸ ، ۲۱۷ ، ۲۱۶ ، ۲۱۵
کولون - ۱۰۱	

۳۷	کولونیا - ۱۱۷
کونیو - ۱۲۵ ، ۱۲۹ ، ۱۴۵ ، ۱۴۹	کولینا - ۱۰۶
کینغستون - ۱۳۹ ، ۲۰۴	کونت مادینا سلی - ۳۰ ، ۳۱ ، ۳۲

(ل)

۱۹ ، ۲۰ ، ۲۷ ، ۲۸ ، ۳۰	لارابیدا - ۳۰ ، ۳۶ ، ۴۷ ، ۹۱
۳۳ ، ۳۴ ، ۸۱ ، ۸۵ ، ۸۷	لاس بالماس - ۴۹ ، ۱۸۵
۸۸ ، ۹۱ ، ۱۸۴	لاس کاساس - ۹۵ ، ۱۳۰ ، ۱۴۳
لندن - ۳۹	۱۴۸ ، ۱۶۷ ، ۱۶۹
لوس جاردین - ۱۶۵	لاغالینا - ۱۸۳
لونخ آیلند - ۶۵	لاغالینا - ۱۰۶
لويس دی توریز - ۴۴ ، ۶۶ ، ۶۷	لاغوردا - ۱۷۷ ، ۱۷۸
لويس دی سانتنجيل - ۳۷ ، ۳۸	لاغوس - ۱۴
لويشي - ۱۰۱	لافکوينوس - ۱۵۶
ليغاسي - ۳۹	لافیکا - ۱۷۶
ليکي - ۱۳۸	لاکوزا - ۷۴
ليون - ۴۳ ، ۹۶	لاناو - ۱۵۶ ، ۱۷۰
ليموناد بور دي مار - ۷۵	لشونه - ۹ ، ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۷ ، ۱۸

(م)

۱۳۱ ، ۱۳۹ ، ۱۸۲	مارتن بهایم - ۳۴ ، ۳۹ ، ۷۹
ماريا غالاتي - ۱۰۶ ، ۱۰۹ ، ۱۱۰	مارتير - ۶۴ ، ۱۰۲
۱۱۷ ، ۱۲۰ ، ۱۲۵	مارتين الونسو بنزون - ۴۴ ، ۵۶ ، ۵۷
ماري اوتس - ۱۳۳	۵۸ ، ۶۰ ، ۷۰ ، ۷۷ ، ۸۸ ، ۹۶
مارين - ۷۳	مارتينيك - ۱۰۸
مارينوس - ۲۶	مارکوبولو - ۲۴ ، ۲۶ ، ۶۹ ، ۷۹

مصب اوزاما - ١٨٦	ماغون - ١٣٧
مضيق الليمون - ٧٤	ماكاو - ١٢٣
مضيق جبل طارق - ١٤	مانجي - ٢٦ ، ٦٩ ، ١٣١ ، ١٣٧ ،
مضيق سبلت هل تشانل - ١٩٢	١٨٩ ، ١٣٩
مضيق ماجلان - ١٠٣ ، ١٧٠	مانبلا - ٣٩ ، ١٢٣
مضيق ملقة - ١٣٨	مايستر سانشيز - ٦٩
مكسيك - ١٨٢	محطة ميناء البرتغالية - ١٥١
ملقة - ٢٣ ، ١٨٩	مدام بيتا - ١٧٠
ملك البرتغال - ٩٧	مدريد - ١٠٥ ، ٢١٦
ملك سليمان - ١٣١	مدلين - ١٠٥
ملك مانويل - ١٥٥	مراكش - ٢٧
ملكبور مالدونادو - ١٠٦	مرسيليا - ١٨٤
ملايو - ١٢٥ ، ١٦٧	مرقا الليمون - ١٩٠ ، ١٩١
مر مونا - ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧	مرقا بايونا - ٨٨
مهاغون - ١٦٥ ، ٢٠٤	مرقا براكوا - ٧١
مورانت بوينت - ١٤١	مرقا ريو بينو - ١٣٥
موس - ٢٠١	مرقا فم الشعبان - ١٦٣
موغور - ١٠٦	مرقا كريستوبال - ١٩٥
ميشال دي كونيو - ١٠٦ ، ١١٦ ،	مرقا لشبونة - ٨٦
١٤١ ، ١٣٢	مرقا القديس سبستيان - ١٥٧
ميناء اسكريبانوس - ١٩٤	مرقا القديس لوسار دي باراميدا - ١٥٧
ميناء بوافيستا - ١٥٨	مرقا القديس نقولا مولي - ٧١
ميناء كريستنتد - ١١٥	مرقا مورانت - ١٣٩
مينغ - ٢٤	مصب الامازون - ٢٧٥

(ن)

نهر الیوجانا - ۱۸۶	تابلیون بوتابرت - ۱۲
نهر الشاغر - ۱۹۵	تابولي - ۹۵ ، ۱۷۹ ، ۱۸۴
نورمبرغ - ۳۴ ، ۹۹ ، ۱۴۱	تافیداد - ۷۵ ، ۷۷ ، ۱۰۸ ، ۱۱۸ ،
نوسا سینورادو آنجوس - ۸۳	۱۱۹ ، ۱۲۰ ، ۱۲۴ ، ۱۴۶ ،
نومبر دی دیوس - ۱۹۴	۱۴۷ ، ۲۰۱
نویا سکوشیا - ۱۶۴	نبلا - ۳۰ ، ۴۱ ، ۴۴
نیکراغوا - ۱۹۰	نجمۃ الشمال - ۲۰
نیکوسا - ۱۹۴	نهر آرینکو - ۱۶۵
نیکولاس دی اوغاندو - ۱۷۹	نهر اوزاما - ۱۷۰ ، ۱۸۶
نینا - ۴۲ ، ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۹ ، ۵۲ ،	نهر بیلین - ۱۹۷ ، ۲۰۰
۵۹ ، ۷۰ ، ۷۱ ، ۷۳ ، ۷۴ ،	نهر تاغوس - ۸۵ ، ۸۸
۷۵ ، ۷۶ ، ۷۸ ، ۸۰ ، ۸۱ ،	نهر جنجیز - ۱۹۲
۸۲ ، ۸۳ ، ۸۴ ، ۸۵ ، ۸۶ ،	نهر دی لوس دیساستریس - ۱۹۰
۸۸ ، ۹۱ ، ۱۰۶ ، ۱۲۵ ،	نهر ریو غراندي - ۱۶۵
۱۳۱ ، ۱۳۲ ، ۱۳۴ ، ۱۳۹ ،	نهر ریو غوریا - ۱۶۴
۱۴۹ ، ۱۵۰ ، ۱۵۶ ، ۱۷۵ ،	نهر ریویا کودیل نورتی - ۱۱۸ ، ۱۲۹
۱۸۲	نهر سان کروا - ۱۲۴
نینو - ۴۲ ، ۱۰۶	نهر غوادالکویغر - ۱۵۷
نیو انجلند - ۲۵ ، ۸۵	نهر فیراغوا - ۱۹۸
نیو فاوندلاند - ۲۰ ، ۲۹ ، ۹۸	نهر کاکویو غوین - ۶۷

(ه)

هایتی - ۷۱ ، ۷۳ ، ۱۴۱	هارانا - ۳۲
هرنان کورتیس - ۱۰۵	هارفرد - ۱۰۳ ، ۱۹۸
هرتاندو دی تالافیرا - ۳۲	هانساور - ۲۷

هوجيدا - ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٧٥	هندوراس - ١٦٥
١٧٩ ، ١٨٢	هنري كريستوف - ٧٣
هولجوين - ٦٨	هنري السابع - ٣٤ ، ١٥٢
هويلفا - ٣٠ ، ٩١ ، ١٠٦	هنري الملاح - ١٥ ، ١٩ ، ٢٨
هيلاسيلاسي - ٢٤	هوبو - ١٨٨

(و)

ويلز - ١٧٩	وادي الفردوس - ٧٢
	وليام هيكي - ١٣٩

(ي)

يسوع الطفل - ١٩٧	يابان - ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨
يوحنا الثاني - ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١	٣٥ ، ٣٩ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٧
يوليسس - ١٠٧	٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٦
	١٣١

فهرس المحتويات

٩	الفصل الاول	: كريستوفر يذهب الى البحر
١٥	الفصل الثاني	: الابحار الى البرتغال
٢٣	الفصل الثالث	: مولد مشروع عظيم
٣١	الفصل الرابع	: المساومة مع الامراء
٤١	الفصل الخامس	: الاستعداد للرحلة الاولى
٤٧	الفصل السادس	: عبور الأطلسي للمرة الاولى
٦٣	الفصل السابع	: آسيا ، أو ماذا
٧٧	الفصل الثامن	: رحلة العودة
٩١	الفصل التاسع	: ساعة النصر
١٠٣	الفصل العاشر	: الرحلة الثانية الى اميركا
١١١	الفصل الحادي عشر	: ارتياد ساحل جزر الكريب
١٢٣	الفصل الثاني عشر	: المستعمرة الاولى
١٣١	الفصل الثالث عشر	: اكتشاف كوبا
١٤٣	الفصل الرابع عشر	: الجحيم في اسبانيولا
١٥٣	الفصل الخامس عشر	: الرحلة الثالثة الى اميركا
١٦٣	الفصل السادس عشر	: عالم آخر
١٧٣	الفصل السابع عشر	: اميرال البعوض
١٨١	الفصل الثامن عشر	: الرحلة الهائجة
١٩٧	الفصل التاسع عشر	: نهر بيلين
٢٠٣	الفصل العشرون	: بوادر الخطر في جميعا
٢١٣	الفصل الحادي والعشرون	: الى الوطن ليموت
٢١٩	فهرس عام	
٢٤١	فهرس المحتويات	

صمم الغلاف
الفنان : اسماعيل شموط

فت. ب. (٢٨) ١٩٥٩

هَذَا الْكِتَابُ

وقد اكتنف كولبوس أميراً كما بمحض الصدفة
ولذلك سميت باسم شخص آخر لم تكن له بها أدنى
صلة. ولما نحن تكريم كولبوس لقيامه بعمل لم يقصد
القيام به أبداً، بل إننا مات ولم يدرب بما عمله.
ومع هذا فتحن على حق في تكريمه، إذ لم يك
تمت بحار غيره، يملك الصبر والعرفان والشجاعة
للبحار آلاف الأميال في فضاء المحيط إلى أن يجز
الباب.

وكان هذا العمل أعظم وأهم اكتشاف جغرافي
بعيد الأثر سجله تاريخ الإنسانية. لهذا فضلاً عن أن
كولبوس، بالإضافة إلى ضخامة العمل الذي حققه،
كان شخصية مثيرة تبعته على الإعجاب.

كتاب جدير بالقراءة

منشورات

دار مكتبة الحياة